د. آمنة البدوي

شعر النازحين

من الأندلس إلى مصر والشام في القرن السابع الهجري

بين التأثر والتأثير





الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail : alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنية الهاشمية ، عمّان ، وسط البلد ،
شارع الملك حسين،بجانب مطعم القدس - بناية رقم 12
هاتف 4638688 6 00962 ، فاكس 4657445 6 00962

الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ،
بجانب البنك المركزيّ ، مكتب المقاصة - بناية رقم 34

مكتب بيروت
لبنان ، بيروت ، بئر حسن ، شارع السفارات
هاتف : 824203 1 00961 ، مقسم 19

◆

شعر النازحين

تأليف: د. آمنة سليمان البدوي

الطبعة الأولى ، 2009

◆

الغلاف : **علي الحسيني** 99782270 7 00962 ، عمّان ، الأردن

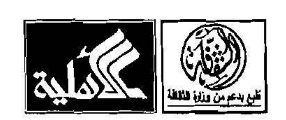
الصف الضوئي : **إيمان زكريا** - 079/5349156

د. آمنة سليمان البدوي

شعر النازحين

من الأندلس إلى مصر والشام في القرن السابع الهجري

بين التأثر والتأثير



الإهداء

إلى من . .

يرصفونَ الأرضَ الدّماء

فتنزحُ الأجسادْ

لكنهم باقون

كألف نخلةٍ

يطلعونَ في أفقِ السّماء

يبعثون الشمس

فتشرقُ الأهدابُ بالضياء

مُقَدِّمَة

شهد القرن السابع الهجري في الأندلس، تبدلات في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، نتيجة للظروف التي داهمت الأندلس من فتن وحروب، فقد تتابع سقوط المدن الأندلسية بصورة مطردة بعد موقعة العقاب سنة (609هـ) التي كانت نذير انحلال الجبهة الأندلسية، فلم يأت الربع الثاني من النصف الثاني من القرن السابع الهجري، إلا وقد سقطت معظم مدن الأندلس، وقد كان لهذه الأوضاع آثارها الاقتصادية والاجتماعية فقد ضيّق على الناس، ونفدت الأقوات، وانتشرت الأوبئة، مما كان له أثر بيّن في ازدياد موجات الهجرة والنزوح، فقد بدأت موجات الهجرة الداخلية تزداد خاصة نحو مملكة غرناطة إذ كان أهل الأندلس يعيشون حالة من الفزع والاضطراب والقلق.

لم تتسع غرناطة لكل هؤلاء المهاجرين، فكان لا بد من توجه المسلمين إلى خارج الأندلس، فارتحلوا إلى المغرب العربي، والمشرق لإسلامي الذي يقصد به مصر والشام والعراق، لكن توجه المرتحلين إلى العراق كان أقل مقايسة بمصر والشام، نتيجة للاضطرابات والأوضاع غير المستقرة فيه.

استقر المرتحلون إلى مصر والشام في المدن الرئيسة، ولا يعني ذلك أن كل من كانوا بمصر والشام من المرتحلين قد نزحوا بصورة اضطرارية في فترة سقوط المدن الأندلسية، فقد ارتحل بعضهم قبل تغير الظروف في الأندلس بصورة واضحة أو في أثنائها إلا أنه كان في الأغلب نزوحاً نهائياً، فاستقراراً في مدن المشرق، وقد وردت في هذه الدراسة تسميات عدة، هي: النازحون، والمرتحلون، والمُهجَّرون والمهاجرون، وكان يقصد بها كل ذلك، مع

غلبة معنى تسمية النزوح عليهم؛ لأن الظروف التي اضطرتهم للخروج إجبارية غالباً، ويدلل على ذلك تمني عودتهم إلى الأندلس في معظم أشعارهم ولو كانوا خرجوا برغبتهم، ولو كانت العودة سهلة لما تمنوها.

وقد استخدم في الدراسة لفظ المغاربة وقصد به الأندلسيون لأن الرحالة والمؤرخين والأدباء لم يفرقوا بين من كان منهم مغربياً أو أندلسياً، فأطلق على الأندلسيين المغاربة، ولم يُرد به المغاربة بصورة خاصة.

وقد عنيت هذه الدراسة بتتبع الشعراء المرتحلين في القرن السابع الهجري وجعلت لتراجمهم ملحقاً خاصاً في نهاية الدراسة، كما عنيت بإبراز محاور شعرهم، وتبين أثر الارتحال فيها من خلال وصفهم للمعطيات البيئية والحضارية في المشرق، وليس معنى هذا أن الدراسة قد عنيت بالشعر المتعلق بالارتحال فقط، وإنما بالشعر الذي قيل في مصر والشام في القرن السابع الهجري، مرتكزة على عناصر عدة لتحديد زمن الشاعر وهو القرن السابع الهجري، والمكان الذي قيل فيه هذا الشعر وهو مصر والشام، وهذه العناصر هي: سنة الخروج من الأندلس، أو اللقاءات بالمؤرخين والأدباء والشعراء المعاصرين في مصر والشام، أو تحديد ذلك من خلال القصائد، أو من خلال علاقاتهم بالملوك أو القواد أو الوزراء المعاصرين من المشارقة. وقد عنيت الدراسة بتتبع هذا الشعر بغض النظر عن الفترة الزمنية التي أقامها الأندلسيون في مصر والشام.

وتحديد فترة الدراسة بالسنوات الواقعة بين (600-700هـ/ 1203-300م) لا يعني بداية السنوات ونهايتها بصورة حاسمة، فقد تناولت شعراء مرتحلين عاشوا إلى ما بعد القرن السابع الهجري، على أن الباحثة حرصت على عدم دراسة قصائدهم التي حدد زمنها بعد هذه الفترة، إلا إذا حُدِّد تاريخ نظم هذه القصائد بصورة محددة، أو وردت فيها إشارات للشعراء من خلال قصائدهم، تلمح إلى زمن نظمها، فأثير الدين أبو حيّان على سبيل المثال توفي سنة (745هـ) لكن أخذت بعض قصائده التي حدد زمن نظمها من خلال الشخصيات التي التقاها، وكان أصحابها ممن عاشوا في القرن السابع الهجري وتوفوا فيه، أو من خلال بعض قصائده ولا سيما قصيدته النحوية التي حدد فيها مدة

إقامته بمصر وهي عشرون سنة، فيكون قد قالها سنة (699هـ)، لأنه ارتحل إلى المشرق سنة (679هـ).

وقد وردت إشارات عند بعض الباحثين إلى الشعراء المرتحلين من خلال دراسات تتعلق بدور الأندلسيين والمغاربة في المشرق، وهي «المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى» لصلاح الدين المنجد، و«الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس الهجري وحتى نهاية القرن التاسع الهجري». لعلي أحمد، وله كذلك رسالة جامعية (رسالة دكتوراه) اطلعت عليها الباحثة في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق وهي «الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة منذ نهاية القرن الخامس الهجري، وحتى نهاية القرن التاسع الهجري» وقد جاءت الإشارات فيها إلى الشعراء المرتحلين في صفحات قليلة، لأن هذه الدراسات كانت تعنى بدراسة الجانب التاريخي.

استقيت مادة الدراسة من مصادر متنوعة، أبرزها كتب التراجم، والمصادر التاريخية والمشرقية والمغربية، وجاء بعضها مخطوطاً، ولعل أهم المصادر المخطوطة، مخطوطة «عقود الجمان في شعراء هذا الزمان» لابن الشعار الموصلي، التي كشفت عن تراجم شعراء لم ترد في المصادر المطبوعة، كما وجدت فيها مادة شعرية غنية، أنشدها له الشعراء المرتحلون الذين التقاهم في مصر أو الشام، أو أنشدت له ممن روى عنهم، وقد تعرضت بعض المادة الشعرية فيها إلى محو الحروف وعدم وضوحها بفعل الرطوبة، وأشارت الباحثة إلى بعض هذه القصائد لكن لم توردها بسبب عدم وضوح الخط.

وعثرت الباحثة على قصيدة مخطوطة لعلم الدين أحمد بن القاسم المالقي، ضمن مجاميع مخطوطة رقم (3818) في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، وقد وصف الشاعر فيها رحلته إلى المشرق وذكر بعض من التقاهم من العلماء والمحدثين والفقهاء في مصر والشام والعراق.

كما استقيت مادة الدراسة من مصادر مطبوعة منها: «المغرب في حُلى المغرب» لابن سعيد المغربي، و«الإحاطة في أخبار غرناطة» للسان الدين ابن الخطيب، و«الوافي بالوفيات» للصفدي، و«فوات الوفيات» للكتبي وغيرها من المصادر التاريخية والنقدية، والدواوين الشعرية، والمراجع العربية والأجنبية.

وقد جاءت هذه الدراسة في مدخل وثلاثة فصول عرض المدخل رحلات الأندلسيين إلى المشرق قبل فترة الاضطرابات وفي أثنائها، مبرزاً قيمة ما حملته هذه الرحلات عن المشرق للأندلسيين سماعاً أو قراءة أو مشافهة.

ويتناول الفصل الأول الأوضاع العامة في الأندلس وفي مصر والشام في القرن السابع الهجري، والظروف التي تسببت عن الحروب والفتن وسقوط المدن، كما يتناول الأوضاع في مصر والشام من الجانب الإيجابي من مناحٍ عدة طبيعية وسياسية وعلمية واقتصادية، ومدى تشكيلها عوامل جذب للأندلسيين المرتحلين.

ولم تحدد الدراسة هذه الأوضاع بصورة عوامل محددة، لأن الباحثة لم تعثر على تحديد أسباب الارتحال لكل شاعر بصورة خاصة، وإن كانت هذه الأسباب وردت للقليل النادر منهم، وربما كانت عمومية الأسباب أغنت عن ذكر خصوصيتها، ولا يمكن للدراسة أن تجعل مثل هذا الافتراض قاعدة تبنى عليه نتائج قد تكون غير دقيقة.

ويتناول الفصل الثاني موضوعات شعر النازحين وهي: علاقة الشعراء بملوك المشرق وسلاطينه وكبار رجال الدولة فيه والحنين وشكوى الغربة وتعدد صورها، واستندت الدراسة في إبراز هذه الصور على دراسة هذه الظاهرة في شعر ابن سعيد المغربي، ووصف مدن المشرق والمظاهر الحضارية فيها، والمطارحات والمساجلات والمعارضات مع المشارقة، والزهد والتصوف، واللهو والمجون، وموضوعات أخرى متفرقة.

ولا يعني أن الدراسة قد عرضت لكل أشعار المرتحلين بدراسة تفصيلية، بل عرضت محاور عامة؛ لأن الدراسة التفصيلية في كل بُعد من أبعاد هذه المحاور العامة، تحتاج إلى دراسات أخرى تالية، ولعل اتساع المادة وغزارتها تتحكم في عرض الموضوعات، لذلك اكتفت الدراسة بالمحاور العامة والأبعاد الكلية.

أما الفصل الثالث فيتناول الدراسة الفنية لهذا الشعر، من حيث الصورة الشعرية التي حملت دلالات نفوس الشعراء وثقافتهم وظروف عصرهم، والفنون البديعية التي أكثر الشعراء من استخدامها مجاراة لذوق عصرهم، والأسلوب واللغة، وتنويع الشعراء في أدواتهم الفنية، واستفادتهم من معطيات عصرهم وثقافته. والتأثر والتأثير بين المشارقة

والمغاربة، وآراء بعض الأندلسيين في شعر المشارقة، أو آراء المشارقة في شعر الأندلسيين، والمحاورات التي جرت بينهم في ذلك، خاصة ما جرى بين ابن سعيد والبهاء زهير.

وبعد، أرجو أن تكون هذه الدراسة قد حققت الغاية منها، وقدمت تصوراً واضحاً عن أوضاع الشعراء المرتحلين، ومحاور شعرهم، وأسهمت في إضاءة جوانب من هذا الشعر الذي غاب الكثير منه، وما زال يحتاج إلى دراسات تكشف عنه، وتدرس محاوره بصورة تفصيلية معمَّقة.

والله ولي التوفيق

مدخل

تستعرض هذه الدراسة بعض رحلات الأندلسيين إلى المشرق، لأهمية ما حملته عن المشرق وظروفه الطبيعية والدينية والاجتماعية والعلمية التي نقلت للأندلسيين سماعاً أو قراءة، وشكلت هذه الظروف عامل جذب، واستعداداً نفسياً للارتحال إلى المشرق، بعد أن استقرت صورته في أذهانهم.

ليس غريباً أن يرنو الأندلسيون بأبصارهم إلى المشرق أرض المنشأ، فالجند الشاميون ظلت قلوبهم متعلقة بالمشرق وببلاد الشام خاصة حتى إن مدن الأندلس حمل بعضها أسماء بلدان المشرق مثل إشبيلية التي سميت حمص، وإلبيرة التي سميت دمشق.

كانت فريضة الحج من أعظم البواعث على سفر الكثيرين من الأندلسيين في كل عام للحجاز، وبعد زيارة الحرمين كان الكثير منهم يقصدون المقامات المباركة كالمسجد الأقصى في القدس، وقبر إبراهيم الخليل، ثم يعرجون على دمشق ومدن أخرى، وفي رجوعهم يقفون بمصر، ثم يتوجهون للفسطاط حيث جامع عمرو بن العاص، وبعدها يقطعون مفازة من برقة إلى طرابلس، ثم إلى تونس فالمغرب.

وكان بعضهم يرتحل إلى المشرق، بقصد الاستطلاع واكتشاف المجهول.

وكثر المرتحلون لتلقي العلم، إذ كان المشرق مركز إشعاع علمي، كما كانت بعض رحلاتهم تجارية أو سفارية.

تتبع الدراسة بعض هذه الرحلات الأندلسية إلى المشرق، مبرزة ما ورد فيها عن مصر والشام خاصة، من معلومات جغرافية طبيعية، أو وصف للأماكن الدينية والحلقات

العلمية، وأحوال الأندلسيين فيهما وأوضاعهم العامة، الأمر الذي ساعد على نزوح أهل الأندلس إلى المشرق.

لعل أشهر المرتحلين من الأندلسيين في أواخر القرن الخامس الهجري، أبو بكر محمد ابن عبدالله بن أحمد بن العربي المعافري قاضي إشبيلية (ت 543هـ)، وكان قد خرج في سن مبكرة بصحبة والده من إشبيلية سنة (485هـ) قاصداً شمال إفريقيا معرجاً على بونة وتونس وسوسة إلى المدن الفلسطينية، وقد سجل أحداث رحلته العلمية الاجتماعية في كتابين، الأول: «ترتيب الرحلة للترغيب في الملة» ولم يعثر إلى الآن على هذا الكتاب، وقد وردت منه نقول في خطبة شواهد الجلة التي نقلها د. حسين مؤنس من مخطوط صوره د. محمد علي مكي من مكتبة القرويين في فاس، يقول ابن العربي عن الخطبة، واصفاً ما جناه من فوائد علمية في المشرق: «لما سبق خيرُ القضاء برحلتي إلى تلك المشاهد الكريمة، وحلولي في تلك المقامات العظيمة، دخلتها والعمرُ في عنفوانه، والغصن مائسٌ بأفنانه ... فَجَنَيْتُ من كلِّ شَجَرٍ زَهرَه، ووعيتُ من كلِّ صِنْفٍ دُرَرَهْ، وكشفتُ عن كل خَفاءٍ غَوْرَه، وافتقرتُ من كلِّ فنٍّ فِقَرَه، حَسْبَما فَسَّرتُه وأوضَحتُه، وشَرَحتُهُ وبيَّنتُه، وقرَّرتُه ونزَّلتُه في كتاب «ترتيب الرحلة للترغيب في الملة»، وذكرت فيه لِقاءَ الأعيانِ لَنا، وسِيَرَ الفُضَلاءِ مَعَنا، ولَحْظِهِم لجانِبِنا بِناظِرِ التَّعظيم، ومُقابَلَتِهِم ورودَنا بالتَّجليلِ والتَّكريم.. وأتبعناهم جُمَلاً من طرائفهم، ونُتَفاً من فوائدهم»[1].

أما كتابه الآخر، فهو «قانون التأويل» الذي عثر عليه د. إحسان عباس ضمن مخطوطة بمكتبة الحاج سليم آغا بأسكدار، تحت رقم 498، ونشره في مجلة أبحاث التي تُصدرها الجامعة الأمريكية في بيروت حيث زار ابن العربي في رحلته كثيراً من المدن المشرقية، مصوراً بعض المشاهد من الحياة العامة، ذاكراً من لقيهم من العلماء من محدثين وفقهاء ومتكلمين في مصر، ثم يذكر توجهه إلى الشام، ودخوله بيت المقدس والتقاءه بجماعة من العلماء واصفاً مجالسهم ومناظراتهم، التي تعكس حركة علمية نشطة في بيت

(1) حسين مؤنس: تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1967، ص406-407.

المقدس[1] وقد طالت إقامته في بيت المقدس، يقضي وقته مصلياً بين باب الأخضر وباب حطَّة[2]، أو يخلو للدرس في جانب من الصخرة التي تسمى المائدة بطور زيتا[3]، وقد وصف أهل القدس بقلة الفضول، مقارناً إياهم بأهل بلده في وصفه محراب داود بقوله: «شاهدت محراب داود ﷺ ، في بيت المقدس، بناءً عظيماً من حجارة صلدة لا تؤثر فيها المعاول ... ورأيت فيه غَريبَةَ الدَّهر، وذلك أن ثائراً ثار به على واليه وامتنع فيه بالقوت، فحاصره وحاول قتله بالنَشّاب مدة، والبلد على صِغَره مستمرٌّ على حاله، ما أغلقت لهذه الفتنة سوقٌ، ولا سار إليها من العامة بَشَر، ولا برز للحال من المسجد الأقصى مُعْتَكِف، ولا انقَطَعت مُناظرة ولا بَطل تدريس، وإنما كانت العسكرية قد تفرقت فرقتين يقتتلون، وليس عند سائر الناس لذلك حركة، ولو كان بعض هذا في بلادنا، لاضطربت نار الحرب في البعيد والقريب، ولانقطعت المعايش وغلقت الدكاكين، وبطل التعامل، لكثرة فضولنا وقلة فضولهم»[4].

وقد زار ابن العربي كثيراً من مدن فلسطين وقراها، ونقل بعض صور الحياة العامة فيها، مثل نابلس التي أقام فيها أشهراً ووصف حال نسائها، حيث قال: «ولقد دخلت نيفاً على ألف قرية من بَرِيَّة، فما رأيتُ أصوَنَ عيالاً ولا أعفَّ نساءً من نساء نابلس التي رمي فيها الخليل ﷺ بالنار، فإني أقمت فيها أشهراً، فما رأيت امرأة في طريق نهاراً إلا يوم الجمعة، فإنهن كُنَّ يخرجن إليها حتى يمتلئ المسجد منهن، ... وسائر القرى تُرى نساؤها متبرجات بزينة...»[5].

(1) إحسان عباس: رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها «قانون التأويل»، مجلة الأبحاث، تصدرها الجامعة الأمريكية، بيروت 1968، السنة 21، الأعداد (2-4)، انظر ص79-85.

(2) أبو بكر ابن العربي: أحكام القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء التراث، القاهرة، 1957م، 3/ 1297.

(3) أحكام القرآن، 2/ 524.

(4) أحكام القرآن، 3/ 1586.

(5) المصدر السابق، ص1523.

ومن المرتحلين أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله الإدريسي (493-564هـ) الذي طاف الأندلس وشمالي إفريقيا، ثم رحل لتأدية الحج إلى بيت الله الحرام، فزار مصر والحجاز، مدوناً مشاهداته في رحلته الموسومة بـ «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» مستعيناً بما أفاده من رحلاته الخاصة، وبما قيده من أحاديث الرحالة والتجار والحجاج، مصوراً العلاقة بين بلدان المشرق والأندلس لا سيما مصر والشام[1].

ويرتحل بنيامين التُطيلي (-569هـ) في النصف الثاني من القرن السادس الهجري إلى الشرق الإسلامي، بدافع الاطلاع الشخصي، مورداً معلومات عن اليهود وواصفاً أحوالهم في كل مدينة زارها، ومتنقلاً بين المدن العامرة، والقرى الزاهرة في سوريا ولبنان، ولا يفوته زيارة أضرحة الصحابة والأتقياء ومقامات الصالحين وينقل بعض القصص والروايات التي سمعها من تجار العرب[2].

ومن أبرز الرحلات في أواخر القرن السادس وأوائل السابع الهجري رحلة ابن جبير البلنسي الغرناطي (ت 614هـ) الذي ارتحل إلى المشرق ثلاثاً، وحج في كل واحدة منها، حيث ترك غرناطة سنة 578هـ، ثم عاد إلى وطنه سنة 581هـ، وقد نقل ما شاهده في هذه الرحلة من عجائب البلاد، وغرائب المشاهدات، ولما شاع الخبر بفتح بيت المقدس على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي، قوي العزم عنده في الارتحال ثانية سنة 585هـ، ثم عاد سنة 587هـ، منقطعاً للحديث والتصوف، ثم رحل ثالثة سنة 614هـ، فوصل مكة وانتقل إلى مصر والإسكندرية، وتوفي في العام نفسه[3].

وتحوي هذه الرحلة معلومات اقتصادية وبشرية وطبيعية واجتماعية، وتعطي صورة عن المغاربة في بلاد الشام، خاصة عن أواضعهم العامة، كما عرض للحديث عن معاملة

---

(1) انظر صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق، مطبعة بريل، لَيْدن 1968، الصفحات 14-22، 37-50، 136-164، 197.

(2) انظر: رحلة بنيامين التُطيلي، قدم لها عزرا حداد، بغداد 1945، مقدمة المحقق.

(3) أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالملك الأوسي المراكشي: الذيل التكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 1965، ج5/ ق2/ 605-606.

حجاجهم، رافعاً قصيدة إلى صلاح الدين بهذا الشأن، وتتبدى قيمة هذه الرحلة في أن معلوماتها دونت بأمانة، بعد مشاهدة صاحبها كل من وصفه، كما تتجلى فائدتها في أنها تُعرِّف الطريق البحري الذي يسلكه الأندلسيون إلى المشرق، وقد وصفه ابن جبير بدقة، معرفاً بالموانئ المهمة التي أدت دوراً كبيراً في الاتصال بين الشرق والغرب[1].

ومن أهم رحلات القرن السابع الهجري، رحلة ابن سعيد المغربي، الذي غادر الأندلس وهو في التاسعة والعشرين، ووصل الإسكندرية سنة 638هـ، وتنقل بين المغرب وتونس ومصر والشام، وقد رأى في تجواله في تلك الأقاليم الإسلامية، كثيراً من العادات التي لم يألفها في الأندلس، ولم يقف عن تلك العادات في المجتمع المشرقي، بل سجل مشاهداته ووازن بينها وبين المجتمع الأندلسي، فالفسطاط في القرن السابع الهجري كما رآها كانت مُغبرَّة الآفاق، غير مستقيمة الشوارع، بيوتها مبنية بالطوب، ضيقة الأسواق، والناس يلتهمون الطعام في الطرقات غير محتشمين، وقد نقل ابن سعيد صوراً من الحياة في أحياء القاهرة والفسطاط، واصفاً الولائم ومجالس اللهو والطرب، تاركاً نفسه على سجيَّتها، لا تفوته اللمحات الذكية عند بعض المشاهد[2].

وتكمن قيمة هذه الإشارات السريعة للرحلات الأندلسية، في أنها تدلل على دور الرحلات في نقل جوانب مضيئة مفصلة، تتصف بالدقة والأمانة عن بلدان المشرق، وخاصة أن بعض الأندلسيين ارتحلوا غير مرة، مما أتاح لهم أن يُسجلوا انطباعاتهم، ويصفوا مشاهداتهم وينقلوها إلى الناس بصورة حية.

وكثرت كذلك رحلات العلماء والمحدثين والأطباء على المشرق، بصورة يصعب حصرها، فقد كانوا أمثلة واقعية تؤكد استمرارية الاتصال بين المشرق والمغرب.

---

(1) انظر: رحلة ابن جبير، دار صادر ودار بيروت، بيروت 1959، 13، 14، 30، 46، 54، 256، 258، 280.

(2) ابن سعيد المغربي: المغرب في حُلى المغرب، القسم الخاص بمصر، قدم له زكي حسن وآخرون، مطبعة فؤاد الأول، مصر 1953، انظر ص4-12.

الفصل الأول

الأوضاع العامة في الأندلس ومصر والشام

توطئة

يدرس هذا الفصل الأوضاع العامة في الأندلس وفي مصر والشام، وما يتعلق بهما من ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية وطبيعية وعلمية، حيث تتضح من خلال دراسة تلك الظروف العوامل غير المباشرة التي أدت إلى الارتحال من الأندلس، والاتجاه إلى مصر والشام. ولعل عدم تحديد الدراسة لتلك الظروف بصورة عوامل محددة واضحة للارتحال إلى مصر والشام، يرجع إلى عدم توافر أخبار شاملة عن أسباب الارتحال لمعظم الشعراء بصورة خاصة لكل منهم. وإن كانت وردت بعض أسباب الارتحال للقليل منهم بصورة خاصة، لا تكفي لجعلها عامة لمعظم الشعراء، وربما كانت عمومية الأسباب أغنت عن ذكر خصوصيتها لكل شاعر من الشعراء، ولا تستطيع الدراسة أن تجعل مثل هذا الافتراض قاعدة تبنى عليه نتائج قد تكون غير دقيقة.

الأوضاع العامة في الأندلس

ويقصد بها الظروف والتبدلات في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والأحوال التي كانت تمر بها الأندلس في القرن السابع الهجري، بسبب الفتن وسقوط المدن، وتأثيراتها في أوضاع المسلمين وتشكيلها عوامل سلبية لهم.

أ- الظروف السياسية

ضعف أمر الموحدين، وكثرت الفتن والثورات الداخلية، وقد بذل الموحدون ما استطاعوا، لكنهم كانوا أصحاب امبراطورية واسعة، تمتد حدودها من طرابلس شرقاً إلى مشارف المحيط الأطلسي غرباً، وكان من المستحيل أن يستمروا يحاربون في جبهات ممتدة، ولعل الجبهة الأندلسية كانت أضعف جبهاتهم، وأشدها خطراً، لكثرة الحروب والفتن المتوالية في الأندلس، وقد تماسكت هذه الجبهة بعد تضحيات كثيرة[1]، تداعت أيام محمد الناصر بن المنصور يعقوب بن يوسف عبد المؤمن (595-610هـ) في موقعة العقاب التي وقعت سنة 609هـ[2] وكانت هزيمة المسلمين في هذه الموقعة نذير انحلال الجبهة الدفاعية الموحدية، ونذير انهيار الأندلس ذاتها، وقد عجّل بهذا الانهيار ما اضطرمت به الأندلس من ثورات جديدة، بددت قُواها في حروب أهلية، ومنافسات على الزعامة، كان لها آثارها السيئة في تفكك وحدة الأندلس وسقوط قواعدها الواحدة تلو الأخرى[3] كما سنرى.

تولى الحكم بعد وفاة الناصر ابنه المستنصر يوسف (611-620هـ) فأدخل وهناً جديداً على الدولة بسبب انهماكه في ملذاته[4]. وتولى بعده عمه المستضيء عبدالواحد بن يوسف بن عبد المؤمن، ولم يكن أقل منه انشغالاً بالتنعم، ثم خلع وقتل، وملك بعده ابن أخيه عبدالله بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الملقب بالعادل، الذي استأثر بالخلافة عنوة، ولما انتهى إلى أبي العلاء إدريس صاحب الأندلس، وكان يتولى قرطبة خبرُ أخيه

(1) ابن الأبار: أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي، الحُلة السيراء، تحقيق د. حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة، القاهرة، ط1، 1963، 1/ 21 من المقدمة.

(2) العقاب Navas de Tolosa، بالأندلس بين جيّان وقلعة رباح، كانت في هذا الموقع وقعة عظيمة انجلت عن هزيمة المسلمين سنة 609هـ. عبدالمنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1984، ص416.

(3) محمد عبدالله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ط1، 1964، 2/ 591.

(4) أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل: المختصر في أخبار البشر، المكتبة الحسينية، القاهرة 1325هـ/ 1907م، 3/ 133.

العادل وما في خلافته من الاضطراب، دعا لنفسه بإشبيلية فبويع بها، وأجابه أكثر أهل الأندلس وتلقب بالمأمون سنة (624هـ)[1].

لم يوفق المأمون إلى حكم أقل اضطراباً من حكم أخيه، فدق كان يحكم بيد من حديد، وحاول تحطيم نظامي الخمسين والسبعين اللذين أنشأهما أمراء الموحدين وفقاً لتعاليم المهدي، وجعلهما هيئتين استشاريتين فقط، وقد أدت هذه السياسة الصارمة في المغرب، إلى خروج الأندلس من قبضة الموحدين[2]، وقيام الثورات والحروب الأهلية، حيث نادى النظامان ببطلان حكومة المأمون، وتولية أبي زكريا يحيى ابن الخليفة السابق محمد الناصر، وهو صبي في الرابعة عشرة من عمره، وأرسلوه إلى الأندلس لمحاربة المأمون وإسقاطه، فهزمه المأمون في معركة شديدة نشبت بينهما[3] قرب شذونة[4] وانتهز النصارى فرصة الحرب الأهلية بين المسلمين للقيام بغزوات عديدة، وعبروا الحدود الإسلامية، فتحول المأمون إلى محاربتهم واسترجع بعض الحصون[5].

وقد ابتليت الأندلس في أثناء تولية الحكام الضعاف من الموحدين بالثورات والحروب والفتن الداخلية، فقد قام عبدالله البياسي سنة 623هـ بالأندلس، وكان العادل قد ولاّه قرطبة، فخلع دعوة العادل، وخرج عن طاعة الموحدين مستعيناً بالنصارى عليهم، ودلّهم على عورات البلاد، فتملكوا الأموال، وحاصر إشبيلية، وقاتله أبو العلاء إدريس المأمون وهزمه[6] بعد أن استمرت ثورته ثلاثة أعوام، تنشر الاضطراب والدمار

(1) الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري، ومحمد الناصري، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954، 2/ 207-208.

(2) علي ابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط 1972، ص253-254.

(3) محمد عبدالله عنان: عصر المرابطين والموحدين، 2/ 106.

(4) شَذُونة (Sidona): كورة جليلة القدر، متصلة بكورة مورور، لجأ إليها أهل الأندلس سنة 136هـ، جامعة لخيرات كثيرة، الروض المعطار، ص339.

(5) عنان: عصر المرابطين والموحدين، 2/ 106.

(6) ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، عُني بنشره أمبروسي هويسي مراندة بمساهمة مع محمد بن تاويت، دار كريماديس للطباعة، تطوان، المغرب 1960، ق3،ص250.

في أواسط الأندلس، وتمهد للنصارى اقتطاع القواعد والحصون شرقي قرطبة، مما أضعف خطوط الدفاع عنها، ومهّد لسقوطها[1]. وقام أبو جميل زيان بن مردنيش ببلنسية واستقل بحكمها، بعد أن طرد الموحدين منها، وبينما انحصرت حركة زيان ببلنسية، وإذا بدعوة محمد بن يوسف بن هود الجذامي سنة (626هـ) تجتاح مرسية وألمرية[2] وغرناطة ومالقة[3] وبطليوس[4]، وأعلن نفسه أميراً على مرسية، وخطب للعباسيين، ودانت له جيّان[5] وقرطبة، ثم فقد الموحدون غرناطة، فثارت بلاد الأندلس على المأمون، ثم انقادت له، وخرجت بذلك عن ملك الموحدين عدا إشبيلية والجزيرة الخضراء[6] على أن جهود ابن هود تلك، اصطدمت بمطامع الإسبان من ناحية، ومطامع الرؤساء الأندلسيين من ناحية أخرى[7]، وانتهى الأمر باغتياله في مرسية سنة 635هـ[8].

---

(1) عنان: عصر المرابطين والموحدين، 2/ 361.

(2) ألمرية (Almeria): مدينة أمر ببنائها أمير المؤمنين الناصر لدين الله سنة 344هـ، وكانت في القرن السابع أشهر مراسي الأندلس وأعمرها، ولما ملكها الروم غيروا محاسنها وسبوا أهلها، وخربوا ديارها، الروض المعطار، ص538.

(3) مالقة (Malaga): مدينة عامرة من أعمال رية، سورها على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية يحمل منها التين الذي اشتهرت به مصر والشام. عبد المؤمن بن عبدالحق البغدادي صفي الدين: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق وتعليق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، 3/ 1221. الروض المعطار، ص517-518.

(4) بطليوس (Badajoz): من إقليم ماردة، بناها عبدالرحمن بن مروان، مدينة جليلة في بسيط من الأرض لها ربض كبير في شرقيها، ياقوت بن عبدالله الحموي: معجم البلدان، دار صادر بيروت، 1/ 447، الروض المعطار، 93.

(5) جيّان (Jean): مدينة كثيرة الخصب، اشتهرت باللحوم والعسل، وغلات القمح والشعير، قريبة من بياسة، كثرت فيها العيون والينابيع. الروض المعطار، ص183.

(6) الجزيرة الخضراء (Algeciras): مدينة حصينة رفيعة، كانت بها دار صناعة السفن، جامعة لفوائد البر والبحر، لأنها وسط الساحل، وأقرب مدن الأندلس إلى العدوة. الروض المعطار، 223/ 355-356.

(7) السيد عبدالعزيز سالم، وأحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 1993، 2/ 285.

(8) الروض المعطار، ص355-356.

وقام في أرْجونة[1] محمد بن الأحمر سنة (629هـ) بعد صراعات شديدة بينه وبين ابن هود، واستطاع دخول غرناطة[2]، وإيقاع هزائم بابن هود، كان آخرها سنة (633هـ)[3]، كما استطاع أن يضم إلى سلطانه مدائن عدة هي: وادي آش[4] وباجة[5] وجيّان.

وقد أدى استمرار الأحقاد والمنافسات بين الأمراء الثلاثة (ابن زيان، وابن هود، وابن الأحمر)، إلى كثرة الاضطراب في كل ناحية، واختلال الأمن، وسادت الفرقة وتفاقم خطرها[6]، وبدت الأندلس كلها من مرسية إلى إشبيلية مكشوفة أمام أعداء يتربصون بها، وينتظرون فرصة للتقدم والاستيلاء على البلاد، وقد سار التقدم النصراني ابتداءً من العقد الثالث من القرن السابع الهجري بتيارات ثلاثة: الأول وجهته غرب الأندلس وتولاه أمراء البرتغال، والثاني وجهته حوض 'الوادي الكبير[7] وتولاه ملوك قشتالة، والثالث وجهته شرق الأندلس وتولاه ملوك أرغون، وكانت هذه الجبهات تقف صفاً قوياً أمام المسلمين، بالإضافة إلى تميز ملوكها بالقدرة السياسية، والتصميم على حرب المسلمين[8]. فعلى سبيل المثال، كان توحيد ليون وقشتالة عام 1230م مجدياً زمن الملك فرديناند

---

(1) أرجونة (Arjona): بلد من ناحية جيّان، معجم البلدان، ص144.

(2) علي بن أبي زرع الفاسي: الذخيرة السنية في الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة، الرباط 1972، ص57.

(3) لسان الدين ابن الخطيب: تاريخ إسبانيا الإسلامية، (أعمال الأعلام)، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، ط2، 1956، 2/ 279.

(4) وادي آش (Guadix): مدينة بالأندلس قريبة من غرناطة، كبيرة خطيرة وتشتهر بكثرة التوت والأعناب والثمار، ينحط نهرها من جبل شلير، الروض المعطار، ص604.

(5) باجة (Beja) من أقدم مدائن الأندلس، وأقدمها بنياناً واختطاطاً، وهي من الكور المجندة التي نزلها جند مصر، الروض المعطار، ص75.

(6) ضياء باشا، الأندلس الذاهبة، تعريب عبدالرحمن أرشيدات، راجعه د. صلاح ارشيدات، وزارة الثقافة، عمان – الأردن، 1989، 3/ 83.

(7) حوض الوادي الكبير (R'io Guadalquivir) الوادي الكبير من الأندلس أيضاً، نهر قرطبة، نهر قرطبة الأعظم، النهر الكبير. الروض المعطار، 121، 284، 349، 383، 447، 458.

(8) الحلة السيراء، المقدمة ص25.

(1217-1252م) لأنه استطاع استثمار هذه الوحدة في حصد الكثير من الانتصارات على المسلمين، ولولا فاته، لما بقيت غرناطة في أيدي المسلمين مدة أطول[1]، ولم يأتِ النصف الثاني من القرن السابع الهجري حتى كانت ولايات الأندلس الشرقية والوسطى قد سقطت كلها في يد الإسبان، ولم يبق سوى بضع ولايات صغيرة في طرف إسبانيا الجنوبي[2] فقد استولوا على تُطيلة[3] سنة (612هـ)، وعلى لوشة[4] (622هـ) وماردة[5] (626هـ)، وسقطت جزيرة مَيورقة[6] (627هـ) وأُبّدة[7] (631هـ) ثم تلتها قرطبة (633هـ)، وبياسة[8]، وإستجّة[9] والمُدور[10] (634)، وبلنسية (636هـ)، وشاطبة[11]

---

(1) Atkinson, William, C. Ahistory of Spain and Portugal, Harmand sworth, Penguin books, Reprinted, 1967, p. 79.

(2) محمد عبدالله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين (دولة الإسلام العصر الرابع)، مطبعة مصر، ط2، 1958، ص16.

(3) تُطيلة (Tudela): مدينة شرق قرطبة، من أكرم الثغور، تجود فيه الزراعة، لخصب تربتها، مراصد الاطلاع، 1/ 264. الروض المعطار، ص133.

(4) لوشة (Loja): من أقاليم البيرة، على نهر غرناطة، معجم البلدان، 5/ 26. الروض المعطار، ص513.

(5) ماردة (Merida): مدينة بجوفي قرطبة، منحرفة إلى المغرب قليلاً، من أعمال غرناطة، وهي مدينة كثيرة الرخام عالية البنيان تقصد للفرجة والتعجب، معجم البلدان، 5/ 38. الروض المعطار، ص518.

(6) ميورقة (Mallorca): جزيرة في شرقي الأندلس تقع بالقرب منها جزيرة يقال لها منورقة، وشرقها تقع جزيرة سردانية، معجم البلدان، 5/ 246. الروض المعطار، ص567.

(7) أُبّدة (Ubeda): مدينة من كورة جيان، على مقربة من النهر الكبير فيها مزارع وغلال، وقمح وشعير، مالت عليها جموع النصرانية في موقعة العقاب 609هـ، وقتلوا الكثير من أهلها. معجم البلدان، 1/ 64. الروض المعطار، ص6.

(8) بيّاسة (Baeza): مدينة كبيرة من مدن الأندلس، معدودة في كورة جيان، تطل على النهر الكبير المنحدر إلى قرطبة مستغلات الزعفران بها كبيرة. معجم البلدان، 1/ 518. الروض المعطار، ص121.

(9) إستجّة (Ecija): كورة بالأندلس متصلة بأعمال رية، بين القبلة والمغرب من قرطبة على نهر غرناطة، معجم البلدان، 1/ 174. الروض المعطار، ص53.

(10) المُدّور (Almodovar): حصن مشهور بالأندلس بالقرب من قرطبة، معجم البلدان، 5/ 77.

(11) شاطبة (Jativa): مدينة شرقي الأندلس، وشرقي قرطبة، قريبة من جزيرة شقر، كريمة البقعة كثيرة الثمر، معجم البلدان، 3/ 309. الروض المعطار، ص337.

ودانية[1] (638هـ)، ولقنت[2] وأوريولة[3] وقرطاجنة[4] (640هـ)، ومرسية (641هـ) وجيان 644هـ ثم إشبيلية (646هـ)، واجتاحت غرب الأندلس في الوقت نفسه، موجة مماثلة للغزو النصراني، فسقطت بطليوس، وشنتمرية الغرب[5] سنة (647هـ) وولبة (أَوَنْبة)[6] (655هـ) وشِلْب[7] وطَلَبيرة[8] (659هـ) ثم سقطت قادس (660هـ)، وتلتها شريش[9] (662هـ)، وهكذا...

ولما تفاقم عدوان القشتاليين وضغطهم، لم ير ابن الأحمر مناصاً من أن يخطو خطوة جديدة في مهادنة ملك قشتالة، فتنازل له في أواخر سنة (665هـ)، عن عدد كبير من البلاد والحصون، منها شريش، وقيل إن ما تنازل عنه بلغ أكثر من مائة موضع، معظمها

---

(1) دانية (Denia): مدينة من أعمال بلنسية على ضفة البحر شرق الأندلس، كثيرة التين والعنب واللوز، معجم البلدان، 2/ 434. الروض المعطار، ص231-232.

(2) لقنت (Alicante): بلدة قريبة من دانية، لها قصبة منيعة جداً، كثيرة التين والأعناب. الروض المعطار، ص511.

(3) أوريولة (Orihuela): حصن بالأندلس من كور تدمير، تتصل بساتينها ببساتين مرسية، وتمتاز هذه المدينة بقدمها فهي قاعدة العجم وموضع مملكتهم. معجم البلدان، 1/ 280. الروض المعطار، ص67.

(4) قرطاجنة (Cartagena): مدينة قريبة من ألشى من أعمال تدمير، قديمة بها ميناء ترسي فيه المراكب، تمتاز بالخصوبة وعذوبة الماء. معجم البلدان، 3/ 323. الروض المعطار، ص462.

(5) شنتمرية الغرب (Santa Mariade de Algarve): مدينة تعد من أتقن الحصون في الأندلس، كثيرة الأعناب والتين، تكثر فيها المراكب واردة وصادرة، معجم البلدان، 3/ 367. الروض المعطار، ص347.

(6) ولبة، أونبة (Huelva)، من مدن جبل العيون بالأندلس، وهي مدينة ممتنعة بين جبال ضيقة قديمة فيها آثار الأول، وهي برية بحرية. الروض المعطار، ص63.

(7) شِلْب (Silves): مدينة تقع قبلي مدينة باجة، غرب الأندلس، اشتهرت بأشجار التفاح، سكان قراها عرب من اليمن. معجم البلدان، 3/ 357. الروض المعطار، ص342.

(8) طَلَبيرة (Talavera): مدينة من أعمال طليطلة، كبيرة قديمة البناء، كانت حاجزاً بين المسلمين والفرنج إلى أن استولى الفرنج عليها. معجم البلدان، 4/ 37، الروض المعطار، ص395.

(9) شَريش (Jerez): مدينة كبيرة من كور شَذُونة، على مقربة من البحر، يجود زرعها، تطوف بها الكروم وشجر الزيتون والتين، معجم البلدان، 3/ 340. الروض المعطار، ص340.

غرب الأندلس[1]. ولم يبقَ بيد العرب المسلمين سوى غرناطة وضواحيها، يحكمها بنو الأحمر.

ولم يقتصر الأمر على الاحتلال والاستيلاء على المدن، إنما ترتب عليه إجراءات قاسية، فحينما دخل الأذُفنش ميورقة بعد معارضة شديدة من أهلها سنة (627هـ) جرى القتال في الشوارع والميادين، وقتل الكثير من أهلها وطردوا، واغتصبت أراضيها بطريق الإقطاع، وانتهى الأمر بخضوعها[2].

وحينما استولى الإسبان على أُبّذة (631هـ) قتلوا وسبوا أهلها واستلبوا أموالها[3]، وتلاه الاستيلاء على قرطبة (633هـ) واقتحامها، في الوقت الذي كان فيه ابن هود يعسكر بقواته غير بعيد عنها، ولم يتقدم لنجدتها، ولم يحاول استدعاء ابن الأحمر لمعاونته، لانشغالهما بخلافاتهما وتنافسهما على السلطان، في الوقت الذي صمدت فيه قرطبة ستة أشهر، واستبسل أهلها في الدفاع عنها[4] وكان هذا الوقت كافياً لوصول قوات أحدهما، لكنهما قدماها هدية سائغة للأعداء[5]، فحل اليأس لدى أهلها مكان القوة والبسالة وأخذ النصارى يشددون في حصارها[6]، حتى نضبت مواردها وملكوها[7]. وقد جعلها الفرنج حصناً، بعدما كانت جنة زاهرة، وروضة ناضرة، فأهملوا ترعها وخلجانها فأصبحت مروجها خالية، لا يقطنها أحد[8].

---

(1) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام، العصر الرابع، ص41-42.

(2) أشباخ، تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، ص419. الأندلس الذاهبة، 3/ 71.

(3) عبدالواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، صححه وعلق على حواشيه محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط1، 1949، ص322.

(4) أشباخ: تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، ص430.

(5) أحمد فكري: قرطبة في العصر الإسلامي تاريخ وحضارة، مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، ص151.

(6) أشباخ: تاريخ الأندلس، ص433.

(7) البيان المغرب، ق3، ص323.

(8) محمد لبيب البتنوني: رحلة الأندلس، مطبعة الكشكول، القاهرة، ط1، 1927، ص45.

وضاعف النصارى جهودهم في التضييق على بلنسية إرهاقها[1]، يضربون أسوارها وأبراجها بالآلات الثقيلة[2]، وقد طال عليها الحصار واشتدت وطأته وبلغ بأهلها الإعياء مبلغاً، حتى اضطروا إلى تسليمها سنة (636هـ) [3] ولم يلتزم الفرنج بما تعهدوا به في معاهدة التسليم، بعدم التعرض للمسلمين، إذ يروي أحد مؤرخيهم معترفاً بهذه الحقيقة فيقول: «مما يبعث على الأسف الشديد والعجب أن تقرر هذه الحقيقة من أن الإسبان قليلو العهد والذمام، غدّارون لا يرحمون الضعيف، ولا يغيثون اللاجئ، وأنهم مجردون من كل مثل إنسانية، ولذلك فإنهم لم يلتزموا بالوفاء بما تعهدوا به في معاهدة تسليم بلنسية حسبما تعودوا عليه، فحالاً نقضوا كل ما فيها من العهود، وبدأوا يعاملون الضعفاء بأشد ضروب الانتقام، وانهمكوا بسفك الدماء»[4].

ب- الظروف الاقتصادية

لا بد من عرض سريع لأحوال الأندلس الاقتصادية المزدهرة التي سبقت تردّي الأوضاع فيها، لتبين أثر لحروب والفتن على الأوضاع الاقتصادية.

فقد تميزت الحياة الاقتصادية في الأندلس بالثراء والازدهار، في فترة ممتدة سبقت الاضطرابات والفوضى وانعدام الأمن التي سببها سقوط المدن الأندلسية المتتابع بعد موقعة العقاب.

امتازت الأندلس بخصائص طبيعية ومناخية، جعلت مدنها تنتج معظم أنواع الزروع والثمار، فقد استطاع المسلمون استغلال الأراضي الزراعية، فشقوا الأنهار، وحفروا الترع وأجروا الخلجان، وسيروا إليها الماء[5]، فقد كانت للعرب معرفة بأنظمة

---

(1) الزركشي: أبو عبدالله محمد بن إبراهيم، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق: محمد ماصور، المكتبة العتيقة، تونس، ط2، 1966، ص27.
(2) أشباخ، تاريخ الأندلس، ص424.
(3) عنان: عصر المرابطين والموحدين، 2/ 449.
(4) الأندلس الذاهبة، 3/ 96.
(5) رحلة الأندلس، ص149.

الري ومصادرها المختلفة، سواء كانت من الأمطار، أو النهار أو الجداول، وملاءمة كل نوع من المياه، لنوع خاص من النبات، فقد تكون بعض أنواع المياه جيدة لنباتات مضرة لأخرى، ولجأوا للحفر لاستخراج المياه الجوفية لعدم كفاية مياه الأمطار والأنهار، مما جعل عندهم معرفة علمية بميزات التربة التي تحتوي على مياه عذبة، ومدى صلاحيتها للزراعة أو الرعي[1].

وقد جاب الإدريسي هذه البلاد، قبيل منتصف القرن السادس الهجري، ذاكراً جميع المدن والموانئ والقرى، وما تشتهر به من المحاصيل الزراعية، والمنتجات الصناعية والمعدنية، علاوة على نشاطها التجاري مع غيرها من البلدان، فقد اشتهرت مدينة شنتمرية الغرب بالأعناب والتين، وتميزت شلب بنوع متميز من التين وعرفت إشبيلية بزراعة شجر الزيتون[2]، الذي قامت عليه تجارة الزيت، كما انفردت بإنتاج القطن والعسل[3]، وكانت تزرع في بلنسية الفاكهة بأصنافها، إذ كانت دورة الزراعة السنوية فيها ثلاثية، كما أنها تنتج أنواع الزراعات المختلفة سنوياً مثل الذرة والدخن والأرز[4] وتنتج أقاليمها أشجار الزيتون ويجود فيها القمح والكتان[5].

وفي طليطلة بساتين ورياض وفواكه مختلفة الطعوم والألوان[6]، أما جيّان فامتازت بتربيتها لدودة القز، وإنتاج العسل[7].

---

(1) Imamuddin, S.M.: Economic history of spainual Umayyad, Asiatic of Pakistan- Dacca, 1963, p. 75.

(2) القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من نزهة المشتاق، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983، ص266-264.

(3) ابن غالب، محمد بن أيوب، قطعة من فرحة النفس، نشرت في مجلة معهد المخطوطات، القاهرة 1955، المجلد الأول، 1/ 292-293.

(4) رحلة الأندلس، ص149.

(5) قطعة من فرحة الأنفس، ص285.

(6) القارة الإفريقية والأندلس، ص276. ابن الوردي، سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ط2، 1939، ص27.

(7) القارة الإفريقية والأندلس، ص296.

وامتازت مناطق غرناطة بالغنى والخصوبة، حيث كانت تزرع فيها أشجار اللوز والعنب تسقيها جداول كثيرة، تنحدر من جبال غرناطة المرتفعة، وقد ازدادت زراعتها وتطورت حينما ازداد عدد السكان الوافدين من المناطق الأخرى بسبب الهجرات[1].

وقد عرفت بعض المدن باستخراج المعادن الثمينة كالياقوت الأحمر في بعض مناطق مالقة[2]، واللؤلؤ بناحية برشلونة[3]، والمرجان الذي يستخرج من بحر الأندلس[4]، كما تكثر في مدن الأندلس معادن القصدير، والكحل والرصاص والنحاس والحديد والكبريت الأحمر والأصفر[5]، والزئبق في قرطبة[6]، والذهب والفضة في إلبيرة[7] ومرسية[8].

وقد كان توافر المواد الخام الزراعية والمعدنية من العوامل التي ساعدت على ازدهار الصناعة، فالقطن والكتان والحرير متوافرة بسبب التربة الخصبة، وكذلك وجود الثروة الحيوانية التي لا توفر اللحم والحليب فقط، بل والصوف الضروري لصناعة النسيج والملابس، كما أن المعادن متوافرة ومتنوعة بالإضافة إلى جهود العاملين، وتنوع المهارات،

---

(1) Bertrand Louis: The history of Spain, Printed in Eyre & Spottiswoode, London, first publisher 1934, p. 137.

(2) أبو عبيد البكري: جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق: عبدالرحمن الحجي، دار الإرشاد، بيروت، ط1، 1968، ص126.

(3) المصدر السابق، ص129. برشلونة (Barcelona): مدينة للروم تقع على البحر وهي دار مُلك الإفرنجة، يكثر بها اليهود، الروض المعطار، ص86-87.

(4) البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا، ص129.

(5) المصدر السابق، ص129-130.

(6) القارة الإفريقية الأندلس، ص307.

(7) إلبيرة (Elvira): من كور الأندلس التي نزلها جند دمشق، تقع بين القبلة والشرق من قرطبة، كثيرة الأشجار والأنهار من مدنها غرناطة، معجم البلدان، 1/ 244. الروض المعطار، ص28.

(8) الاصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد: المسالك والممالك، تحقيق: محمد عبدالعال، مراجعة: شفيق غربال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة 1961، ص36.

ووجود مهندسين ذوي خبرات عالية، ومعرفة دقيقة باحتياجات كل صناعة، واشتهرت كل بلد من بلدان الأندلس بنوع أو أكثر من أنواع الصناعات[1].

وقد عرفت ألمرية بصناعة النسج والطرز، وصناعة الثياب من الحرير، وكان يصنع بها صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج[2] واشتهرت شاطبة بصناعة الثياب البيض التي تباع بأثمان غالية لرقتها وإبداع صنعها[3]، وامتازت شاطبة بصناعة الورق الذي لا نظير له في غيرها[4]، واشتهر ميناء دانية بإنشاء السفن[5]، كما قامت صناعة الأسلحة والصناعات الجلدية في قرطبة[6].

وقد ازدادت الصناعات غنىً وازدهاراً يوماً بعد يوم، لوفرة المواد الخام بكثرة، واتساع بنود المطالبات لتنوع العناصر السكانية، وللثراء الواسع الذي كانت تعيشه المدن الأندلسية[7].

ونظراً لازدهار الصناعة وتقدمها، فقد نشطت الحركة التجارية، فكانت تصدر الأغنام والخراف والأسماك والزيت والتين والورق[8] لمصر وسوريا والهند وكانت للأندلس علاقات تجارية جيدة مع المغرب وشمال إفريقيا واليونان[9] وجنوب فرنسا وإيطاليا[10]. وكانت لسياسة إسقاط المكوس والقضاء على المغارم السلطانية دور بيّن في تنشيط الحركة التجارية وانخفاض الأسعار وظهور فترة من الرخاء الاقتصادي[11].

---

(1) Economic history of Spain, p. 178-180, 201.

(2) خريدة العجائب، ص24.

(3) القارة الإفريقية والأندلس، ص282.

(4) خريدة العجائب، ص25.

(5) القارة الإفريقية والأندلس، ص282.

(6) أشباخ، تاريخ الأندلس، ص495.

(7) Economic history of Spain, p. 180.

(8) القارة الإفريقية والأندلس، ص264، 293، 289.

(9) Economic history of Spain p. 331-332.

(10) انظر رحلة بنيامين التُطيلي، ص50-58.

(11) الحبيب الجنحاني: السياسة المالية للدولة المرابطية، الملتقى الرابع الإسباني التونسي، مدريد 1983، ص44.

ولا شك في أن الاضطراب والفوضى وسقوط المدن والاستيلاء عليها، أدى إلى تفاقم الأزمة الاقتصادية، حيث اشتدت الحال، وتناهى الغلاء، وقطعت السابلة، ووقع النهب[1]. فحينما ملك العدو إفراغة[2] من بلاد شرق الأندلس سنة (611هـ) حاصرها حصاراً شديداً، حتى أكل أهلها الجيف[3]. وفي سنة (617هـ) اشتدت المجاعة والغلاء والقحط، وكثرت الفتن في معظم بلاد الأندلس[4]، ويصف الغشتالي بلاد المغرب والأندلس حينما وردها في القرن السابع الهجري، وقد هلك أهلها من الجوع وامتلأت بالفتن[5].

وحينما حاصر العدو أُبذة سنة (631هـ)، شعر أهلها أنه ليس بمقدورهم الدفاع عنها، فطلبوا من ألفونسو تسليمها على أن يدفعوا فدية مقدارها مليون دينار، لقاء السماح لهم بالبقاء في المدينة، وقَبِلَ ألفونسو الشرط، وعاقب كل من يتخلف عن دفع نصيبه من الغرامة بمصادرة جميع أمواله وأملاكه، وأشار القس على ألفونسو بضرورة تدمير المدينة، فعمد الجند إلى تدميرها وحرق دورها، بعد خلوها من السكان[6] واقتسم النصارى أملاك مرجها ودورها المهجورة حينما غادرها أهلها مغلوبين سنة (633هـ)[7].

واستباح الأعداء منازل بلنسية وأراضيها الخصبة بعد احتلالها سنة (636هـ) فقسموها بين رجال الدين والفرسان والبارونات[8]، مما أدى إلى تشريد أهلها، واشتداد الغلاء والجوع فيها[9]. وعانت جيان من الحرمان والجوع حينما حوصرت سنة (642هـ)،

---

(1) عنان: عصر المرابطين والموحدين، 2/ 126.
(2) إفراغة (Fraga) مدينة من أعمال ماردة، وتقع في غربها، على نهر الزيتون. معجم البلدان، 1/ 227. الروض المعطار، ص48.
(3) الذخيرة السنية، ص49.
(4) المصدر السابق، ص54.
(5) تحفة المغترب ببلاد المغرب، تحقيق وتعليقات: فرنادو دي لاجرنجا، مدريد 1974، ص65-67.
(6) الأندلس الذاهبة، 3/ 50.
(7) أشباخ، تاريخ الأندلس، ص433.
(8) المصدر السابق، ص424.
(9) الروض المعطار، ص101.

وأحدقت النصارى بمدينة إشبيلية سنة (645هـ) وحاصروا أهلها براً وبحراً تسعة أشهر، فمات بالجوع خلقٌ كثير، وعدمت الأطعمة من القمح والعشير، حتى أكل الناس الجلود، وفنيت المقاتلة[1]، واستصرخ أهلها المغرب يلتمسون الغوث، لكن نفاذ الأقوات واشتداد الجوع انتهى بهم إلى تسليك المدينة سنة (646هـ) [2].

وسار ابن الأحمر سنة (665هـ) مع خليفة فرناندو بجيوشهما، وحينما وصلا قلعة شريش، بدأ جند فرناندو بانتساف الزروع، وتخريب الضياع[3]، وكان المسيحيون يغزون حدود غرناطة عدة مرات في السنة، على الرغم من معاهدات الهدنة والجزية، فيقطعون أشجار الفاكهة وينهبون الغلال والمواشي والأموال[4].

ونظراً لأهمية مالقة، وما تتمتع به من غنى، فقد حاصرها فرناندو للاستيلاء عليها، إذ كانت الضرائب الجمركية فيها مصدراً للخزينة القتشالية[5].

كما كانت الفتن في الأندلس عائقاً في طريق الازدهار الاقتصادي، فقد لحق الخراب والدمار بأجزاء كبيرة من بلاد الأندلس، حينما فرض أبو جميل زيان بن مرديش على رعيته مغارم كثيرة، كي يدفع نفقات الجند المرتزقة من النصارى، يقول ابن الخطيب من خلال حديثه عن ابن مردنيش: «فصالح صاحب برشلونة لأول مرة على ضريبة، وصالح ملك قشتالة على أخرى فكان يبذل في السنة خمسين ألف مثقال، وابتنى بجيشه من النصارى منازل معلومات، وحانات للخمور، فأجحف برعيته لأرزاق من استعان به منهم، فعظمت في بلاده المغارم وثقلت»[6] وبالإضافة لذلك، فإن الحروب التي خاضها ابن

---

(1) البيان المغرب، 3/ 381-382.

(2) انظر: عنان، عصر المرابطين والموحدين، 2/ 482-485.

(3) الأندلس الذاهبة، 3/ 107.

(4) The History of Spain, p. 137.

(5) The history of Spain, p. 140

(6) الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1974، 2/ 124.

مردنيش ضد الموحدين طوال ربع قرن من الزمان، قد ألحقت الخراب باقتصاد بعض بلاد الأندلس، وأدت إلى كساد التجارة، وندرة المحاصيل الزراعية، والمنتجات الصناعية[1].

لقد كان لهذه الإجراءات القاسية من حصار وتضييق وتخريب للمنشآت، آثارها السلبية على الحياة الاقتصادية، فقد قلت الموارد وعدمت الأقوات، وانتشرت الأوبئة، وعمّ الجوع والحرمان، واشتد غلاء الأسعار، في حين ضاعت مصادر النقد من زراعة وصناعة وتجارة[2]، نتيجة لتخريب الأراضي والعبث فيها، وهدم المصانع والمدارس، ونتيجة لقطع الأعداء طرق الاتصالات وعزل المدن.

ج- الظروف الاجتماعية

ويقصد بها ظروف الاضطراب وانعدام الأمن نتيجة للتدجين والهجرة القسرية، وأثر هذا الاضطراب في نفوس الناس من خلال تصوير ذلك بأقلام الشعراء والأدباء.

لقد تركت الأحوال السياسية والاقتصادية، أثرها البيّن في الحياة الاجتماعية، من حيث الاضطراب الذي سببته في نفوس الناس، والقلق وانعدام الأمن، نتيجة لتشريدهم وبُعدهم عن مدنهم، ومعاناتهم الدائمة لما آل إليه أمرهم، وما لاقوه من تطبيق قوانين ظالمة لمن بقي منهم في المدن التي استولى عليها النصارى، وأخذت تواجه شبح الفناء والاضطراب، وساد فيها القلق والفزع على مصيرها المحتوم.

وقد عومل سكان المدن الأندلسية بطريقتين: فالذي استسلموا وعقدت معهم معاهدة التسليم، سموا بالمُدَجَّنين (مسلمين في مناطق مسيحية)، وأما البلدان التي حاربت بمرارة، فقد تم طرد سكانها[3]. وقد شهد الربع الثاني من القرن السابع الهجر، الثالث عشر الميلادي، هجرة كثير من المسلمين، مما أدى إلى خلو البلاد من سكانها، وكثيرٌ

(1) هشام أبو رميلة: علاقة الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية، دار الفرقان، عمان، ط1، 1984، ص376.

(2) عنان، عصر المرابطين والموحدين، 2/ 627.

(3) Harvey, L.P.: Islamic Spain, 1250-1500, The University of Chicago press, Chicago and London 1990, p. 20.

ممن سمح لهم بالبقاء لم يبقوا، لأن تعاليم الديانة الإسلامية تحض على الهجرة إلى مناطق مسلمة، وبقي بعض الذين افترض أن يطردوا - خفية عن الأنظار - يقدمون خدمات للمسيحيين لاحتياج المناطق الجديدة إلى أيدي عاملة، فكان المسيحيون يرحبون بكل من لديه خبرة، وشجع بعض النبلاء قيام مستوطنات للمسلمين لأنهم كانوا يرغبون في تطوير ممتلكاتهم[1].

وقد كانت الهجرات في أول أمرها داخلية، فقد نزح معظم سكان المدن التي سقطت في أيدي الفرنج إلى المناطق الغرناطية، وخاصة سكان قرطبة وإشبيلية، ثم وصل أبناء جَيّان ومرسية[2]، وسهل الأرغونيون نزوح سكان بلنسية كما رأينا.

ولعل تعلق الأندلسيين ببلادهم، جعلهم يغالبون الرحيل عنها بصورة كلية، فكانوا إن سقطت مدينة أندلسية، ارتحلوا منها إلى أخرى، حتى لا يجدوا بعد ذلك مفراً من الارتحال النهائي عنها، فقد خرج محمد بن علي الجُذامي من أركُش وهي بلدة صغيرة من أعمال شَريش، حينما أخذت النصارى قصبتها إلى شَريش، فلما أخذ النصارى قصبتها، ارتحل إلى الجزيرة الخضراء، ثم انتهى به الرحيل منها إلى سبتة في المغرب، ثم عاد إلى الجزيرة الخضراء، ومنها إلى حضرة غرناطة، حتى انتهى بها المطاف إلى مالقة وتوفي بها[3].

وقد لوحظ أن موجات الهجرة الداخلية من البلاد الأندلسية، قد بدأت تتزايد على مملكة غرناطة كلما سقطت في يد الإسبان مدينة من المدن المسلمة، سواء منها الشرقية أو الوسطى، وخاصة أنهم كانوا في حالة ثوران داخلي، لذا فقد كانوا يفضلون الهجرة إلى المناطق الإسلامية على الخضوع للنصارى وقبول التدجن، وإن كان القليل منهم قد فضّل مصالحه الاقتصادية وبقي في المناطق المسيحية[4].

---

(1) Islamic Spain, p. 12.

(2) يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1982، ص108.

(3) ابن القاضي، أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي: درة الحجال في أسماء الرجال، المكتبة العتيقة تونس، دار التراث القاهرة، ط1، 1971، 2/ 83-86.

(4) Islamic Spain, p. 51.

كما كانت الأوضاع الداخلية، والفتن السائدة، مدعاة للهجرة، فقد ارتحل أبو إسحاق إبراهيم بن عيسى عن دانية، أول الفتنة المنبعثة في الأندلس سنة (621هـ) وسكن بلنسية، ثم ارتحل إلى المغرب وبقي حتى توفي بها سنة (627هـ) [1]. وتعطينا بعض كتب المتصوفة في هذا العصر، رؤية خاصة للمجتمع الداخلي في الأندلس، وتلقي باللائمة على الزمان وأهله وتصف المجتمع بالفساد والانحلال وهذا ما يصوره ابن عربي بقوله: «وهذا الزمن الذي أنت فيه زمان شَرّ، قَلَّت فيه لقمةُ الحَلال، وكثُرَ فيه الشَّرَهُ والكَلَبُ في قلوبِ النّاس، فلا بَطْنٌ يَشْبع، ولا نَفْسٌ تَقْنَع، ولا عينٌ تَدْمع ولا دُعاءٌ يُسمَع»[2].

وكان أهل الأندلس، في حالة من الفزع والاضطراب والقلق، جعلتهم يعتقدون بالتنبؤات والأراجيف التي تتردد عن قرب ظهور رجل من أصناف الجند اسمه محمد، واسم أبيه يوسف، يتم على يديه إنقاذ أهل الأندلس وكانت هذه النبوءة هي المحرك لمحمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر بالقيام والثورة[3].

لقد اتحدت العوامل الداخلية والخارجية، لتؤدي إلى ضياع الجزء الأكبر من الأندلس، وتشريد أهلها وإجبارهم على النزوح والجلاء عن أرضهم إلى أقطار عربية وإسلامية أخرى، بعد تزايد الزحف الإسباني على المدن الأندلسية إذ أصبحت الهجرة الخارجية الجماعية أكثر من ذي قبل، حيث إن غرناطة لا يمكن لها أن تتسع لكافة هؤلاء المرتحلين، فكان لا بد من توجه المسلمين إلى المغرب والمشرق بصورة لافتة[4]. تاركين

(1) ابن الأبار أبو عبدالله القضاعي: تحفة القادم، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1986، ص189.

(2) محيي الدين ابن عربي: روح القدس في محاسبة النفس، مكتبة عبد الوكيل الدوري، دمشق 1965، ص45.

(3) أعمال الأعلام، 2/ 278.

(4) علي أحمد: الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق العربي منذ نهاية القرن الخامس، وحتى نهاية القرن التاسع الهجري، رسالة جامعية، جامعة دمشق 1980، ص71.

وراءهم الدور والأراضي والزروع والكروم[1] ولعلهم بذلك كانوا سبباً رئيسياً في انهيار الحضارة الأندلسية لما هاجروا بداية من بلادهم إلى المناطق الغربية وخاصة غرناطة، فأغنوها حضارياً، وازدهرت اقتصادياً، لخبراتهم الزراعية[2].

استقر غالبية المهاجرين إلى المشرق في المدن الرئيسية في مصر والشام وهما مركز النفوذ السياسي في المشرق، وقد كثر المرتحلون من أهل العلم والأدب، إذ إن هذه الفئة من أكثر عناصر المجتمع تأثراً بعدم الاستقرار، وهذا من الأسباب التي تقوي الظن بأن الهجرة كانت من أجل الاستقرار والأمن والاستيطان.

ويتضح ذلك من خلال وصف الكتاب والشعراء لاضطراب الأحوال في بلادهم محذرين الأندلسيين من المصير المفزع مستصرخين الملوك والحكام وهم يرون مدنهم تسقط الواحدة تلو الأخرى، يقول ابن الأبار: «فقل في يومٍ عصيب، رَماني بِسَهْمٍ للفِراقِ مُصيب، ولم يَدَعْ لي ما تمنَّيت، وشَرى بِثَمَنٍ بَخْسٍ ما اقْتَنَيْت، فاستَشْرى في مَحْوِ ما وَحَيْت، وهدم ما بنيت، حتّى عيل الاصطِبر وغَلَبَ الاستِعْبار، للتَفَكُّرِ في بَثِّ الأشْجان، وبَتِّ الأشْطان، والتَذَكُّرِ لِوُلوجِ الامتحان بالخروجِ عن الأوْطان، أيّانَ سَلَّمها الإسلام آيِساً وتدَّرَها التثليثُ آنساً»[3].

ويصف أبو المطرّف بن عميرة، ما حلّ بأهل بلنسية باكياً متحسراً يقول: «فيالله لأتراب درجوا، وأصحاب عن الأوطان خرجوا، قصت الأجنحة وقيل طيروا وإنما هو القتل والأسر أو تسيروا، فافترقوا أيدي سبا، وانتثروا على الوهاد والرُّبا، ففي كل جانب عويلٌ وزفرة، وبكل صدرٍ غليلٌ وحسرة»[4].

---

(1) الونشريسي، أحمد بن يحيى: المعيار المُعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقيا والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف د. محمد الحجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، 2/ 119.

(2) Islamic Spain, p. 13.

(3) إعتاب الكتاب، حققه وعلق عليه: د. صالح الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط1، 1961، ص255-256.

(4) الروض المعطار، ص98.

وقد أذكت المحن لوعة الشعراء، واستثارت قرائحهم، فبكوا مدنهم بكاءً حاراً، متفجعين على ضياعها، واصفين ما أصابها على أيدي الأعداء من خراب وتدمير، وما حاق بأهلها من صنوف الذل والعذاب، من ذلك ما يقوله أبو موسى ابن هارون أحد شعراء إشبيلية حينما استولى عليها الأعداء سنة (646هـ).

يا حمصُ أقصدكِ المقدورُ حينَ رَمى ... لم يَرْعَ فيك الرَّدى إلاّ ولا ذِمَما
جَرَتْ عليكِ يدٌ للدَّهرِ ظالمةٌ ... لا يعدلُ الدهرُ في شيء إذا حكما
يا سائلي عن مُصابِ المسلمين بها ... أصِخْ لتسمَعَ أمراً يورِثُ الصَّمَما
لما تفرقت الأهواءُ واضطرمت ... نارُ البغاةِ فقامت للردى عَلَما
وقد أحاطت بنا الأعداءُ فاغرةً ... أفواهَها تبتغي أرواحنا طعما

ثم يصف ما فعلوه بأهلها متحسراً:

فكَم أُسارى غَدَتْ في القيدِ مُوثقةً ... تشكو من الذلِّ أقداماً لها حُطُما
وكم صريعِ رضيعٍ ظَلَّ مختطفاً ... عن أمِّه فهو بالأمواج قد فِطما
عفت يَدُ الشركِ ما شاد الخلايفُ من ... مَضرٍ ومن مَصْنَعٍ ضخمٍ حكى إِرَما
أين القبابُ التي كانت محجَّبةً ... فيها الملوكُ تفيضُ الجودَ والكَرَما
يا عينُ فابكي على حمصٍ وقلَّ لها ... منك البكاءُ إذا لم ترسِليه دَما
لم يبق فينا سوى الأنفاسِ خافتةً ... فكلنا في وجودٍ يُشبِهُ العَدما[1]

وكتب أبو جعفر بن أبي إسحاق قاضي قرطبة، قصيدة طويلة، يتفجع فيها لما حلّ بجزيرة الأندلس، يقول منها واصفاً ما فعله الأعداء بأهلها.

ألا مُسعدٌ منجدٌ ذو فِطَنْ ... يُبكّي بدمعٍ معين هَتِنْ
ويندُبُ أطلالها آسِفاً ... ويرثي من الشرع ما قد وَهَنْ
لقد جَلَّلَتْها حروفُ الرَّدى ... شآبيب كربٍ كمثل الدَّجَنْ

---

(1) البيان المغرب، 3/ 382-384.

فعزَّبهـــــا كـــــلّ ذي ريبَـــــةٍ وهـــانَ العزيـــزُ الـــذي لم يُهـــنْ
وطلَّـــتْ دمـــاءٌ وريعـــتْ نـــساءٌ وهـــنَّ ســـباءٌ بهـــا لم يَكُـــنْ
وعمَّـــتْ هـــروجٌ وعاشـــت عُلـــوجٌ وهانَـــتْ فُـــروجٌ بهـــا لم تَهُـــنْ[1]

وفي حين كان المسلمون يتركون المناطق المسيحية بأعداد كبيرة، مضطهدين ممتهنين، مجردين من أموالهم ودورهم، كان اليهود محميين من قِبَل الملوك والنبلاء الذين كانوا مدينين لهم بقروض كبيرة، وقد تزوج هؤلاء النبلاء من الفتيات اليهوديات طمعاً في الثروة، ولتعويض خسارتهم بهجرات المسلمين، كما أعطيت لهم فيما بعد في القرن الرابع عشر الميلادي صلاحيات ممارسة طقوسهم الدينية من قِبَل بوب كليمنت وذلك لأن أربعين ألفاً منهم، يساعدون المسيحيين في محاربة المسلمين، كما أن بقاءهم في المدن ضروري للتقدم الاقتصادي[2].

أما الجموع الكبيرة من المسلمين الذين بقوا في القواعد والثغور التي استولى عليها المسيحيون والذين سموا (بالمدجنين)، فقد كانوا يتمتعون بالطمأنينة في البداية في ظل ملوك قشتالة وأراغون، وكان يسمح لهم بالاحتفاظ بدينهم وشريعتهم ومساجدهم ومدارسهم، وكان لهم حق بيع العقارات وشرائها، وكان لهم قضاة يحكمون بينهم في سائر المنازعات وفقاً للشريعة الإسلامية[3]. وكان لهم هيئة أو جمعية في المدن الكبرى،

---

(1) الرعيني، أبو الحسن علي بن محمد الرعيني: برنامج شيوخ الرعيني، حققه إبراهيم شبوح، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1962، ص132-133.

(2) Imumuddin, Apolitical history of Muslim Spain, Dacca Pakistan, Second Edition, 1969, p. 280-281.
هذا لا ينفي تعرض اليهود للاضطهاد، خاصة في الفترة التي سبقت القرن السابع الهجري، وكانت حال المدجنين أفضل من حال اليهود أول الأمر، وكان كلاهما يعاونان الدولة بدفع ضريبة العشور مما كان يرضي العرش أو السادة، وينبغي الإشارة أن حركة الجلاء التي طبعت القرنين الخامس والسادس الهجريين كانت بين اليهود على أشدها، نتيجة الضيق الذي عانوه، وكان اتجاه هجرتهم نحو صقلية والمشرق، انظر الأنيس المطرب، ص16، دولة الإسلام العصر الرابع، ص56.

(3) دولة الإسلام، ق4، ص48، للنظر في القوانين التي وضعت للمدجنين، انظر كتاب: أسنى المتاجر، للونشريسي في كتابه المعيار المُعرب، 2/ 119 وما بعدها.

تتولى تصريف شؤونهم، والعناية بمصالحهم، وتتكون من أعيانهم. وعلى الرغم من الحرية التي تمتعوا بها، فقد أخذ النصارى بعض مساجدهم، وحولوها إلى كنائس، ونص أحد بنود لائحة القوانين القشتالية، أن على النصارى واجب إقناع المدجنين باعتناق النصرانية دون استخدام القوة أو الضغط[1]، لكن هذه الحال أخذت في التبدل فازداد عدد المدجنين، وكانت الكنيسة تبغضهم وتنقم عليهم، وتحرض على استرقاقهم أو تنصيرهم، من ذلك ما أمر به البابا أنوسان الرابع سنة 1238م ملك أراغون خايمي الأول من وجوب استرقاق المسلمين، ولكنه لم يأبه، وسمح للمسلمين بالبقاء كمدجنين حين احتل بلنسية (636هـ)[2].

لكن لم يدم هذا طويلاً فقد أخذوا يتعرضون للاضطهاد، بتحريض من رجال الدين النصارى الذين كانوا يلومون الملوك على إظهار تسامحهم لهم ومعاملتهم بالرأفة، ونتيجة للإلحاح في التحريض، فقد كان النصارى يسومونهم سوء العذاب، وكانوا يساقون من بيوتهم إلى سوق النخاسة ويباعون بأبخس الأثمان، وكان الجند الذين لم يستوفوا رواتبهم من الخزينة، يأخذونها من أموال المسلمين المدجنين[3].

وقد جاء في بعض الوثائق النصرانية، أن كثيراً من المدجنين قد لحقهم الاسترقاق، فعملوا كعبيد في فلاحة الأرض، وكخدم في بيوت النبلاء والقساوسة وفي الأديرة وفي الفرق العسكرية، كما صدر عن المجالس الكنسية التي عقدت سنة 1252م، عدة قرارات ضد المدجنين، فحرمت عليهم ارتداء ملابس ذات لون أبيض أو أخضر، أو استخدام حذاء أبيض، وحرمت عليهم إطالة شعر الرأس حتى لا يتدلى على الجبهة، بينما حرمت عليهم قص اللحى حتى تطول، كما حرمت عليهم العيش في بيوت نصرانية، أو استخدام نصراني في خدمتهم، أو شراء أراضٍ نصرانية إلا بعد استئذان الكنيسة، وأباحت قتل

---

(1) Callaghan, Joseph F.O: A history of Medieval Spain, First published by cornell university 1975, Forth printing, in the United States of America, 1992, p. 462-463.

(2) دولة الإسلام، ق4، ص54.

(3) الأندلس الذاهبة، 3/ 127-128.

المدجن إذا اعتدى على امرأة نصرانية، وأباحوا لأهل المرأة عقابها أو حرقها إذا تزوجت أحد المدجنين[1].

وقد آثر المسلمون سكنى الجبال على حياة الذل والمهانة، وخرجوا وكانوا يتعرضون للسلب والنهب من عصابات الإسبان أثناء خروجهم، وأنشئت فرق عسكرية تتولى طرد المسلمين وإجلاءهم عن البلاد بتأثير القُسس والرهبان وخرجت جموع النازحين بأعداد كبيرة[2].

وثار المدجنون في مُرسية في يوم واحد، في البلاد الواقعة بين شريش ولقنت وأعلنوا ولاءهم وطاعتهم لمحمد بن الأحمر، مستولين على بعض القلاع والحصون والسهول. وكان إخماد هذه الثورة يتطلب وجود الملك شخصياً، لكنه عمد إلى حليفه ابن الأحمر، فاعتذر ابن الأحمر عن حرب أبناء دينه، فنقم عليه الملك وسارع نحو غرناطة لقتاله، فانتصر ابن الأحمر، مما رفع من معنويات المدجنين[3].

وكتب الشعراء من أهل المغرب قصائد يستصرخون فيها المسلمين لرفع الظلم عن إخوانهم المستضعفين في بلاد الأندلس، ومنهم الشاعر مالك بن المرحل سنة (662هـ) يقول:

لهفاً على أندلسٍ من جنَّةٍ ... دارَت بها من العدا جهنَّمُ
إن أمامَ البحرِ من إخوانكم ... خلقاً لهُم تلفُّتٌ إليكمْ
ونحوكم عيونهُم ناظرةٌ ... لا تطعَمُ النومَ وكيف تطعمُ
أين المفرُّ لا مفرٌّ إنما ... هو الغياثُ أو إسارٌ أو دَمُ[4]

---

(1) A history of Medieval Spain, p. 463.

(2) الأندلس الذاهبة، 3/ 120، 121، 128.

(3) المصدر السابق، 3/ 121.

(4) الذخيرة السنية، ص99-100.

هذه بعض صور المعاناة، لأهل المدن الأندلسية حين سقوطها وحصارها، وصور الامتهان والقسوة التي مارسها النصارى ضد المسلمين، ناقضين عهودهم بالأمان، غير مراعين إلاً ولا ذمة حتى في النساء والأطفال والشيوخ.

كانت هذه الأوضاع - كما اتضح بصورة غير مباشرة - سبباً في هجرة الكثيرين، دون إيراد الأوضاع الخاصة لكل شاعر بصورة محددة إلا ما ندر. من ذلك ارتحال يوسف ابن عتبة الإشبيلي[1] من إشبيلية حين تولاها ابن هود واضطرمت لفتنته، وقدومه مصر هارباً من تلك الأحوال[2].

أما أبو الحسن الميورقي[3] فربما كان قد جيء به مع الأسرى الذين أتى بهم الفرنج إلى ساحل الشام، بعد احتلال جزيرة ميورقة سنة (627هـ)[4].

وقد تعرض أحمد بن فَرْح[5] لأسر الفرنج سنة (646هـ) مما جعله يرتحلُ بعدها إلى المشرق، ويبقى في مصر إلى حين وفاته[6].

وخرج أثير الدين أبو حيان[7] ملتحقاً بالمشرق، بعد أن تصدّى للتأليف في الرد على أبي جعفر ابن الطباع وتكذيب روايته، لأنه قد نال من ابن الزبير أستاذ أبي حيّان، فرفع أمره إلى السلطان، ونُفّذ الأمر بتنكيله[8].

---

(1) انظر الملحق، الترجمة رقم 57.
(2) النفح، 2/ 664.
(3) انظر الملحق، الترجمة رقم 7.
(4) أبو شامة المقدسي: الذيل على الروضتين، عني بنشره وصححه عزت العطار الحسيني، دار الجيل، بيروت، ط2، 1974، ص159.
(5) انظر الملحق، الترجمة رقم 2.
(6) النفح، 2/ 529.
(7) انظر الملحق، الترجمة رقم 53.
(8) الإحاطة، ص46-47.

وقد خرج بعض الشعراء لأسباب شخصية، من ذلك ارتحال عبدالرحمن بن محمد ابن عبدالملك بن سعيد[1] إلى المشرق، بعدما جرى بينه وبين أقاربه ما استوجب خروجه[2].

الأوضاع العامة في مصر والشام وأهميتها في اجتذاب المرتحلين

ويقصد بها الظروف التي ساعدت على استقطاب الأندلسيين إلى مصر والشام، وشكلت حافزاً مشجعاً للاتجاه إلى هذه البلاد، بعد أن تهيأت لهم المعرفة المسبقة عنها، عن طريق ما قرأوه، أو سمعوه، أو شاهدوه.

فقد كانت دولة (مصر والشام) في القرن السابع الهجري، تشهد تقدماً في كافة المجالات، وانفتاحاً حضارياً متميزاً، وفّر لها مستوى من الرقي والثراء واتساع فرص العمل، بالإضافة إلى تميزها بظروف طبيعية مشابهة لبلاد الأندلس، كما كان للأثر الديني وتأصله في النفوس شأن بيِّن في اجتذاب الأندلسيين وتوجههم إلى المشرق.

أ- الظروف الطبيعية:

يشكل التشابه الطبيعي دوراً هاماً في اجتذاب المرتحلين، فالتشابه في أحوال المناخ والغطاء النباتي بين منطقة وأخرى، يكوِّن استعداداً نفسياً لدى المهجَّرين في الارتحال إلى البلاد التي تشابه بلادهم ويقربها إلى نفوسهم، مما يجعل استقرارهم فيها سهلاً، كما كان حال الأندلسيين حينما ارتحلوا إلى الشام، ولعل من أدلّ الأمثلة على هذا التشابه بين مناطق الشام والأندلس، أنه أُخِذ بعين الاعتبار، حينما نقلت أجناد الشام إلى الأندلس، حيث أنزل أهل دمشق في كورة إلبيرة لشبهها بها وسميت دمشق، وأنزل أهل حمص في كورة إشبيلية، وسميت حمص، وأهل قنسرين في جيّان، وأهل الأردن في رية مالقة، وأهل فلسطين في شذونة[3]. ساعد هذا التشابه الجغرافي بين الإقليمين مؤسس الدولة الأموية

---

(1) انظر الملحق، الترجمة رقم 11.

(2) النفح، 2/ 370.

(3) لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1978، ص26.

في بناء دولته على صورة سوريا الأموية، حيث نقل إليها غرائب الغراس وكرائم الشجر من بلاد الشام[1].

ويظهر مدى هذا التقارب بصورة واضحة، في ما يورده ابن سعيد حيث يقول: «منذ خرجت من جزيرة الأندلس وطفت في بر العدوة، ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس وسلا وسبتة، ثم طفتُ في إفريقيا وما جاورها من المغرب الأوسط، فرأيت بجاية وتونس، ثم دخلت الديار المصرية، فرأيت الإسكندرية والقاهرة والفسطاط، ثم دخلت الشام، فرأيت دمشق وحلب وما بينهما، لم أرَ ما يشبه رونق الأندلس في مياهها وأشجارها، إلا مدينة فاس بالمغرب الأقصى، ومدينة دمشق الشام، وفي حماة مسحة أندلسية»[2].

وقد أعجب الرحّالة الأندلسيون بمدن الشام ووصفوها وصفاً دقيقاً، فقد وصف ابن جبير مدينة دمشق بقوله: «جنَّةُ المَشرق، ومَطْلَعُ حُسْنِهِ المونِق المُشْرِق، وعروس المدن،... قد تَحلَّت بأزاهيرِ الرَّياحين، وتجلَّت في حُلَلٍ سُنْدُسِيَّةٍ من البَساتين... قد سَئِمَت أرضُها كَثْرَةَ الماء، حتى اشتاقَت إلى الظماء»[3]. وهناك جغرافيون آخرون سبقوا ابن جبير أتوا على ذكر الالتقاء والتشابه بين الشام والأندلس مثل البكري الذي قال: «الأندلس شامية في طيبها وهوائها»[4]. وسميت غرناطة بدمشق الأندلس[5]، وقد وصفت بأنها شامية في أكثر الأحوال، تشبه بعض مناطقها بالغوطة في أنهارها وجداولها وجنانها، وجمال بنائها وحسن موضعها[6].

(1) النفح، 1/ 546.
(2) نفح الطيب، 1/ 209.
(3) رحلة ابن جبير، ص234.
(4) جغرافية الأندلس وأوروبا، ص70.
(5) ابن سعيد المغربي، المُغرِب في حُلى المغرب، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط2، 2/ 102.
(6) اللمحة البدرية، ص22-23.

وكان لطبيعة بعض مناطق مصر، أثر بيّن على حركة الأندلسيين واستقرارهم، ففيها العديد من المناطق التي تشبه بعض مناطق الأندلس. فقد شبهت منطقة فحص إلبيرة بمنطقة الفيوم في دلتا النيل[1]، كما أنزل جند مصر بكورة تُدْمير[2] لمشابهتها لطبيعة مصر[3]، ولعل هذا التشابه كان له أثر في سرعة التأقلم مع البيئة الجديدة.

ولا شك في أن تميز بعض المدن المصرية بخيراتها وخصبها وجمال طبيعتها شكّل عاملاً مشجعاً في انتقال الأندلسيين إليها، فالإسكندرية التي نزلها الكثير من الأندلسيين امتازت ببساتينها الأنيقة، وكثرة الفواكه والثمار ورخصها[4]، كما أن الفيوم امتازت بكثرة الفواكه والغلال[5].

أعجب المرتحلون بمصر ووصفوها بأنها «ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد»[6]. ومما كتبه أبو الصلت أمية بن عبدالعزيز الداني الذي زارها في القرن السادس الهجري عنها حينما بلغ جبل المقطم: «هذه ضالتي المنشودة، وبغيتي المقصودة، ها هنا ألبث وأقيم، فلا أبرح ولا أريم، بلدة طيبة ورب غفور، وحيث التفتّ فروضة وغدير، وخَوَرْنق وسدير، وظل ظليل، ونسيم عليل»[7]. وذكر بعض أهل العلم، أنه ليس في

(1) الروض المعطار، ص45-46.
(2) تُدْمير (Tudmir): كورة بالأندلس تتصل بكورة جيّان، وهي شرقي قرطبة، لها معاقل كثيرة ومدن، معجم البلدان، 2/ 19.
(3) النفح، 1/ 164.
(4) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار وممالك الأمصار، (ممالك مصر والشام والحجاز واليمن)، حققها أيمن فؤاد سيد، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1985، 2/ 89-90.
(5) القارة الإفريقية والأندلس، ص229.
(6) البلوي، خالد بن عيسى: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، مقدمة وتحقيق: الحسن بن محمد السائح، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1/ 198.
(7) الرسالة المصرية، نوادر المخطوطات، تحقيق: عبدالسلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1370هـ/ 1951م، ص12-13.

الدنيا شجرة إلا وجدت بمصر، وفيها في كل وقت المأكول والمشموم وسائر البقول والخضر لا ينقطع منها شيء في الصيف أو الشتاء[1].

وشابهت مصر الشام في بعض الجوانب الطبيعية، وشكلتا معاً عامل جذب للأندلسيين «فأسفل أراضي مصر شامية تمطرُ مطر الشام، وتنبت نبات الشام من الكرم والتين والموز وسائر الفاكهة والبقول والرياحين ... وإنتاج اللبن والعسل»[2].

لقد شكل التشابه بين الأندلس من ناحية، والشام ومصر من ناحية أخرى، عاملاً له أثره على حركة الأندلسيين واستقرارهم وسرعة تأقلمهم، للميزات التي تمتع بها كل منهما.

ب- الحج والتقديس وزيارة الأماكن المقدسة في المشرق:

لا تقل الناحية الدينية عن غيرها من نواحي الجذب الأخرى إلى الشام ومصر، ذلك أن المكانة الدينية المتميزة التي حظيت بها كل منهما، جعلتهما محط أنظار الأندلسيين في اتخاذهما مكاناً للاستقرار.

وتبين العديد من الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة مكانة الشام الدينية، التي كان الأندلسيون على دراية بها، لتضلعهم في علوم القرآن والحديث. فهناك على سبيل المثال أحاديث تحض المسلمين على الهجرة إلى الشام، إذا ما تعرضوا للمحن، ولعل ما عاناه المسلمون في الأندلس جعل لهذه الأحاديث صدى عميقاً في نفوسهم، وتأثيراً عليهم في الاتجاه للشام من ذلك ما روي عن عبدالله بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون هجرة بعد هجرة، فخيار أهل الأرض، ألزمهم مُهاجر

(1) جلال الدين السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مطبعة الموسوعات بمصر، 1321هـ، 2/ 192.

(2) حسن المحاضرة، 2/ 192.

إبراهيم، ويبقى في كل أرض إذ ذاك، شرار أهلها، تلفظهم أرضُوهم، تَقذرُهم نفس الله عز وجل، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير (والمهاجر)» [1].

(والمُهاجَر): الموضع الذي يهاجَر إليه، ومهاجر إبراهيم خليل الله ﷺ هو الشام، فأراد بالهجرة الثانية في قوله: «ستكون هجرة بعد هجرة» الهجرة إلى الشام، يرغب في المقام بها[2]. وفي حديث آخر يبين الرسول ﷺ فضل الشام الاقتصادي والديني، مفضلاً إياها على غيرها، فيما رواه عبدالله بن حوالة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «سيصير الأمر إلى أن تكونوا جنوداً مجندة، جند بالشام، وجند بالعراق، فقلت: خِرْ لي يا رسول الله إن أدركت ذلك، فقال: عليك بالشام، فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده، فأما إن أبيتم فعليكم بيمنكم، واسقوا من غُدركم، فإن الله توكّل لي بالشام وأهله»[3].

كما اختصت الأحاديث بعض مناطق الشام وأكدت على فضلها، وأهمها القدس ودمشق، القدس هي القبلة الأولى، وهي أرض الإسراء والمعراج، كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء:1]، وقد أكدت الأحاديث النبوية على هذه المكانة، حيثُ نصّ بعضها على فضل الصلاة في المسجد الأقصى، كقوله ﷺ : «لا تُشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا»[4]، وفي هذه الصلاة غفران وتكفير للذنوب كما جاء في قوله ﷺ : «من خرج إلى بيت المقدس لغير حاجة إلا الصلاة، فصلّى

(1) أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي: سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ج3، رقم 2482 في باب الجهاد، ص4.
(2) ابن الأثير الجزري، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد: جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبدالقادر أرناؤوط، دار الفكر، بيروت، ط2، 1983، 9/ 349-350.
(3) الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة: سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1987، ج5، رقم 3954 في المناقب، ص690.
(4) العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر: فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، تحقيق عبدالعزيز الباز وآخرون، دار الفكر، بيروت، ج4، رقم 1846 في الصيد، ص73.

فيه خمس صلوات، صبحاً وظهراً وعصراً ومغرباً وعشاءً، خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه»[1].

وربطت الأحاديث الشريفة بين أداء الحج والعمرة في الحجاز وزيارة بيت المقدس حتى يكون الحج كاملا، كما في قوله ﷺ : «من أهلّ بحجٍّ أو عمرة من المسجد الأقصى الشريف إلى المسجد الحرام غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ووجبت له الجنة»[2]. فاغتفار الذنوب أمر له قيمة عند المسلمين، وهذا مما دعا الأندلسيين إلى تطبيق مضمون الحديث، والارتحال إلى هذه الأماكن المقدسة، التي يتوقون إليها في المشرق، وقد اتخذت عادة الإقامة في المسجد الأقصى وزيارته والصلاة فيه، والانطلاق منه إلى الحج صفة الخلود عند الأندلسيين، ولعل عامل الجذب هذا قد ازداد لدى الأندلسيين في هذه الفترة المتأخرة، بعد قيام الدولتين الأيوبية والمملوكية، حيث كان المشرق ساحة جهاد ضد الصليبيين والتتار، مما زاد في تأثير عامل الجذب الديني، إذ عُدّ الدفاع عن بيت المقدس واجباً دينياً، وقد ازداد تدفق الزوار إلى بيت المقدس حينما حررها صلاح الدين، وليس أدلّ على ذلك من رحلة ابن جبير الثانية للمشرق[3]، والتي كان فتح بيت المقدس من أقوى أسبابها.

وكما اختصت الأحاديث الشريفة بيت المقدس، فقد اختصت دمشق عن غيرها من المدن، قال ﷺ : «إن فُسطاطَ المسلمينَ يومَ الملحمةِ بالغُوطة، إلى جانِبِ مدينَةٍ يقالُ لها دِمَشق، من خيرِ مَدائِنِ الشام»[4]، وقد فضلت دمشق على سائر بقاع الشام ما عدا بيت المقدس، مما يدل على بركتها وفضيلة أهلها.

---

(1) ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني: سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث، القاهرة، 1975، ج1، رقم 1408، ص451-452.

(2) سنن أبي داود، ج2، رقم 1741 في المواقيت، ص144.

(3) الذيل والتكملة، ج5، ق2، ص605-606.

(4) سنن أبي داود، ج4، رقم 4298 في الملاحم، ص111.

ويظهر اهتمام الرحالة وخاصة الأندلسيين بالمساجد والمشاهد والمزارات، فقد أعجبوا بالجامع الأموي، فوصفوه بدقة واستفاضة، مبينين مساحته وتاريخ تأسيسه وفضائله، وما روي فيه من أحاديث، كما وصفوا قبته وزواياه وما يقام فيه من حلقات علم[1]، فهو لا يخلو في معظم الليل والنهار، من تال لكتاب الله، أو مصلّ، أو ذاكر أو عالِم أو مجتهد[2]، وقد تنوقلت الأقوال الكثيرة في رؤية الخضر عليه السلام يصلي كثيراً في الجانب الشرقي منه[3]. كما ذكروا مغارة الدم التي قتل فيها قابيل هابيل، ومغارة آدم عليه السلام وهما في جبل قاسيون بدمشق[4]. وهناك أمر آخر كان الأندلسيون يعظمون دمشق من أجله، وهو وجود نعل النبي ﷺ ، فقد كانت موجودة عند بني أبي الحديد، ثم نقلت للمدرسة الأشرفية[5].

وهناك مدن غير دمشق حظيت بمكانة دينية عن الأندلسيين، لما فيها من مزارات ومشاهد وقبور أنبياء، من ذلك ما يرويه الرحالة ابن بطوطة حيث يقول: «عسقلان فيها مشهد رأس الحسين قبل نقله للقاهرة...، وفي قبلة المزار مسجد كبير يُعرف بمسجد عمر، وفي القبلة منه بئر إبراهيم. وفي ظاهر عسقلان وادي النمل المذكور، الوارد ذكره في القرآن... أما الرملة ففي قبلة الجامع الأبيض منه ثلاثمائة من الأنبياء مدفونين.. وفي عكا قبر النبي صالح وبشرقها عين ماء تُعرف بعين البقر، يقال إن الله تعالى أخرج منها البقر

(1) انظر، رحلة ابن جبير، ص235-246.

(2) عز الدين أبو محمد بن عبدالسلام: ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام، تحقيق: محمد شكور، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط1، 1987، ص41. وانظر المخطوط، شريط رقم 4605، مكتبة الأسد الوطنية، دمشق، ورقة 13.

(3) ابن الحوراني، عثمان بن أحمد: الإشارات إلى أماكن الزيارات، تحقيق: بسام الجابي، مكتبة الغزالي، دمشق 1981، ص22.

(4) الهروي، علي بن أبي بكر: الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق: جانين سورديل، المعهد الفرنسي، دمشق 1953، ص11.

(5) المقري التلمساني: فتح المتعال في مدح النعال، (ميكروفيلم) مصور عن بيتي، رقم 3113، الجامعة الأردنية، ورقة 6. وقد نقل المقري شعراً للمغاربة والأندلسيين الذين امتدحوا النعل الشريفة.

لآدم عليه السلام ، وكان عليه مسجد بقي منه محرابه»[1]. وفي طبريا قبر النبي شعيب، وعلى القرب منه الجب الذي أنزل فيه يوسف، وفي الخليل مشاهد وقبور الأنبياء والصالحين ومساجد كثيرة[2].

ومهما كانت درجة صحة الأحاديث والأقوال التي تنوقلت، فقد وصلت للأندلسيين واشتهرت عندهم، وعملت بصورة إيجابية، على ترغيب أهل الأندلس في التوجه إلى الشام والاستقرار في مدنه.

وتحتل مصر مكانة دينية عند مسلمي الأندلس، قد لا تصل إلى الدرجة التي وصلتها الشام لاعتبارات كثيرة أشير إليها، مما ساعد على حركة نشطة للأندلسيين إليها، فلمصر ذكر طيب في القرآن الكريم في عدة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة:61] وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ [يونس:87]. وورد ذكرها في الأحاديث الشريفة، من ذلك ما روي عن أبي ذر رضي الله عنه عن الرسول ﷺ أنه قال: «ستفتحون مصر وهي أرض يُسمّى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإنّ لهم ذمةً ورحماً»[3].

وعدّ ابن جبير قرافة القاهرة من عجائب الدنيا، لما تحتوي عليه من مشاهد الأنبياء عليهم السلام، وأهل البيت والصحابة والتابعين والزهاد والعلماء. ومن هذه المشاهد، مشهد رأس الحسين بن علي، وقد وصفه ابن جبير ووصف البنيان الذي يحيط به مجلاً، كما شاهد قبر النبي صالح، وقبر روبيل بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وقبر آسيا امرأة

---

(1) رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار عجائب الأسفار، تحقيق: علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط4، ص78-81.

(2) انظر: المصدر السابق، ص704-779.

(3) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري: صحيح مسلم بشرح الإمام محيي الدين النووي المسمّى المنهاج، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1994، ج16، رقم 6441 في الفضائل، ص314.

فرعون، ومشاهد أهل البيت، مبيناً اتصال الجرايات كل شهر في هذه الأمكنة[1]، ومن المشاهد الأخرى مشهد السيدة أم كلثوم، ومشهد علي بن الحسين، ومشهد السيدة زينب ابنة يحيى بن زيد، ومشهد معاذ بن جبل، ومشهد الإمام الشافعي وغيرها منن المشاهد[2]. كما أشار العبدري إلى وجود عدة وافرة من المزارات الشريفة[3]، وجملة من قبور الصالحين وصدور السلف والخلف في مصر ما لا يضبطه الحصر[4].

وذكر الكندي أماكن دينية في مصر، نقلها عنه السيوطي، فذكر النيل المبارك، والنخلة التي ولد عيسى عليه السلام تحتها، وقبري موسى وهارون، كما ذكر دخول الكثير من الأنبياء مصر ومنهم إدريس وإبراهيم الخليل وإسماعيل ويعقوب ولوط، وعيسى وأيوب وشعيب عليهم السلام[5].

وفي مصر المساجد القديمة العريقة مثل مسجد عمرو بن العاص للمالكية، وخصصت بعض المساجد المشهورة للعناية بالغرباء من المغاربة مثل مسجد ابن طولون الذي خصصه السلطان لهم، مجرياً عليهم الأرزاق[6] فاجتمع بذلك فيه عاملا جذب ديني واقتصادي.

ولا شك أن قوافل الحج التي كانت تمر بمصر، لم يكن الهدف منها أداء فريضة الحج فقط، وإنما اقترن هذا بفكرة الجهاد، والاعتقاد بأن الإقامة في الربط والحياة في الثغور نوع

---

(1) رحلة ابن جبير، ص20.

(2) المصادر السابق، ص21-23، معجم البلدان، 5/ 142-143.

(3) العبدري، محمد بن علي بن أحمد: رحلة العبدري المسماة: الرحلة المغربية، تحقيق: محمد الفاسي، وزارة الدولة، الرباط 1968، ص149.

(4) رحلة ابن بطوطة، ص55-56.

(5) حسن المحاضرة، 1/ 25-26.

(6) رحلة ابن جبير، ص24-26.

من الجهاد، وأن من يموت أثناء إقامته فيها يعدّ شهيداً، لذلك جذبت الإسكندرية عدداً كبيراً من علماء المسلمين عامة، ومن علماء المغرب والأندلس خاصة[1].

ج- الظروف السياسية:

يعدّ القرن السادس الهجري من العصور الذهبية في تاريخ بلاد الشام على الصعيد السياسي، فقد كان عصر نور الدين الذي وحد الشام سياسياً، وقضى على الدويلات الضعيفة، ومهد لصلاح الدين الأيوبي توحيد مصر والشام بعد قضائه على دولة الفاطميين.

ولعل دراسة سياسة نور الدين وصلاح الدين تجاه الأندلسيين في مصر الشام، تسهم في إبراز أثر هذه السياسة على حمل صورة حسنة لدى المرتحلين عن سياسة الزنكيين والأيوبيين، مما جعلها عامل جذب لعدد كبير من المغاربة للارتحال إلى مصر الشام في القرن السابع الهجري، الذي كان يشهد فترات اضطراب وفتن في الأندلس.

فقد بعث نور الدين زنكي المذهب السني في دمشق، بعد قضائه على المذهب الشيعي، وأقام فيها المدارس واستحضر العلماء، وكان حريصاً على إقامة وحدة مذهبية، تكون عاملاً مدعماً للوحدة السياسية[2]. وقد وجد الأندلسيون بذلك المغريات التي تلائم عقيدتهم المذهبية، خاصة وأنهم مالكيون، ووجد حكام الشام في الأندلسيين عنصراً ملائماً لتطبيق سياستهم، فهم مالكية عاشوا في جو تسوده الوحدة المذهبية، إذ لم تقم في الأندلس قائمة لأي مذهب تعتبر السنّة خارجاً عنها[3].

---

(1) ابتسام مرعي خلف الله: العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، 1985، ص348.

(2) صلاح الدين المنجد: المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى، دار الكتاب الجديد، بيروت 1963، ص22.

(3) علي أحمد: الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن لتاسع الهجري، دار طلاس، دمشق، ط1، 1989، ص104.

وقدم نور الدين زنكي للمغاربة الغرباء التسهيلات، ووقف عليهم الأوقاف، وأحسن وفادتهم، وقدم لهم ما يحتاجونه، وبلغ من اهتمامه بهم «أنه عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك أوقافاً كثيرة، منها طاحونتان، وسبعة بساتين، وأرض بيضاء، وحمّام ودكّانان بالعطارين، وأخبرني أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه، وهو أبو الحسن بن سردال الجياني المعروف بالأسود، أن هذا الوقف المغربي يغلّ إذا كان النظر فيه جيداً خمسمائة دينار في العام»[1].

وقد أولى نور الدين افتكاك أسر المغاربة أهمية خاصة، وذلك لأنهم بعيدون عن بلادهم، ولا مخلص لهم، يقول ابن جبير. «وقد كان نور الدين رحمه الله، نذر في مرضة أصابته، تفريق اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى من المغاربة، فلما استبل من مرضه، أرسل في فدائهم، فسيق فيهم نفرٌ ليسوا من المغاربة... فأمر بصرفهم وإخراج عوض عنهم من المغاربة، وقال: هؤلاء يَفْتَكُّهُم أهلوهم وجيراهم، والمغاربة غرباء لا أهل لهم»[2].

واستمر الأيوبيون في سياستهم العادلة، وحسن معاملتهم للمغاربة، ولعل مآثر صلاح الدين لا تحصى في هذا المجال، فقد سار على نهج نور الدين، ووقف الأوقاف على المغاربة، «وأمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا لذلك، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، وخداماً ينظرون في مصالحهم، وعيّن لأبناء السبيل منهم خبزتين لكل إنسان في كل يوم غير ما عيّنه من زكاة العين لذلك»[3]. وكان طبيب صلاح الدين الخاص، من الأندلسيين، وهو عبدالمنعم الجلياني الذي كان يرافقه في حله وترحاله[4].

---

(1) رحلة ابن جبير، ص257.
(2) المصدر السابق، ص280.
(3) المصدر نفسه، ص15-ذ6.
(4) نفسه، ص255.

وكان صلاح الدين معنياً بشؤون المغاربة والأندلسيين، متتبعاً لأحوال ملوكهم ودولهم، حتى رغب إلى طبقة من الكتاب والمؤرخين بالتصنيف في أخبارهم، فصنف له محمد بن أيوب الأنصاري كتاباً في أحوال المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية، وصنف له كتاباً آخر في شعراء المغرب والأندلس[1]، وكان يطلب إلى سفرائه استقراء أحوال البلاد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، والتعرف على أوضاع أهلها، ونواحي حياتهم، جاء ذلك في إحدى وصاياه لسفير له وهذا نصها: «يُستَقْرى في الطَّريقِ وفي البِلادِ من أخْبارِ القَومِ في أحْوالِهِمْ، وآدابهم وأشغالهم، وأفعالهم، وما يحبون في القول نَزْرَهُ أو جمَّه، واللِّقاءِ مُنْبَسَطهُ أو مُنْقَبَضَه، ومن القعود بمجالسهم مُخَفَّفَهُ أو مُطَوَّلَه، ومن التحيات المتهاداة فيما بينهم ما صِفَتُهُ وما مَوْقِعُه، أهي السننُ الدينية، أم العوائدُ الملوكية»[2].

وعمق من اهتمام صلاح الدين بشؤون الأندلسيين اشتراكهم بالحرب معه ضد الصليبيين، فقد استقبل صلاح الدين الأسير الأندلسي الذي قدمه الصليبيون هدية لصلاح الدين بحفاوة وتقدير وإعجاب[3]، كما كان المغاربة يرافقون الجيوش لتقديم الخدمات، مثل تحضير الطعام، وتجهيز الحمامات للجنود من أجل الاغتسال[4].

سار أبناء البيت الأيوبي على نهج صلاح الدين من تقدير المغاربة وحسن معاملتهم، وإنشاء المرافق لهم، فقد أوقف الملك الأفضل ابن صلاح الدين المدرسة الأفضلية على

---

(1) محمد رضا الشبيبي: أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة 1961، ص37.

(2) أبو شامة المقدسي شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، دار الجيل، بيروت، 2/ 17.

(3) العماد الأصفهاني الكاتب: الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح: محمد محمود صبح، الدار القومية، القاهرة 1965، ص502.

(4) المقريزي، أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه، محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ط2، 1956، ج1/ ق1/ 94.

فقهاء المالكية، وبجوارها أوقف قطاعاً من المدينة بجوار المسجد، أضحى معروفاً باسم حارة المغاربة على طائفة من المغاربة على اختلاف أجناسهم، ذكورهم وإناثهم[1].

أما المماليك، فقد قربوا الأندلسيين والمغاربة وأحسنوا إليهم واعتنوا بحجاجهم، وقد نقل التجيبي في رحلته صورة من صور هذه العناية، عن السلطان المملوكي المنصور أبو الفتح لاجين في قوص، يقول: «كان ملك مصر والشام السلطان الأجل حسام الدين والدنيا أبو الفتح لاجين الملقب بالمنصور... يعتني بالحجاج، ويأمر بتسهيل طريقِهم، ويوصي بذلك عُمّاله ونوابه، ... ومما عايناه نحن من ذلك وسمعناه بآذاننا، وذلك في أول جمعة جمعناها بقوص المحروسة، في الثامن عشر لجمادي الثانية، المذكور من سنة ست وتسعين وستماية، إثر فراغنا من صلاة الجمعة قام رئيس المؤذنين، وأمر الناس بالقعود لسماع مرسوم كريم وصل من قِبَل السلطان إلى الفتح ... وكان مضمونه «أن لا يتعرض أحد من عُمّاله ولا نوابه لأحد من الحجاج، وأن تسقُطَ عَنْهُم الملازمُ كُلُّها التي تُؤْخَذُ منهم بِقُوص وغيرِها من بلاده، وأن يُتَرَك التعرُّضُ لَهُمْ جُمْلة»[2]. كما يصف العبدري معاملة المماليك لهم بالقاهرة ويمتدحهم بأنهم أصحاب العقائد السليمة، والتفضل على الفقراء، والتسهيل على الحجاج والمسافرين من المغاربة يقول: «وهم ركن الإسلام، نفعهم الله وأحسن عونهم، وقد رأيت من خدمتهم للركب، واحتياطهم وصبرهم .... ما تعجبت منه ....»[3].

ولعل تقريب المماليك للأندلسيين والمغاربة كان نابعاً من أهدافهم في تدعيم حكمهم بتقريب العلماء، ومن عُرفوا بالفضل والدين، وقد وجدوا في الأندلسيين ما يبحثون عنه لتمسكهم الكبير بسلفيه الدين[4]، وأكد ابن بطوطة ذلك في رحلته حينما ذكر

---

(1) الحنبلي، أبو اليمن القاضي مجير الدين: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب، عمان - الأردن، 1973، 2/ 397.

(2) التُّجَيْبي، القاسم بن يوسف السبتي: مُسْتَفاد الحلة والاغتراب، تحقيق: عبدالحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا وتونس 1957، ص174-175.

(3) رحلة العبدري، ص128.

(4) الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، ص107.

أن بدمشق فاضلاً من كتاب الملك الناصر يسمى عماد الدين القيصراني، من عاداته أنه متى سمع عن وصول مغربي دمشق، بحث عنه وأحسن إليه، فإن عرف منه الدين والفضل أمر بملازمته، وكان يلازِمه منهم جماعة، وعلى هذه الطريقة سار غيرُه[1].

وهذه الحادثة تؤكد سبب اهتمام المماليك بالعلماء والمهتمين بالتدريس أو الفقه من المغاربة والأندلسيين، وهو أن هؤلاء يشكلون دعامة لحكهم، لأن هذا الاهتمام لم يكن ليشمل العامة، لأنهم لا طائل منهم في تحقيق تلك الأهداف السياسية.

د- الظروف الاقتصادية والعلمية:

1- تنوع الزراعات والصناعات واتساع التجارة والثراء:

وصف الوضع الاقتصادي في مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك بالانتعاش نظراً لتوافر الأسس الاقتصادية من تنوع زراعات، ووفرة إنتاج، وقيام صناعات مختلفة، وقد هيأت هذه الظروف لتجارة رائجة، كان لها تأثير في اتخاذ الأندلسيين لكل من مصر والشام دار إقامة، لأن هذه البلاد تشكل مصدر رزق للكثير منهم.

فقد عرفت الشام بزكاء منابتها، واعتدال هوائها، وجودة مناخها، وملاءمته لطبائع الثمار كلها[2]، حيث كانت أرضها مصدراً للحبوب والبقول على اختلاف أنواعها، والفواكه المتنوعة كالموز والبرتقال التفاح والرمان والعنب، كما يجود في أرضها القطن والفستق والقنب والكتان والحرير والنيل والدخان وقصب السكر، وتصلح مراعيها لتربية ضروب الماشية[3].

وقد برع الشاميون في استغلال أراضيهم بذكائهم وبُعد نظرهم في توطين النباتات الآسيوية والإفريقية فيها[4].

(1) رحلة ابن بطوطة، 1/ 119-120.
(2) محمد كرد علي: خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ط3، 1983، 4/ 138-139.
(3) مسالك الأبصار، مصر والشام، ص25-26.
(4) خطط الشام، 4/ 147.

لا شك أن توافر العديد من الموارد الزراعية الأولية والموارد المستخرجة من الأرض، وفر لقيام صناعات عديدة أشهرها الغزل، والحياكة والنساجة والنجارة والدباغة وصناعة الجلد والصدف والرخام والسجاد والحصير وغيرها[1].

لم يقصر دور مصر عن الشام في التقدم الاقتصادي، نظراً لتوافر عوامل الزراعة الناجحة، من تنوع أقاليم وأراضٍ وزراعات، فأراضي مصر عدة أصناف بعضها يجود بالقمح والشعير، ويُنتج بعضها البطّيخ واللّوبيا، ويزرع الباذنجان والمشمش والخوخ في بعضها الآخر وهكذا[2]، وقد كان هذا التنوع الزراعي أساساً لصناعات عديدة كصناعة المنسوجات المتنوعة، وصناعة السكر والصابون التي تكثر في الفسطاط[3]. وقد طبقت في مصر النظم الاقتصادية المتعلقة بالزراعة والصناعة بمستوى عالٍ من الدقة[4]، مما وفر لاقتصادها النجاح والتميز.

وقد تميزت الأسواق في كل من مصر والشام بالضخامة وتنوع ما يعرض فيها، ويصف ابن جبير ما وصلت إليه أسواق دمشق من الارتقاء حين مرّ بها بقوله: «من أحفل الأسواق وأحسنها انتظاماً، وأبدعها وصفاً ... وهي مرتفعات كأنها الفناديق، مسقفة كلها بأبواب حديد، كأنها أبواب القصور، كغيرها من أسواق الشام»[5].

وكانت هناك سوق خاصة لكل سلعة، مثل سوق الأبارين، وسوق النحاسين، وسوق الرطابين، بحيث تعرف أنواع المهن التي امتهنوها من خلال أسماء أسواقهم[6].

---

(1) انظر: خطط الشام، ص199-227.

(2) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي: المواعظ والاعتبار بذكر الخط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، دار صادر، بيروت، 1/ 100-103.

(3) المغرب، الخاص بمصر، ص11.

(4) أرشيبالدلويس: القوى الحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة: محمد شفيق، مكتبة النهضة، القاهرة 1960، ص326.

(5) رحلة ابن جبير، 261-262.

(6) ابن عساكر، الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن: تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي بدمشق 1954، ج2، ق1/ 227.

وعرضت في هذه الأسواق في الشام ومصر الثياب والمنسوجات التي أبهرت الصليبيين، فأقبلوا على شرائها وتوريدها إلى أوروبا، كما أمَّ هذه الأسواق الكثير من التجار، ومنها انطلقت القوافل المحملة بالديباج والأقمشة مختلفة الأنواع[1].

شكلت مدن الشام محطات تجارية بالغة الأهمية بين الشرق والغرب، إذ كانت ثرواتها موضع اهتمام تجار الفرنجة بصفة عامة، وتجار البندقية بصفة خاصة[2]، وقد أدى إعطاء صلاح الدين تسهيلات لتجار البندقية وجنوة وبيزة، إلى وجود تنافس قوي بين تلك المدن، كان له أثر بيِّن في تنشيط حركة التجارة، إذ كانت موانئ ساحل الشام مسرحاً للصراع بين هذه الجاليات، لأسباب تتعلق بالمسائل التجارية والكسب[3].

وكان موقع مصر المتميز على البحر المتوسط الذي يصل منذ القديم بين الشرق والغرب، من العوامل التي ساعدتها على التحكم في مياه البحر المتوسط وجزره وسواحله، والمساهمة في تجارة المشرق بدور كبير، لكثرة قواعدها وطول سواحلها[4]، ولم تنقطع حركات القوافل التجارية من مصر إلى دمشق، ومن دمشق إلى عكا[5]، إذ كانت عكا أعظم مرفأ بين الموانئ، وقاعدة للتجار ومرسى للسفن، وكان اتصال أوروبا بها أكثر من اتصالها بسواها[6]، وانفردت الشام ببعض المنتوجات التي كانت تحمل إلى الديار المصرية، مثل قصب الذهب، وقمر الدين من المشمش، والقنب، والقراصيا[7]، وحمل

---

(1) نجاة باشا: التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة، منشورات الجامعة التونسية، 1976، ص48.

(2) عادل زيتون: أضواء على العلاقات التجارية بين السلطنة الأيوبية وجمهورية البندقية، بحث في مجلة الدراسات التاريخية، جامعة دمشق، سوريا 1980، العدد 2، ص135.

(3) فايد حمّاد: العلاقات بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامي في العصر الأيوبي، دار المعارف بمصر 1980، ص174، 119.

(4) تاريخ البحرية الإسلامية، 1/ 271.

(5) رحلة ابن جبير، ص260.

(6) خطط الشام، 4/ 244-245.

(7) البدري، أبو البقاء عبدالله بن محمد: نزهة الأنام في محاسن الشام، المكتبة العربية، بغداد 1341هـ، 364.

الزيت والخرنوب من نابلس إلى مصر، كما حمل إليها التين والزبيب من صيدا، والفواكه من بيروت[1].

ومما زاد من أهمية التجارة، اعتماد المدن الصناعية في مصر والشام على بعض السلع المستوردة اللازمة لصناعتها، فشكلت بعض مدن مصر والشام مراكز تجارية لهذه السلع، ومن أشهرها: الفسطاط، والإسكندرية ودمياط وعَيْذاب، وطرابلس وصيدا وصُور، وبعض المدن الداخلية في الشام[2]. وقد وصف التجيبي أحد هذه المراكز، وهو مدينة قوص إذ يقول: «هي مدينة عظيمة، آهِلَةٌ عامرة، من أكبَر المدنِ المشهورة التي رأيناها بهذا الصعيد، من أحفلها بناءً، وهي أرتب من مصر وأتقن، غزيرة المرافق، كثيرة الخلائق، يجتمع فيها الصادر والوارد من التجار، الواصلين من اليمن والهند والحبشة ... ومن المصريين والإسكندريين، ويوجد فيها من بضائع الهند ما لا يكاد يوجد في غيرها من المدن العظام»[3].

ومما ساعد في تقدم التجارة أيضاً، حماية الأيوبيين والمماليك لمصالحها الخارجية، وخاصة الارتباط بالأسواق البعيدة مثل الهند والصين شرقاً، ومناطق القوقاز والقرم شمالاً، والمدن التجارية الإيطالية والفرنسية والإسبانية غرباً[4].

فقد استغلت دولة المماليك فرصة أمن الملاحة والتجارة في شمال البحر الأحمر وجنبه، وعملت جاهدة على جذبها إليها، يؤكد ذلك المنشور الذي أذاعه السلطان المنصور قلاوون سنة (689هـ) على التجار الذين يصلون إلى مصر من الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم إذ يقول: «وَمَن يُؤْثِرُ الوُرودَ إلى ممالكنا إن أقام أو تردد - النقلة له في ذلك الخير والخيرة ويحضر إلى بلاد لا يحتاج صاحبها إلى مِيرة، ولا إلى

(1) رحلة ابن بطوطة، 1/ 80، 81، 82.
(2) تاريخ البحرية الإسلامية، 1/ 162.
(3) مستفاد الرحلة والاغتراب، ص173.
(4) أحمد صادق سعيد: مصر في عهد الأيوبيين والمماليك، مقال في مجلة دراسات عربية، السنة 15، العدد 6، 1979، ص32.

ذَخِيرة، لأنها في الدنيا جَنَّةُ عَدْن لِمَنْ قَطَن، وَمَسْلاةٌ لمن تَغَرَّبَ عن الوَطَن، ونُزْهَةٌ لا عليها بَصَر، والمُقيمُ بها في ربيعٍ دائِم، وخيرٍ مُلازِم، ويكفيها أنَّ مِنْ بعضِ أوصافها، أنَّها شامةُ الله في أرضه ... فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليَمَن والهند والصين والسند وغيرهم، فليأخُذْ الأهُبَةَ في الارتحالِ إليها، والقدوم عليها ليجد الفعال من المقال أكبر، ويرى إحساناً يقابل في الوفاء بهذه العهود بالأكثر ويحلُّ منها في بلدةٍ طيبةٍ وربٍّ غفور ... وفي السلامةِ في النَّفسِ والمال، وسعادةٍ تُجلّي الأحوال، وتموِّلُ الأموال»[1].

2- التقدم العلمي والفكري والمستوى الحضاري وتوفيره فرص عمل للمرتحلين:

بلغت الدولة في مصر والشام مستوى حضارياً رفيعاً في النواحي العلمية والعمرانية والاجتماعية، حيث أدى الثراء الاقتصادي الناتج عن نشاط التجارة، إلى الاهتمام بهذه المنشآت العلمية والحضارية كالمساجد والمدارس ودور الحديث، والفنادق والحمامات. وكان لهذه المنشآت أثرها في استقطاب الأندلسيين المرتحلين من علماء متخصصين، وصوفية زاهدين، وباحثين عن مصدر رزق وعيش.

حظيت كل من دمشق والقاهرة بتنوع العلوم، وكثرة المشتغلين بها، بعد هجرة كثير من علماء العراق إليهما، لما خرجت بغداد على يد التتار سنة (656هـ) وقد كثر على إثر ذلك العلماء المتخصصون، وتعينت المسائل العلمية، وتنوعت العلوم، وتوفر المشتغلون بها، ونبغ من الشام طبقة عالية، عُدّت تآليفهم من الأمهات في خزانة كتب الأمة العربية[2]، وكانت دمشق مركزاً علمياً للشرق كله، وسبقت القاهرة في هذا المضمار، وأقيمت فيها المدارس، واستحضر العلماء وقصدها الطلبة، وتدفق إليها الكثير من المغاربة يعملون ويدرسون ويجاهدون ويتاجرون[3]. وقد شهد هذا العصر بناءً نشطاً للمدارس

---

(1) القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه: محمد حسن شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987، 13/ 339-340.

(2) خطط الشام، 4/ 38.

(3) المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين، ص22-23.

ودور العلم المتخصصة في مختلف العلوم، ويتضح ذلك من قول ابن بطوطة: «وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس»[1].

بدأ الاهتمام بإنشاء دور العلم منذ عصر نور الدين، فقد بنى المدارس والربط والخانقاهات، ووقف عليها الأوقاف، وبنى المدارس الجليلة للحنفية والشافعية، منها المدارس النورية في كل من دمشق وحمص وحلب وحماة، وعمر المساجد الكثيرة والربط للصوفية[2]، وأنشأ أول دار حديث بدمشق وهي الدار النورية[3].

سار صلاح الدين والأيوبيون من بعده على هذا النهج في إنشاء دور العلم، ووقفوا عليها الأوقاف، فقد أعاد صلاح الدين كنيسة صَنْدَحَنَّة في القدس مدرسة للشافعية وهي المدرسة الصلاحية ووقف عليها الأوقاف، مفوضاً التدريس فيها لبهاء الدين بن شداد[4]. ووقف الملك المظفر عيسى بن أيوب على المدرسة المعظمية الحنفية سنة 606هـ، قرى ومزارع[5] وبنى الملك الكامل المدرسة الكاملية بمصر، التي كملت عمارتها سنة (621هـ)، وجعل شيخها أحد المرتحلين الأندلسيين، وهو أبو الخطاب ابن دحية، ووليها بعده أخوه[6]. وبنى الملك الصالح نجم الدين أيوب في القاهرة أربع مدارس للمذاهب الأربعة سنة (639هـ) منها المدرسة الكاملية التي عدت من أجمل مدارس القاهرة[7] كما اهتم المماليك بإنشاء المدارس، فقد بنى الظاهر بيبرس المدرسة الظاهرية القديمة لتدريس

---

(1) رحلة ابن بطوطة، ص104-105.

(2) ابن واصل، محمد بن سالم: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيّال، وزارة المعارف، مطبعة جامعة فؤاد الأول القاهرة 1953، 1/ 281-283.

(3) النعيمي، عبدالقادر بن محمد: الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، مطبعة الترقي، دمشق، 1948، 1/ 99.

(4) مفرج الكروب، تحقيق جمال الدين الشيال، المطبعة الأميرية، القاهرة 1957، 2/ 230، 407.

(5) محفوظات رئاسة الوزراء، طابو دفتري القدس، نابلس شريط رقم 522، مركز المخطوطات، الجامعة الأردنية، ص49.

(6) حسن المحاضرة، 2/ 159. انظر عن حياة أبي الخطاب ابن دحية، الملحق، الترجمة رقم 16.

(7) المصدر السابق، ص159.

الحنفية والشافعية وإقراء القراءات[1]. وبنيت الجوامع وما فيها من حلقات العلم، ووقفت عليها الأوقاف، ولعل أشهرها الجامع الأموي بدمشق وحلقاته وشيوخه والأسواق التابعة له ومشاهده التي خصص لكل مشهد منها أوقاف معينة من بساتين وأراضٍ[2]، كما عين لكل مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقاه أوقاف تقوم بها وبساكنيها، حتى إن البلد تكاد الأوقاف تستغرق كل ما فيه[3]. ومن أشهر المساجد في مصر المسجد الكبير المنسوب إلى أبي العباس ابن طولون، وقد جعل مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه، وأجريت عليهم أرزاق واسعة، وقد جعلت لهم الحرية في تطبيق أحكامهم، من قِبَل أحد المختصين منهم، وبذلك لا يكون لأحد يد عليهم. وقد كثرت المساجد والمدارس بصورة تتعدى الوصف، ففي الإسكندرية وحدها شيد اثنا عشر ألف مسجد، إلى غير ذلك من المعاهد والمفاخر[4].

لم يقتصر التدريس في دور العلم على العلوم الدينية، بل درست علوم العربية، وازدهرت العلوم الحكمية وأصول المنطق[5]. وقد انفرد القرن السابع الهجري بإنشاء ثلاث مدارس للطب ومدرسة للهندسة في دمشق، وكان في هذه العاصمة أعظم جامعة إسلامية اشتملت على العلوم الدينية والدنيوية، لا تقصر عن القاهرة بأزهرها، ولا عن بغداد بمدرستها النظامية[6].

ولعل توفر الأسباب المعيشية للمتعلمين، جعلهم يقبلون على العلم، وجعل إنشاء المدارس والقيام على شؤون طلابها من الأعمال التي يتقرب بها إلى الله تعالى كما يقول البدري عن أهل الشام: «وتقرب إلى الله تعالى أهلُها ببناء المدارس، رَغْبةً في جِوار المُجرَّد الفقير البائس، ورتّبوا له من الخبزِ واللّحْمِ الطّعام، والزيت والحلو والصابون والمصروف

(1) حسن المحاضرة، 160.
(2) الدارس في تاريخ المدارس، 2/ 371، 416، 47، 123.
(3) رحلة ابن جبير، ص248.
(4) تاج المفرق، 1/ 200.
(5) مفرج الكروب، تحقيق: حسنين محمد ربيع، تقديم: سعيد عاشور، دار الكتب 1972، 4/ 78، 79.
(6) خطط الشام، 4/ 44.

في كل شهر على الدّوام، فيجلس الطالب في شبّاكها ينظر إلى الماء والخضرة والوجهِ الحسن، فكيف لا ينبعثُ إلى طلب العلم ويتحرك من فهمه ما سكن»[1]، ولعل هذا من العوامل الرئيسة في جعل هذه البلاد مقصداً للكثير من الأندلسيين، حيث غدت منهلاً خصباً للحصول على أسباب الحياة ووسائل العيش، ولعل الرحالة الأندلسيين خير من صور بلاد الشام من ناحية توافر المصادر المعيشية، فقد زار ابن جبير العديد من مناطق الشام، وصورها بقوله: «وكلُّ من وفَّقه اللهُ بهذه الجِهات من الغُرَباء للانفراد، يلتزِمُ إن أحبّ ضيعةً من الضياع فيكون فيها طيب العيش ناعم البال، وينهالُ الخيرُ عليه من أهل الضيعة، ويلتزمُ الإمامةَ أو التعليم أو ما شاء، ومتى سَئِم المقام خرج إلى ضيعةٍ أخرى...»[2].

وقد كانت هذه دعوة صادقة للأندلسيين بالتوجه إلى الشام، والتفرغ لطلب العلم، لوجود أسباب المعيشة لطالبيه دون عناء يصرفهم عن طلبه، يقول: «فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك، فادخُل أيُّها المجتهدُ بسلام، وتغنَّم الفراغ والانفراد، قبل عَلَقِ الأهلِ والأولاد ... ولو لم يكن بهذه البلاد المشرقيَّة كلِّها إلا مبادرةَ أهلِها لإكرامِ الغرباء، وإيثارِ الفقراء لا سيما أهل باديتها، فإنك تجد من يبادِرُ إلى كرم الضيف عجباً، كفى بذلك شرفاً لهم»[3]. وهذا ما يؤكده ابن بطوط حينما زار دمشق إذ يقول: «... وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق، لا بد أن يتأتى له وجه من المعاش من إمامة مسجد، أو قراءة بمدرسة، أو ملازمة مسجد يجيء إليه فيه رزقه، أو قراءة قرآن...»[4].

كما كثرت الربط والزوايا والخانقاهات، فقد وقف صلاح الدين الأوقاف على أول خانقاه عملت بمصر، وهي خانقاه سعيد السعداء ونعت شيخها بـ «شيخ الشيوخ»[5]،

(1) نزهة الأنام، ص70-71.
(2) رحلة ابن جبير، ص259.
(3) المصدر السابق، ص258.
(4) رحلة ابن بطوطة، 1/ 105.
(5) حسن المحاضرة، 2/ 158.

ثم بنى الناصر محمد بن قلاوون خانقاه سَرْياقوس، ورتَّب للصوفية والفقراء طعاماً وخبزاً ولحماً[1]، ووقف الشيخ عمر بن عبدالله المغربي زاوية على فقراء المغاربة بأعلى حارتهم في القدس، وأنشأها من ماله[2]، وقد كان نور الدين قد عيّن لهم زاوية بجامع دمشق وأوقف عليها أوقافاً كثيرة، تغل خمسمائة دينار في العام[3]. وكانت كل زاوية بمصر لطائفة معينة من القُرّاء وكان لكل زاوية شيخ وحارس، وطعام أهل الزوايا مرتان في اليوم، ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف[4] وأنشئت الربط للصوفية وكان صلاح الدين قد وقف الأوقاف على الدار المعروفة بدار البطرك، وجعلها رباطاً للواردين من سائر البلاد الشاسعة، وللصوفية بحيث يكون شيخٌ منهم، ناظراً عليهم، يصرف عليهم من ريع الجهات الموقوفة[5].

وقد تولى التدريس والإقراء في هذه المنشآت العلمية الكثير من الأندلسيين الذين كان لهم دور في الارتقاء بالحركة العلمية، وبلغوا شأواً بعيداً في هذا المجال، فلم يكتف هؤلاء العلماء بأخذ العلم وتلقيه وسماعه، بل شاركوا في التدريس، وترأسوا حلقة الدرس، ومنهم المحدث أحمد بن تميم بن هشام الذي خرج من الأندلس إلى المشرق، وبقي يعمل في ميدان الحديث في دمشق حتى وفاته سنة (625هـ) [6]. كما يعد محمد بن يوسف البرزالي من رحال الحديث المتميزين، إذ خرج من إشبيلية وزار عدة مدن إسلامية، وسمع بالحجاز ومصر والعراق وخراسان ودمشق وقد استقر في دمشق يقرئ

---

(1) حسن المحاضرة، ص158.
(2) الأنس الجليل، 2/ 46.
(3) رحلة ابن جبير، ص257.
(4) رحلة ابن بطوطة، 1/ 54.
(5) سجلات المحاكم الشرعية بالقدس، مركز المخطوطات، الجامعة الأردنية، سجل رقم 95، ص426-427، ومحفوظات رئاسة الوزراء، طابو دفتري القدس. شريط رقم 342، ص10.
(6) الذهبي، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد: العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد ابن بسيوني زغلول. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1985، 3/ 195.

الحديث وأفاد الكثيرين إلى أن توفي سنة 636هـ[1]. كما تميز المحدث قاسم بن محمد بن يوسف البرزالي الشافعي حفيد زكي الدين الذي خرج من إشبيلية في أواخر القرن السابع الهجري، وسمع من عدة شيوخ في الحجاز ومصر ودمشق والقدس وحلب وحماة والإسكندرية، وأجيز من الكثيرين، وانتهى به المطاف إلى دمشق، فأقام فيها وتولى مشيخة دار الحديث في المدرسة الأشرفية[2].

ومن الأئمة المغاربة بمدرسة الكلاسة الملتصقة بالجامع الأموي التي جددها صلاح الدين الأيوبي، وخصصت للمالكية، أبو الحسن إسماعيل بن أبي جعفر القرطبي وكان قارئاً محدثاً، توفي سنة (631هـ)[3]. كما عمل أبو الحسن المغربي مؤدباً في المدرسة العادلية بدمشق حتى وفاته سنة (626هـ)[4].

ومن المنشآت الحضارية البيمارستانات التي عدها ابن جبير مفخراً من مفاخر الإسلام[5]، ووصف ابن جبير بيمارستان السلطان صلاح الدين في القاهرة بأنه «قصرٌ من القصور الرائعة حُسْناً واتساعاً»[6]، ولهذا البيمارستان قيّم من أهل المعرفة، لديه خزائن العقاقير والأدوية بمختلف أنواعها، وفيه قسم خاص للنساء[7]. وفي دمشق بيمارستان

(1) الكتبي، محمد بن شاكر: فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1974، 2/ 263-264. ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف الأتابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، القاهرة، 1942، 9/ 319. ابن العماد الحنبلي، عبدالحي أبو الفلاح، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار المسيرة، بيروت، ط2، 1979، 6/ 122.

(2) الكتبي، محمد بن شاكر: فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1974، 2/ 263-264. ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف الأتابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، القاهرة، 1942، 9/ 319. ابن العماد الحنبلي، عبد الحي أبو الفلاح، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار المسيرة، بيروت، ط2، 1979، 6/ 122.

(3) الذيل على الروضتين، ص162.

(4) المصدر السابق، ص157.

(5) رحلة ابن جبير، ص256.

(6) المصدر السابق، ص26.

(7) السابق، ص26.

كان قد بناه نور الدين ووقف عليه الأوقاف، وهو وقف على الفقراء والمساكين، ولا يمنع منه الأغنياء إن لم يجدوا دواءً لعللهم إلا فيه[1]، كما جدد البيمارستان في حلب، ووقف عليه الأوقاف[2]، وقد بلغ هذا البيمارستان درجة من التنظيم زمن صلاح الدين الأيوبي[3].

خدم في هذه البيمارستانات كبار الأطباء، مثل مهذب الدين الدُّخوار[4] شيخ الأطباء، ونجم الدين ابن اللبّودي[5] الذي أظهر قدرة في العلوم الطبية، وخدم بعض الأطباء الأندلسيين في هذه البيمارستانات، ولعل أشهرهم ابن البيطار ضياء الدين عبدالله ابن أحمد المالقي صاحب كتاب الأدوية المفردة، والذي تحققت عنده معرفة النبات وصفاته وقد خدم في البيمارستان الذي أنشأه العادل[6]، كما كان الملك الكامل يعتمد عليه في الكثير من الشؤون الطبية[7]، وعمل عبدالمنعم الجِلْياني الذي قدم من جِلْيانَة إحدى مناطق غرناطة في البيمارستان السلطاني أيام صلاح الدين حتى وفاته سنة (603هـ)[8].

---

(1) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن عبدالواحد: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبدالقادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة 1963، ص170. رحلة ابن جبير، ص255.

(2) خطط الشام، 6/ 160-161.

(3) رحلة ابن جبير، ص255.

(4) مهذب الدين الدُّخوار، أبو محمد عبدالرحيم بن علي المعروف بالدخوار، كان أوحد عصره وفريد دهره كتب كتباً كثيرة، توفي بدمشق سنة (628هـ)، ودفن بقاسيون، انظر، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت 1965، ص728-733.

(5) نجم الدين ابن اللبّودي: الحكيم أبو زكريا يحيى بن الحكم، وُلد بحلب سنة 607هـ، وخدم الملك المنصور إبراهيم بن الملك أسد الدين شيركوه، واستوزره، انظر عيون الأنباء، ص663-671.

(6) عيون الأنباء، ص671.

(7) ابن سعيد المغربي: الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار المعارف مصر، ط2، 1945، ص104-106.

(8) رحلة ابن جبير، ص255.

كما كثرت الحمامات، وقد ذكر أن في الإسكندرية وحدها أربعة آلاف حمام[1] كما أن الإربلي حينما زار دمشق أعجبه من خصائصها حسن العمائر وكثرة الحمامات، وحسن تقسيم المياه التي تدخل إليها[2].

وقد كان من اتساع اعتناء صلاح الدين بالمغاربة تعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا لذلك، وتولى المغاربة الحمامات في عكا زمن صلاح الدين، فقد «كان في العسكر أكثر من ألف حمام...، وفي كل حمام يجتمع منهم اثنان أو ثلاثة، ويحفرون ذراعين فيطلع الماء، ويأخذون الطين فيعملون منه حوضاً وحائطاً ويستُرونه بحطب وحَصير، ويقْطعون حَطَباً من البساتين التي حولهم، ويُحَمّون الماء في قدور، وصار حماماً يغسل الرجلُ رأسَه بدرهم وأكثر»[3].

وكان للمغاربة وجوه واسعة للعمل، بالإضافة إلى عملهم في الحمامات، فقد يكون الواحد منهم ناطوراً في بستان، أو حافظاً لأبواب داخلية، أو أميناً على طاحونة، أو كافلاً لصبيان يؤديهم إلى محاضِرهم ويصْرِفُهُم إلى منازِلِهم، وقد كانوا يؤتمنون لأنهم قد عَلا لهم صيتٌ، وطارَ لهم ذكرٌ في أمانتِهِم[4].

لقد أتاح المستوى العلمي والحضاري فرص العيش والعمل للمغاربة، الذين أقبلوا على المشرق لأنهم وجدوا فيه الأمن والانفتاح والرقي والحرص على الرعاية الاجتماعية.

كونت مثل تلك الظروف استعداداً نفسياً للاتجاه إلى المشرق منذ فترة سبقت القرن السابع الهجري الذي تغيرت فيه أحوال الأندلس بصورة واضحة، وإن كانت الأحداث

---

(1) تاج المفرق، 1/ 200.

(2) محاسن دمشق وحماماتها ومدارسها (مخطوط)، مكتبة الأسد الوطنية، دمشق شريط رقم 6692، ورقة 146. وقد طبع هذا الكتاب بمطبعة دمشق سنة 1948، وقام بتحقيقه محمد أحمد دهمان، وذلك ما أثبته علي أحمد في مصادر كتابه (الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام) ولم تعثر الباحثة على المطبوع.

(3) السلوك، 1/ ق1/ 94.

(4) رحلة ابن جبير، ص251.

التي سبقت الاجتياح تنذر بمصير الأندلس، إلا أن نية الارتحال إلى المشرق موجودة عند أهل الأندلس لاعتبارات وظروف وقفنا عندها، ويشير ابن بقي الطليطلي (- ت 540هـ) إلى ذلك بقوله:

وَلِي هِمَـــمٌ سَـــتَقْذِفُ بي بِــــلاداً   نَـــأَتْ إمّــا العِـــراقَ أو الـــشَّآما
وأَلْحَــــقُ بالأعاريــــبِ اعــــتِلاءً   بِهِـــمْ وأجيــدُ مَــدْحَهُمُ اهتِمامــا[1]

ولعل هذا الحنين للاتصال بالأعاريب في المشرق ومدحهم، يؤكد مدى الارتباط الوجداني والتواصل بين المشارقة والمغاربة، وقد وردت إشارة بذلك لتاج الدين السرخسي[2] من المشرق في رحلة مفقودة له، إذ يقول: «إني وإن كنتُ خُراسانِيّ الطينة، فإني شاميُّ المدينة، وإن كانت العُمومةُ من المشرق، فإن الخُؤولَة من المغرب»[3].

فلم يقتصر هذا الإحساس بالارتباط والتواصل على الأندلسيين وحدهم أو على المشارقة وحدهم كما تبيّنا، بل هو اتجاه مشترك، يؤكده التواصل العلمي والفكري والأدبي والاجتماعي، الذي سنتبينه في دراسة موضوعات الشعر، وما تحمله من أثر هذا التواصل في مناحٍ شتى.

(1) صلاح جرار، يحيى بن بقي حياته وأدبه، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 1977، ص356.
(2) السرخسي: تاج الدين بن حمويه، وُلد سنة 572هـ، كان فاضلاً نزيهاً، زار الأندلس والمغرب. الذيل على الروضتين، 174.
(3) النفح، 3/ 101.

الفصل الثاني

موضوعات شعر النازحين

علاقة الشعراء بالملوك والسلاطين وكبار رجال الدولة

كان ارتحال الشعراء الأندلسيين من بلادهم، نتيجة اختلال الأوضاع السياسية في الأندلس وغير ذلك من العوامل كما بيّنا في الفصل الأول، وقد ساهمت بيئة مصر والشام الجديدة في توجيه شعر هؤلاء وجهات معينة، نتيجة للأحوال التي عايشوها في موطنهم الجديد. فقد أكثروا من مدح الأمراء والحكام والقضاة والوزراء طالبين منهم النصرة في ديار غربتهم. كما تفاعل الشعراء مع الأحداث السياسية في المشرق، وعبّروا عن نقمتهم على الصليبيين، وامتدحوا قواد المشرق من خلال ذلك.

امتدح الشعراء ملوك الأيوبيين الذين كانت لهم اليد الطُّولى في الإحسان إليهم، بعد أن تباعدت بهم الديار، وأضحوا غرباء ينشدون منهم رفع الضيم فكانوا أوفياء لفضلهم، لديهم الولاء لهم، كما يقول ابن دحية في امتداح الملك الكامل بن العادل الأيوبي (ت 635هـ) بكمال الأوصاف، وعظم الملك وإقامة العدل:

شَجَتْني شَواجٍ في الغصونِ سَواجعُ ... ففاضَتْ هَوامٍ للجُفونِ هوامعُ

ولا حاكِمٌ أرضاه بيني وبينها ... سوى حاكمٍ دهري له اليومَ طائعُ

يدافعُ عني الضيمَ قائمُ سيفِهِ ... إذا عزَّ من للضيم عني يُدافعُ

هو الكامِلُ الأوصافِ والملكُ الذي ... تشيرُ إليه بالكمالِ الأصابعُ

وبـــيضُ أياديـــه الكريمـــةِ في الـــورى قلائـــدُ في الأعنـــاقِ وهـــي الـــصنائعُ[1]

كان هذا الولاء للأيوبيين ينبع من عدلهم، وحسن معاملتهم واحترامهم للعلماء لا سيما علماء المغاربة، وقد كان ابن دحية قد حظي بمكانة خاصة عند الأيوبيين فقربوا مكانه، وجمعوا له علماء الحديث، وحضروا له مجلساً، وأقروا له بالتقدم، وكان الملك الكامل قد بنى له دار الحديث الكاملية بين القصرين والقاهرة[2] فقيّده بإحسانه، إذ يقول:

ولـــو لم يقيِّـــدني نـــداكَ لكـــانَ لي مجـــالٌ فـــسيحٌ في البـــسيطةِ واســـعُ
فأنـــت الـــذي لي والأعـــادي كثـــيرةٌ فُويْـــق مكـــانِ الـــنَّجمِ في الأفـــقِ دافـــعُ[3]

وقد بالغ الشعراء في مدح الأيوبيين حتى شبّهوهم بالملائكة لشدة تقواهم، يقول ابن خروف القرطبي[4] في مدح الملك الظاهر أبي الفتح غازي بن صلاح الدين صاحب حلب:

شـــمسُ الهدايـــةِ في أبنـــاءِ أيـــوبِ أخـــتُ النبـــوَّةِ في أبنـــاءِ يعقـــوب
هُـــمُ الملائـــكُ في زيِّ الملـــوكِ وهُـــمْ أُسْـــدُ الحُـــروبِ وأقطـــابُ المحاريـــبِ[5]

وكتب ابن سعيد على تفاحةٍ أهديت للملك الصالح نجم الدين أيوب، إذ يقول بلسان حالها:

أنـــا لـــونُ الـــشبابِ والخـــالِ أهـــديتُ لمـــنْ كـــسا الزمـــانَ شـــبابا
ملـــك العـــالمينَ نجـــم بنـــي أيـــوبَ ولا زالَ في المعـــالي شـــهابا

---

(1) الغبريني: أبو العباس أحمد بن عبدالله: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض، لجنة التأليف والترجمة والنشر، بيروت، ط1، 1969، ص275-276. النفح، 2/ 101.

(2) السلوك، ج1، ق2، ص258. حسن المحاضرة، 2/ 3، النفح 2/ 102.

(3) النفح، 2/ 102.

(4) انظر الملحق، الترجمة رقم (25).

(5) الغصون اليانعة، ص139.

جئـتُ مـلأى مـن الثنـاء عليـه		مـن شَـكورٍ إحـسانَه والثوابـا
لـستُ ممـن لـه خطـابٌ ولكـن		قـد كفـاني أريـجُ عَـرفي خطابـا[1]

ولعلَّ الملك الناصر صاحب حلب، من أكثر ملوك الأيوبيين الذين امتدحهم الشعراء، لما أولاه للشعراء من اهتمام، فقد كان يقول الشعر ويجيز عليه[2]، وبلغ الشعراء عنده حظوة ومكانة، بالإضافة إلى ما يتصف به من حلم وعدل وحُسْن خلق، وعطاء كما يقول ابن سعيد في قصيدة ناصرية طالباً العطاء:

جُـدْ لي بـها ألقـى الخيـالُ مـن الكـرى		لا بُـدَّ للـضيفِ المُلِـمِّ مـن القِـرى
النـاصرُ الملـكُ الـذي عَزَماتُـهُ		أبـداً تكـونُ مـع العـساكِرِ عَـسْكرا
الـدّينُ أصـلَحَهُ وعَـمَّ صـلاحُهُ الـدُّنيا وأصـبَحَ نـاصراً ومظفَّـرا
فكـأنَّ كنيتَـهُ غَـدَتْ موضـوعَةً		مـن ربِّـهِ والوصـفُ منـهُ مُقـرَّرا

فلا غرابة أن يجمع كلَّ هذه الصفات، وهو من بني أيوب، أهلِ الفضل والرياسة والمعالي والشجاعة:

مـن مَعْـشَرٍ خَـبَروا الزمـانَ رياسَـةً		وسياسَـةً حَلّـوا الـذرى حُمْـرَ الـذُّرا[3]
سـمُّ العُـداةِ عـلى حيـاءٍ فـيهِمُ		لا تعجَـبَنَّ كـذاك آسـادُ الـشَّرى
حتّـى ظُبـاهُمْ في الحيـاءِ مثـالُهُمْ		أبْـدَت وقـد أرْدَتْ مُحيّـا أحمَـرا
وببيـضِهِمْ قـد توَّجـوا أعـداءَهم		حتـى العِـدا حَلّـوا لكـيما تَـشْكُرا[4]

كما امتدحه ابن المُناصِف القُرطبي[5] في قصيدة أولها:

---

(1) النفح، 2/ 266.
(2) العبر، 3/ 297.
(3) الذُّرا: الكنف والحماية. لسان العرب، مادة ذَرَوَ.
(4) المغرب، 2/ 175. الإحاطة، 2/ 156.
(5) انظر الملحق، الترجمة رقم (52).

دانَتْ لـكَ العُـربُ طَـوْعَ الحـقِّ والعَجَـمُ   وأصـبَحَ الـدهرُ مـن عليـاكَ يبتَـسِمُ[1]

ويمتدح الشاعر يحيى بن سليمان بن شاؤول الطليطلي[2] الأشرف موسى[3] الأيوبي ببأسه وعزمه وكرمه، ورادّاً على الذين أنكروا على يهودي مثله امتداح الملك الأشرف، ردّاً عقائدياً لطيفاً:

بـسيوف عزمتِـكَ القـضاءُ يـصولُ   ومَـضاءُ بأسِـك في يديـهِ نُـصُولُ

لِفِرنْـدِ سـيفِكَ مـن بهائـكَ رَوْنَـقٌ   بكلاهُمـا مـاءُ الجَـلالِ يجـولُ

لكـنَّ وصـفَكَ مُفحِـمٌ أهـلَ النُّهـى   سـيّانَ فيـه عـالِمٌ وجهـولُ

قـال العـدا، مـا لليهـود وللنَّـدى   فـأجبتُهُم أخطـاكمُ التحـصيلُ

مـا شـقَّ موسـى بحـرَ جـودٍ للـوَرى   إلاّ ليعـبُرَ فيـه إسرائيـلُ[4]

وقد عُني الشعراء بالأحداث السياسية في المشرق، وعبروا عن روحهم الانتصارات التي يحققها ملوكُ الأيوبيين، ولعل من أبرزها الانتصار الذي حققه الأيوبيون باستردادهم دمياط من الفرنج سنة (618هـ)، إذ كان المعظم عيسى من أحرص الناس على خلاصها، وسارَ مع أخيه الملك الأشرف موسى إلى مصر، والتقيا بالملك الكامل بن العادل الذي لجأ إلى خطة أوقعت بالفرنج، فقد فتح المسلمون عليهم التُرع وأحدقت بهم العساكر وقطعت عنهم الميرة، فبعثوا يطلبون الصلح مقابل تسليم دمياط[5]، وقد عبّر الفتح بن حماد[6] عن ذلك، مهنئاً الملك الأشرف إذ يقول، مبتهجاً بالنصر، وإحقاق الحق:

(1) المغرب، 1/ 105. لم يكمل ابن سعيد القصيدة، بل ذكر أولها فقط.

(2) انظر الملحق، الترجمة رقم (55).

(3) الأشرف موسى: أبو الفتح موسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، توفي سنة (635هـ) بقلعته في دمشق، تولى دمشق بعده أخوه الملك الصالح إسماعيل. انظر الذيل على الروضتين، ص165. السلوك، ج1، ق1، ص256.

(4) ابن الشعار الموصلي، عقود الجهاد في شعراء هذا الزمان (مخطوط)، مكتبة الجامعة الأردنية، ج9، ورقة 228-229.

(5) الذيل على الروضتين، ص128-129، الصفدي، خليل بن أيبك: الوافي بالوفيات، باعتناء هلموت ريتر. فرانز شتاينر بليسبادن، ط2، 1962، 1/ 196.

(6) انظر الملحق، الترجمة رقم (31).

اللهُ أكـــبَرُ هـــذي أكـــبَرُ الرُّتَـــبِ شـاهَتْ لهـا أوجُـهُ الأوثـانِ والـصُّلَبِ
وحَـصْحَصَ الحـقُّ وانجابَـتْ غياهِبُـهُ واجْتُـثَّ دابِـرُ أهـلِ الـشركِ والرِّيَـب

ثم يُبَيِّنُ حُسن تدبير الملوك، وإحكامهم خطة المعركة، ويمدحهم مورياً بأسمائهم:

يـا للعجايـب عيـسى وهـو عِنْـدَهُمُ ربٌّ داعـاهُم إلى التَّقـوى فلَـمْ تُجِـبِ
ولم يَـزلْ وهـو روحُ القُـدْسِ منـذِرُهُمْ آيـاتِ موسـى ومـا فيهـا مـن العَجـبِ
فجـاءَ عيـسى رَسـولاً مـن محمَّـدِهِ إلى أبي الفـتح موسـى الـبطش والرَّهَـبِ
فجـاءَ موسـى لـدمياطٍ عـلى قَـدَرٍ والنـصرُ يقدُمُـهُ في جحفـلٍ لَجِـبِ

ثم يصف ما آل إليه الرنج من القتل الذي حاولوا الهروب منه، لكن السيف كان بانتظارهم، فأرغموا على تسليم دمياط:

وصـالَ مـا بـينَ دميـاطٍ وبيـنهُمُ بكـلِّ مرتَقَـب للهـولِ مُرتكِـب
مـستيقنين بـأن الله خـانَهُمُ وأن مـرجعهم للـسيفِ والهـربِ
وأيـن يُهـرَبُ مـن موسـى وفي يـدِهِ الـدنيا جميعـاً وخيـلُ الله في الطلَـبِ
فـسلموها ومـا جـادوا بهـا كرمـاً لكـنهم قـد فَـدُوا المسلوبَ بالـسَّلَبِ[1]

ويمتدح ابن سعيد الملك الناصر، حينما فتح دمشق، بعد موت الملك الصالح نجم الدين أيوب، يقول واصفاً دمشق ملقيةً قيادها إليه، غير ممتنعة على ما كانت فيه من التحصين:

أمـا دمـشقُ فقـد ألقـت أزمَّتهـا عـلى يـديكَ عـلى حُـسْنٍ وتحـصينِ
لم تمتنـع عنـدما قاربْـتَ سـاحَتَها وجـالَ جيـشُكَ في تلـكَ الميـادينِ
لمـا نهـضْتَ إليهـا وهـي عاصـيَةٌ تلفَّعَـتْ مـن حيـاءٍ بالبـساتين

(1) انظر القصيدة، عقود الجهان (ميكروفيلم)، رقم الشريط 1855، ج5، ورقة 259.

مثـــلَ العـــــروس تجلَّـــتْ في ملابِـــسها بكـــلِّ مـــا جَـــلَّ مـــن حـــسنٍ وتـــزيينِ[1]

وتعاطف ابن سعيد مع ما حدث للملك المعظم تورانشاه[2]، لما سار من حصن كَيْفا وآل أمره إلى المُلكِ، ثم القتل والهلاك، يقول:

ليـــتَ المعظَّـــمَ لم يَـــسِرْ مـــن حـــصنِهِ يومـــــــاً ولا وافى إلى أملاكِـــــــهِ
إنَّ العنــــــاصِرَ إذ رأتْــــــهُ مُكمَّـــــلاً حـــسدَتْهُ فاجتمعـــت عـــلى إهلاكِـــه[3]

وهناك إشارة إلى مدح ابن خروف للملك الأفضل ابن الملك الناصر صلاح الدين، والملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر[4].

كما اتصل المرتلون بالوزراء والقضاة، ممتدحين ما أولوهم إياه من رعاية وأمن، وهو أحوج ما يكونون إليه في غربتهم، من ذلك ما يقوله أبو عبدالله الغُماري[5] في مدح الوزير أبي نصر إبراهيم بن يوسف الشيباني بحلب:

وقـــــــد جمعـــــــتَ نفـــــــرةَ الظبـــــــي وبطـــــــشَ الأســـــــدِ
ولـــــيسَ لي منـــــك حِمـــــىً إلا حمـــــــــى المؤيَّـــــــــدِ
فقـــــال لي كُـــــن آمِنـــــاً وابـــــشِرْ بنيـــــلِ المقـــــصَدِ
إنَّ المؤيَّـــــــدَ الـــــــذي اســـــتنجدْتَ خـــــيرَ مُنْجِـــــدِ

ثم يثني على كرمه وطيب أصله، مؤكداً على فضائله في رعايته وإعزاز جاره:

---

(1) ابن سعيد المغربي، اختصار القدح المعلّى في التاريخ المحلّى، اختصره أبو عبدالله محمد بن خليل، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1980، ص7.
(2) الملك المعظم تورانشاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل، كانت إقامته بحصن كيفا (بديار بكر) نائباً عن أبيه. لما توفي سنة (647هـ)، استدعته شجرة الدر إلى مصر فجاء واسترد دمياط، فحرّضت عليه المماليك البحرية فقتلوه سنة (648هـ). انظر، وفيات الأعيان، 5/ 86. البداية والنهاية، 13/ 192.
(3) النفح، 2/ 303.
(4) انظر الوافي بالوفيات، 22/ 90.
(5) انظر الملحق، الترجمة رقم (50).

أشـــــــــهرُ أهـــــــلِ الأرض في مكـــــــــارِمٍ وســـــــــؤْدَدِ
أطـــــــــولهُم في شرفِ الأصـــــــلِ وطيـــــــــبِ المحتـــــــــدِ
أعـــــــــزُهم جـــــــاراً وأوفـــــــاهُم بحـــــــسنِ الموعِـــــــدِ
دامَـــــــــتْ لـــــــه النعمـــــــــةُ والـــــــسَّعدُ دوامَ الأبَـــــــدِ[1]

أما القاضي كمال الدين بن أبي جرادة[2]، فقد غدا مأوى الغريب، وراحة المسكين، وحمىً لكل ضعيف بعيد عن أهله، كما يقول يحيى بن غانم[3] ممتدحاً إياه:

وتركـــتُ للـــشَّوقِ الـــدِّيارَ وأهْلَهـــا وقَـــصَدْتُ مُنْتَجِعـــاً كـــمالَ الـــدِّينِ
العـــالِمَ الـــصَّدْرَ الـــذي بِفنائِـــهِ مَـــأوى الغَريـــبِ وراحـــةُ المِـــسْكينِ
طَلْـــقَ المُحيَّـــا ســـيِّداً مُتَواضِـــعاً بـــادي الـــسَّكينةِ شـــامِخَ العِـــرنينِ

ثم يدعو له أن يُوقّى أسبابَ الفراق، حتى لا يعاني ما عاناه هو من آلام الفراق:

وُقّيـــتَ أســـبابَ الفـــراقِ ودمـــتَ في دَعَـــةٍ ولا حمِّلْـــتَ مِثْـــلَ شُـــجوني
وبقيـــتَ في حَلَـــبٍ عـــلى رُغـــم العِـــدا في كُـــلِّ خَطْـــبٍ مُنجِـــدي ومُعينـــي[4]

ويردد الشعراء معاني الاستجارة والحماية وطلب العون من رجال الدولة في قصائدهم، من ذلك أيضاً القصيدة الطويلة التي يمدح بها الفتح بن حمّاد أحد قضاةِ حلب[5].

---

(1) عقود الجمان، ميكروفيلم، رقم الشريط (1855)، ج7، ورقة 218.
(2) هو كمال الدين بن أبي جرادة، المعروف بابن العديم، مؤرخ محدث، ولد بحلب ورحل إلى دمشق وفلسطين والحجاز والعراق. توفي في القاهرة سنة 660هـ. انظر فوات الوفيات، 3/ 126-129. الوافي بالوفيات، 22/ 421-426. النجوم الزاهرة، 7/ 208-209.
(3) انظر الملحق، الترجمة رقم (56).
(4) عقود الجمان، ميكروفيلم، رقم الشريط (1045)، ج10، ورقة 21-22.
(5) انظر القصيدة عقود الجمان، ميكروفيلم، رقم الشريط (1855)، ج5، ورقة 256-258. الخط غير واضح.

ولم يتورع بعض الشعراء، من وصف القضاة بانعدام الذوق الأدبي، كما كان من ابن الجَنّان الشاطبي[1]، الذي أنشد عند القاضي شمس الدين ابن خلكان وهو ينوب في الحكم بالقاهرة أبياته التي يقول فيها:

عَـــرْفُ النـــسم بعَـــرفِكُم يتعـــرَّفُ وأخـــو الغَـــرام بِحُـــبِّكُم يتـــشَرَّفُ
شَرَفُ المتـــيَّم في هَـــواكُمْ أَنَّـــهُ طَـــوْراً ينـــوحُ وتـــارةً يَتَلهَّـــفُ
لَطُفَـــتْ معانيـــهِ فَهَـــبَّ مـــع الـــصبَّا فرقيبُـــهُ بهبوبـــهِ لا يعـــرِفُ
وإذا الرقيـــبُ درى بـــه فلأنَّـــه أخفـــى لديـــه مـــن النَّـــسيم وألطَـــفُ
ولأنَّـــهُ يعـــدو النـــسيمُ ديـــارَهُمْ ولـــه عـــلى تلـــكَ الرُّبـــوعِ توقّـــفُ

فقال القاضي شمس الدين: يا شيخ فخر الدين لطَّفْتَهُ إلى أن عادَ لا شيء، فالتفت وقال بلسانه ... بما معناه، أن القاضي ... ما له ذوق[2].

لقد كانت تجمع الشعراء المرتحلين بكبار رجال الدولة علاقات، تقوم في معظمها على التكسب والاستعطاف وطلب الحماية، ولا ينفي ذلك تقدير الملوك والقواد والقضاة لعلمائهم، وإدراك فضلهم، وإعزاز جانبهم، وإغداق الخيرات عليهم، ولعل الأحوال التي عايشها المرتحلون في الوطن الجديد، والتي لم تخل من المضايقات، والشعور بألم الغربة، والحاجة إلى العون ممن هم في موقع الأمر والنّهي، أدت إلى توجيه معظم شعرهم السياسي هذه الوجهة.

الغربة، والحنين إلى الوطن

يكاد الشعور بالغربة يشمل معظم قصائد الأندلسيين في أغراضها المختلفة، في علاقاتهم بالملوك والوزراء والقضاة، وفي علاقاتهم بالمدن والجزر والأنهار في المشرق، وفي مطارحاتهم ومجالسهم. فكل ما يرونه في المشرق يذكرهم بأندلسهم الذي فقدوه، فيقارنون بين أيامهم الماضية في وطنهم، وبين الظروف التي يعانونها في مدن المشرق، فقد

---

(1) انظر الملحق، الترجمة رقم (41).
(2) انظر الأبيات والحادثة في فوات الوفيات، 3/ 263-264.

أصبحت الغربة هاجساً يسكنهم، يرددون ألفاظها ومعانيها المختلفة في معظم ما يكتبون، مكثرين فيه من الحنين الدائم لفردوسهم الذي فقدوه، وتناءوا عنه.

لقد ارتبطت الغربة بالرحيل القسري الذي باعد بين الأندلسيين ووطنهم، بعد توالي سقوط المدن الأندلسية، وإذا كان الوطن قد انتُزع فالشعور بالغربة والألم والشكوى والتحسر على فوات المطالب لا ينفك يلازمهم.

حرص المغاربة أن يعطوا أفضل انطباع عنهم في ديار الغربة، وهذا شأن الغريب في غير وطنه، لقد كانوا أفراداً فاعلين في كافة المجالات في المجتمع المشرقي كما تبيّنا في الفصل الأول من خلال دورهم في الحياة العلمية والحضارية، ووظائفهم في الحمامات والبيمارستانات والمرافق الأخرى. وقد كانت هذه الغربة كما رأينا، تزيد من حرصهم على التقرب من ذوي الشأن، وهذا قد يفسر مدحهم واستعطافهم للملوك والوزراء والقضاة، وقد اشتملت وصية موسى بن عبدالملك بن سعيد[1] لابنه علي على معظم هذه الجوانب، حين أراد النهوض من ثغر الإسكندرية إلى القاهرة، فكانت أبياته إماماً ودليلاً له في الغربة، إذ يقول:

أودعُـــكَ الـــرَّحمنَ في غُربتِـــك	مُرتَقِبـــاً رُحمـــاهُ في أوْبَتِـــكْ
فلـــيسَ يُـــدرى أصْــلُ ذي غُربـــةٍ	وإنـــما تُعـــرَف مـــن شـــيمَتِكْ
وكـــلَّ مـــا يفـــضي لعُـــذرٍ فـــلا	تَجْعَلْـــهُ في الغربـــةِ مـــن إرْبَتِـــكْ
ولا تجـــادِلْ أبـــداً حاســـداً	فإنَّـــهُ أدعـــى إلى هَيْبَتِـــكْ

ثم ينصحه بالتقرب إلى ذوي الشأن من رجال الدولة مفسراً ذلك:

ولا تكُـــنْ تحقـــرُ ذا رُتبـــةٍ	فإنـــه أنفَـــعُ في غربتِـــكْ
حيـــثُما خيَّمـــتَ فاقـــصِدْ إلى	صـــحبةِ مـــن ترجـــوهُ في نُـــصْرتِكْ[2]

---

(1) انظر الملحق، الترجمة رقم (54).

(2) النفح، 2/ 353-354.

ثم دعا ابن سعيد ابنه إلى التحلي بحسن الخلق، ورجاحة العقل، مدعماً ذلك بأقوال الشعراء في الغربة، يقول أحدهم:

يــــزينُ الغريــــبَ إذا مـــا اغـــتَرَبْ ثـــــلاثٌ فمـــــنهنَّ حـــــسنُ الأدَبْ
وثانيـــــــةٌ حُـــــسْنُ أخلاقِـــــهِ وثالثـــــةٌ اجتنـــــابُ الرِّيَـــــبْ

ويقول آخر:

يُعَــدُّ رفيــعَ القــوم مــن كــان عــاقلاً وإنْ لم يكـــن في قومِـــهِ بحَـــسيبِ
إذا حــلَّ أرضــاً عــاش فيهــا بعقلِــهِ ومـــا عاقِـــلٌ في بلـــدةٍ بغريـــبِ(1)

لكن كيف عبّر الشهراء عن غربتهم؟ وهل كانت رجاحة العقل، وحسنُ الخلق مخرجاً للتغلب على الصعوبات التي واجهتهم؟ وهل وجدوا في البيئة الجديدة سلوتهم وأنسهم؟

لقد ربط الشعراء في قصائدهم ومقطعاتهم، الغربة بصور مشؤومة، موحشة، كالغراب، والذئاب، أو بما يدل على الرحيل كالجمل، كما في قول ابن عتبة الإشبيلي:

أمّـــا الغـــرابُ فإنـــه سَـــبَبُ النـــوى لا رَيـــبَ فيـــه وللنَّـــوى أســـبابُ
يـــدعو الغـــرابُ وبعـــد ذاك يجيبُـــهُ جَمَـــلٌ وتعـــوي بعـــد ذاك ذئـــابُ(2)

وينذرُ صوت الغراب بفراق وشيك، عندها ينقطع الرجاء من التواصل والعودة، يقول ابن سعيد في صورة مستقصية لما في الغراب مما يُتطيّر به:

إذا مــا غــرابُ البــينِ صــاحَ فقُــلْ لَــهُ ترفَّـــق رمـــاكَ اللهُ يـــا طـــيرُ بالبُعـــدِ
تـــصيحُ بنَـــوْح ثـــمَّ تعثُـــرُ ماشـــياً وتـــبرزُ في ثـــوب مـــن الحـــزنِ مُـــسودِّ
متـى لُحْـتَ صـحَّ البـينُ وانقطَـعَ الرجـا كأنّكَ مـن وشْـكِ الفـراقِ عـلى وَعْـدِ(3)

(1) النفح، 2/ 355.
(2) المصدر السابق، 2/ 112.
(3) رايات المبرزين وغايات المميزين،تحقيق: محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات، دمشق، ط1، 1987، ص180. وقد ورد البيتان الأول والثاني فقط في النفح، 2/ 267.

ولعل ابن سعيد من أكثر الشعراء تعبيراً عن الغربة وما تبعثه في النفوس من ألم وشكوى بكل صورها، ويكاد يتجاذب شعره طرفان مترابطان هما: الشكوى من الغربة، والحنين إلى الوطن. لذا فإننا نرتكز في بيان معظم صور الغربة والحنين على دراسة الشعور بالغربة في شعره، ومدى تباين درجاتها في البيئات التي عاش فيها ابن سعيد بحكم ترحاله الدائم.

يلاحظ من خلال شعر ابن سعيد أن الإحساس بالغربة عنده كان مبكّراً جداً وقبل أن يغادر بلاده إلى تونس أو المشرق، من ذلك القصيدة التي قالها بقرمونة[1] متشوقاً إلى غرناطة، والتي جاء في بعض أبياتها قوله:

أغثنـــي إذا غنّـــى الحـــمامُ المُطـــرِّبُ ... بكـــأسٍ بهـــا وَســـواسُ فكـــريَ يُنْهَـــبُ

ومِـــلْ ميلـــةً حتـــى أعـــانِقَ أيكَـــةً ... وألـــثُمَ ثغـــراً فيـــه للـــصَبِّ مَـــشْرَبُ

فـــأينَ زمـــانٌ لم يخُنّـــي ســـاعَةً ... بِـــهِ وهـــوَ منـــي في التـــنعُّم أرْغَـــبُ

فيـــا ليـــتَ مـــا ولّى مُعـــادٌ نعيمُـــهُ ... وأيُّ نعـــيم عنـــدَ مـــن يتغـــرَّبُ؟![2]

لقد عَدَّ ابن سعيد بعده عن غرناطة غربة، وحنَّ إلى أيام أنسِهِ ونعيمه فيها، ثم لا يلبث أن يبكي زماناً تقضّى فيها، ويحنُّ إليه، إذ يقول:

حبّـــذا عـــيشٌ قطعنـــاه لـــدى ... معطـــفِ الخـــابورِ مـــا فيـــه نَـــصَبْ

أيُّ عـــيشٍ سَـــمَحَ الـــدهرُ بِـــهِ ... كـــلُّ نُعمـــى ذهبَـــتْ لّمـــا ذَهَـــبْ[3]

وتزداد صورة الحنين في شعره وضوحاً، حينما يترك ملاعب صباه في إشبيلية ويذهب إلى مالقة، فيضحي أسير شوق، ساهراً ليله، باحثاً عن أترابهِ، يقول متشوقاً إلى الجزيرة الخضراء الإشبيلية:

---

(1) قرمونة (Carmona): مدينة كبيرة تقع شرق إشبيلية، تمتاز بحصانتها، وفيها آثار كثيرة ودار صناعة. الروض المعطار، ص461.

(2) النفح، 2/ 283، 284، 285.

(3) المصدر السابق، 2/ 289.

يـا نسيماً من نحو تلك النَّواحي ... كيف بالله نورُ تلك البطاحِ
يا زماني بالحاجِبيَّةِ إنّي ... لستُ من سُكرٍ ما لقيتُ بصاحي
آهِ مما لقيتُ بعْدَكَ من همٍّ وشوقٍ وغربةٍ وانتزاحِ
أينَ قومٌ ألفتُهُمْ فيكَ لمّا ... قَرَّبَ الدهرُ آذَنوا بالرَّواحِ
تركوني أسيرَ وجدٍ وشوقٍ ... ما لِقلبي من الجَوى من سَراحِ
أسْهَرُ الليلَ لستُ أغفي لصُبحٍ ... أتُرى النومَ ذاهباً بالصَّباح
إنَّ يومَ الفِراقِ بدَّدَ شملي ... طائراً ليتَهُ بغيرِ جناحِ[1]

وفي مرسية بشرق الأندلس، يزداد إحساسه، بالاغتراب، ويصور مكابدته ومساءلته عن ربوع إشبيلية، طالباً من الحمام أن يعيره جناحاً ليطير به إليها، يقول:

أقلقَهُ وجدُهُ فباحا ... وزاد تبريحُهُ فَناحا
ورام يَثني الدّموعَ لّما ... جَرَتْ فزادت له جِماحا
يكابدُ الموتَ كلَّ حينٍ ... لو أنَّهُ ماتَ لاستراحا
يَنزو[2] إذا ما الرياحُ هبَّتْ ... كأنَّهُ يعشقُ الرِّياحا
كم قد بكى للحَمامِ كيما ... يُعيرَهُ نحوَها جناحا[3]

ولعل تنقل ابن سعيد المبكر مع والده وخروجه من إشبيلية، ومرافقة والده في رحلاته، قد أوجد مثل هذه النزعة في شعره، كما أن حياته في إشبيلية كان فيها من الاستقرار ما جعله يتعلق بها، بالإضافة إلى أنه وُلد في الفترة التي بدأ فيها الزحف الإسباني يقترب بعد موقعة العقاب سنة (609هـ) مما كوّن استعداداً نفسياً لدى

(1) النفح، 2/ 308.
(2) ينزو: يثور ويتحرك ما في داخله من الوجد، المعجم الوسيط، مادة: نَزَوَ.
(3) النفح، 2/ 307.

الأندلسيين للاغتراب[1]. إلى جانب طبيعة تكوين ابن سعيد، التي جعلت لديه استعداداً للتشبع بشعور الغربة والحنين.

إذا كان الشعور بالغربة، والبكاء على أيام الأنس والصبا في شعر ابن سعيد وهو داخل حدود الأندلس، فإنه اتسع وازداد حينما حلّ مع أبيه في بلاط السلطان الحفصي أبي زكريا في تونس، وتقلبت به الأحوال وكثرت القلاقل والوشايات، مما زاد من شعوره الحادّ بالغربة التي يساويها بالموت، لا سيما حينما اشتد الخلاف بينه وبين ابن عمه الرئيس أبي عبدالله ابن الحسين[2]، إذ يقول في بعض أبيات قصيدته:

هــل الهجــرُ إلاّ أنْ يطــولَ التَجنُّــبُ ... ويبعُــدَ مــن قــد كــانَ منــه التقــرُّبُ
إلى الله أشــكو غَــدرَكُم وملالكُــمْ ... وقلبــاً لــه ذاكَ التعــذُّبُ يعــذُبُ
فهــلاّ رعيــتُمْ أنَّــهُ في ذَراكُــمُ ... غريــبٌ ولــيسَ المــوتُ إلاّ التغــرُّبُ[3]

ثم يشكو الصحاب المنافقين الذين فضلت الغربة على مصاحبتهم إن قورنت بهم فهم داءٌ دفين، وذئاب تُخفي حقدها بألسنة معسولة، فعدت غربته غربتين؛ غربة البُعد عن الوطن، وغربة العالم المتأدب بين قوم جُهال، يقول:

صــحابٌ هــم الــداءُ الــدّفينُ فليتنــي ... ولم أدْنُ مــنهُم للــذائب صــحوبُ
كلامُهُــمُ شــهدٌ ولكــنَّ فعلَهُــم ... كــسُمّ لــه بــين الــضلوعِ دبيــبُ
ســأرحَلُ عــنهُم والتجــارِبُ لم تَــدَعْ ... بقلبــي لهــم شــيئاً عليــه أثيــبُ
إذا اغــترب الإنــسان عمــن يــسوؤه ... فــما هــو في الإبعــاد عنــه غريــبُ

---

(1) محمد جابر الأنصاري: التفاعل الثقافي بين المشرق والمغرب في آثار ابن سعيد المغربي، دار المغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص260.
(2) انظر تفصيل ذلك في النفح، 2/ 277.
(3) النفح، 2/ 279.

فيـــا ليـــتَ أنّي لم أكُـــنْ متأدِّبـــاً   ولم يـــكُ لي أصـــلٌ هنـــاكَ رَســـوبُ[1]

ويرتحل ابن سعيد لمصر، ويكون الاغتراب المرير الذي يصل حدّ التأزم والألم الممض، وتزيده المعاملة التي يقابل بها المغاربة بصورة عامة في مصر، وهو ما أشار إليه العديد من المرتحلين، من ذلك ما أورده ابن جبير من معاملة أهل الإسكندرية للحجاج المغاربة وتفتيشهم، وإدخال الأيدي في أوساطهم بحثاً عما فيها، وهذا كما يقول لا يخل بسياسة العدل عند صلاح الدين الذي لو علم بذلك لأزاله[2]. ونقل العبدري في رحلته بعض ما شاهده أو سمعه عن غلظة أهل القاهرة في معاملتهم للغرباء من المغاربة، وشبه أهل الإسكندرية «بجسم لا روح فيه» لسوء أخلاقهم في معاملة الغرباء[3]. وإن كان العبدري قد تطرَّف في نقمته على المصريين، إلا أن ذلك لا ينفي عدم رضا المغاربة بصورة عامة عن أهل مصر ومعاملتهم. لكن ذلك لا يعدم وجود صور مشرقة لتعامل المصريين مع المغاربة، من ذلك ما نقله التجيبي في رحلته عن حسن معاملة الحجاج في قوص[4].

على ضوء الصور الموجزة لآراء بعض الرحالة في مصر، نعود إلى معاناة ابن سعيد، والانطباعات التي حملها في رحلته إلى مدن مصر. فقد تداخلت عدة عوامل جعلت غربته تزدادُ حدة، فهو غير راضٍ عن بعض جوانب الحياة في مصر من حيث المستوى الحضاري، وطباع الناس، وتعذر حجه، ومقارنته ذلك كله بحياته في الأندلس، مما يضاعف في مرارته وكمده.

فالفسطاط كما صورها ابن سعيد في القرن السابع الهجري ضيقة الأسواق، غير مستقيمة الشوارع، مغبرة الآفاق، والقاهرة لا تقل حظاً عنها في كثرة الزحام، وسوء التنظيم، وراعه سلوك الناس والتهامهم الطعام في الأسواق غير محتشمين[5]. ويسير في

---

(1) النفح، 2/ 276-277.

(2) انظر: حلة ابن جبير، ص13-14.

(3) انظر: رحلة العبدري، ص126-127، ص92-93.

(4) انظر الدراسة، ص49-50.

(5) انظر: المغرب القسم الخاص بمصر، ص4-12. النفح، 2/ 337-339.

طرقات مصر، فيجد كل ما يراه غريباً، يتمتعن في وجوه الناس فلا يجدها مألوفة، بل تزيد من غربته وشعوره بالضياع والوحشة التي تلف الألحاظ، يقول:

أصـبحت أعـترضُ الوجـوهَ ولا أرى مـا بَيْنَهـا وجهـاً لمـن أدريـهِ
عَـوْدي عـلى بَـدئي ضَـلالاً بَيـنَهُمْ حتـى كـأنّي مـن بقايـا التّيـهِ[1]

وتتبدّى له عندها صورة إشبيلية التي يشتد تحسره وبكاؤه على مفارقتها، يقول:

هـذه مـصرُ فـأينَ المغـربُ؟ مُـذ نـأى عنّـي دُمـوعي تَـسكُبُ
أيـن حمـصٌ؟ أيـنَ أيـامي بهـا؟ بعـدها لم ألـقَ شـيئاً يُعجِـبُ

ويقوده ذلك إلى تذكر أيام لهوه وانسه في ربوع إشبيلية:

كـم تقـضّى لي بهـا مـن لِـذَةٍ حيـثُ للنَّهـرِ خريـرٌ مُطـرِبُ
وحمـامُ الأيـكِ تـشدو حولَنـا والمثـاني في ذَراهـا تـصخَبُ
والنـواعيرُ التـي تَـذكارُها بـالنَّوى عـن مهجتـي لا تُـسْلَبُ
بلـدةٌ طابَـتْ وربٌّ غـافرٌ لَيْتَنـي مـا زلـتُ فيهـا أُذْنِـبُ[2]

وكأنما أراد ابن سعيد حينما ربط بين الحديث عن الغربة وبين وصف مجالس اللهو في الأندلس، المقارنة بين حياته المنعمة في الأندلس، وحياته في مصر وما يلاقي فيها من ضنك ومشقة.

ويصف ابن سعيد اضطراره ركوب الحمار من باب زويلة في القاهرة إلى الفسطاط، وينقل هذا المشهد بصورة كاريكاتورية ساخرة، مثيرة للضحك والألم في آن:

لقيـتُ بمـصرَ أشـدَّ البَـوارْ رُكـوبَ الحـمارِ وكُحْـلَ الغُبـارْ
وخلفـي مُكـارٍ يفـوقُ الرِّيـاحَ لا يعـرفُ الرفـق مهـما اسـتطارْ

(1) الإحاطة، 4/ 154-155، النفح 2/ 262..
(2) النفح، 2/ 281.

أُناديـــهِ مَهـــلاً فـــلا يرعـــوي إلى أن سَـــجَدتُ سُـــجودَ العِثـــارْ[1]

ويعرِّض ابن سعيد بهذه الحادثة، حينما يصف ركوبه زورقاً في نهر إشبيلية، حيث تتبدى المفارقة بين البيئتين:

أيـنَ حُـسْنُ النّيـلِ مـن نَهْـرٍ بِهـا كُـلّ نَغْـماتٍ لديـه تطـرِبُ
كـم بـهِ مـن زَوْرَقٍ قـد حلّـهُ قَمَـرٌ سـاقٍ وعـودٌ يُـضرَبُ
كـم ركِبناهـا فلـم تجمَـحْ بنـا ولَكَـمْ مـن جـامِحٍ إذ يُركَـبُ
طَوْعَنـا حيـثُ اتَّجهنـا لم نَجِـدْ تَعَبـاً منهـا إذا مـا نتعَـبُ
قـد أثـارَت عِثْـيَراً يـشبهُهُ نثـرُ سِـلْكٍ فـوقَ بُـسْطٍ يُنْهَـبُ[2]

وقد تركت معاملة المصريين في نفسه أشدَّ الأثر،حينما نظروا إليه كأيّ فرد مغربي، وهو ينتسب إلى أرفع الأسر الأندلسية، وله دوره السياسي والعلميّ المتميز، فقد تعجَّبوا من خطه المغربي، غير آبهين بذكائه، ونباهته وطيب أصله:

هـا أنـا فيهـا فريـدٌ مُهمَـلٌ وكلامـي ولـساني مُعْـرِبُ
وأرى الألحـاظَ تنبـو عنـدما أكتُـبُ الطِّـرسِ أفيـهِ عقـربُ؟
وإذا أحْـسِبُ في الـدّيوانِ لَمْ يـدرِ كُتّـابُهُمْ مـا أحْـسِبُ
وأُنـادَى مغربيـاً ليتنـي لم أكُـنْ للغَـرب يومـاً أُنْـسَبُ
نَـسَبٌ يُـشرَكُ فيـه خامـلٌ ونبيـهٌ أيـنَ منـه المهْـربُ؟
أتـراني لـيس لي جَـدٌّ لـه شـهرةٌ؟ أو لـيسَ يُـدرى لي أبُ؟

عندها يدرك قيمة الوطن الذي فارقه جهلاً كما يقول:

فارَقتـهُ الـنفسُ جهـلاً إنـما يُعـرَفُ الـشيءُ إذا مـا يـذْهَبُ[3]

---

(1) المغرب، القسم الخاص بمصر، 1/ 6، النفح، 2/ 340.
(2) النفح، 2/ 282.
(3) المصدر السابق، 2/ 283.

ويتبدى ضياع آماله ومقاصده حينما يتعذّرُ عليه الحج، يقول شاكياً:

قَــرُبَ المــزارُ ولا زمــانٌ يُــسعِدُ ... كــم ذا أقــرِّبُ مــا أراهُ يبعُــدُ
وا رحمــةً لمتــيَّمٍ ذي غربــةٍ ... ومَــعَ التغــرُّب فاتَــهُ مــا يقــصِدُ
يــا ســائرينَ ليثــربٍ بُلِّغْــتُمُ ... قــد عــاقني عنهــا الزمــانُ الأنكــدُ
أعَلمــتُمُ إن طــرتُ دون محلهــا ... ســبقاً ؟ وهــا أنــا إذ تــدانى مُقْعَــدُ[1]

وكما ضاعت آماله في الحج، فقد ضاع عمرُه في الغربة كما يقول:

إنْ عــادَ لي وطنــي اعترفــتُ بِحقِّــه ... إنَّ التغــرُّبَ ضــاعَ عُمــري فيــهِ[2]

ويظهر ابن سعيد بعد الشكوى المريرة استعداداً لاستعادة مكانته، ويبرر أن ما آل إليه في مصر من ضَعَة، إنما كان لأنه كالأسد خارج عرينه، وكالسيف الذي لا يلام إن وقع في يد جبان، يقول:

فــإنْ كنــتُ في أرضِ التغــرُّب غاربــاً ... فــسوفَ تــراني طالعــاً فــوق غــارِب
فصمــصامُ عمــروٍ حــين فــارق كفَّــهُ ... رمــوه ولا ذنْــبٌ - لِعَجْــز المــضارِبِ
ومــا عِــزَّةُ الــضِّرغامِ إلا عرينُــهُ ... ومــن مكــةٍ ســادتْ لُــؤيٌّ بــنُ غالِــبِ[3]

ثم يثني ابن سعيد عزمه على العودة إلى المغرب، بعد ما وجد أن ما في مصر برق خادع كما يقول:

ســوفَ أثنــي راجعــاً لا غــرَّني ... بعــدما جرَّبــتُ بــرقٌ خُلَّــبُ[4]

وحينما ينتقل ابن سعيد إلى الشام، يدخل شعره مرحلة جديدة، ولا نرى في شعره هذا الأثر الحاد للشكوى، والشعور بالغربة، بل كان شاعراً يعكس إعجاباً وانسجاماً مع

(1) النفح، 2/ 313.
(2) المصدر السابق، 2/ 262.
(3) المصدر السابق، 2/ 267.
(4) المصدر السابق، 2/ 283.

تلك البيئة الجديدة[1]، وربما كان ذلك لشدة التقارب والشبه بين البيئة الأندلسية والبيئة الشامية. بالإضافة إلى ما وجده ابن سعيد من احتفاء به في البيئة الحلبية، واتصاله بالملك الناصر الأيوبي. وسنقف عند وصف ابن سعيد لمدن الشام وبيئاتها في موضعه من الدراسة إن شاء الله.

وشكا الشعراء المرتحلون من الغرب كأثير الدين أبي حيّان، ولكنه لم يصل في شكواه إلى الحد الذي وصل إليه ابن سعيد، فنراه يشكو انعدام الأصدقاء في مصر بعد إقامته فيها عشرين سنة، يقول:

فلـمّا نَنَـلْ منهـا مـدى الـدَّهرِ طـايلاً ولـمّـا نَجـد فـيهم صـديقاً نـوادِدُه

ويعتز بنفسه وبالأندلسيين، من خلال حديثه عن دورهم في إحياء علم النحو وقراءَتهم لكتبه، يقول:

ومـا زالَ منّـا أهـلَ أنـدلسٍ لَـهُ جهابـذُ تُبـدي فـضلَهُ وتناجـدُه
أثـارَ أثـيرُ الغـرب للنَّحـو كامِنـاً وعالجَـه حتـى تبـدَّت قواعِـدُه
إذا مغـربيٌّ حـطَّ بـالثغرِ رَحْلَـهُ تـيقَّنَ أن النحـوَ أخفـاهُ لا حـدُهْ

ثم يتبع هذا لأبيات بالشكوى من خاملي الذهن، الذين نَبُهَ ذكرهم في مصر، ونالوا ما لا يستحقون، بينما كان المغاربة هم الأولى بذلك، لإعطائهم هذا العلمَ حقه:

لقَـدْ أُخِّـرَ التَّـصديرُ عـن مُـستَحقِّهِ وقُـدِّمَ غمـرٌ خامِـدُ الـذكرِ هامِـدُهْ
عَـلا عَقْلَـهُ فـيهم هـواهُ فـما دَرى بـأنَّ هـوى الإنـسانِ للنـاسِ قايِـدُهْ[2]

ويبدو في ذلك متعصِّباً للأندلسيين، فالمشارقة هم الأصل في وضع قواعد هذا العلم، كما أورد في بداية القصيدة مبرزاً دور الخليل وسيبويه وغيرهم، فكيف يرى أن المغاربة أقدر على دراسته واستجلاء مسائله، منكراً دور المشارقة في ذلك؟

---

(1) التفاعل الثقافي، ص267.

(2) الإحاطة، 4/ 55-56. انظر القصيدة كاملة ص50-56. لم ترد هذه القصيدة في الديوان.

ويشتد شوق أثير الدين للأندلس، ويشكو الفرقة والبُعد عنها، يقول:

يـــا فرقـــةً أبـــدلتني بالـــسرور أســـى وأســـهَرَتْ نـــاظراً قـــد طالمـــا نَعِـــسا
أنّـــى يكـــونُ اجـــتماعٌ بـــين مُفـــترِقٍ جـــسمٌ بمـــصرٍ وروحٌ حـــلَّ أندلُـــسا[1]

ويستذكر المرتحلون من المغاربة هذه الأبيات، لأنها تعبّر عن وحشتهم في ديار الغربة، وفقدانهم الوطن، فنرى القلصادي يردد هذه الأبيات في رحلته للمشرق في القرن التاسع الهجري، إذ يقول: «ولما زال عنا وعثاء السفر، حنَّت النفسُ إلى الوطن، وتشوَّفَ الخاطر إلى الظَعَنْ، واستحضر الخيال قول أبي حيان...»[2] ثم يورد الأبي. مما يدلل على استمرارية تأثير الغربة فيهم، واستذكار ما قاله إخوان لهم ارتحلوا قبلهم، وشكوا شكواهم.

ويتردد صدى الشكوى من الانتزاح والبعاد وتمني الاجتماع بالأهل في شعر معظم المرتحلين، من ذلك ما يقوله عيسى بن سليمان الرُّعَيني[3]:

هـــذا كتـــابُ قَـــصيٍّ الـــدارِ مُمـــتَحنٍ بفُرقـــةِ الأهـــلِ والإخْـــوانِ والـــوَطَنِ
يـــشكو البعـــادَ ومـــا قـــد ظَـــلَّ يرمُقُـــه مـــن ســـوءِ فِعْـــلِ النّـــوى في الـــسِرِّ والعَلَـــنِ
فـــالله يجـــبُرُ ثَكـــلي ثـــمَّ يجمعُنـــي قبـــلَ المـــماتِ بمـــن أهـــوى بِـــلا مِحَـــنِ[4]

وكما شكا الشعراء ضياع العمر في الغربة، فقد شكوا فوات المطالب متمنّين عودة الماضي، يقول يحيى بن غانم:

خلـــيليَّ مـــا للوالِـــهِ المتغـــرِّب بأرضِـــكُما قـــد فاتَـــهُ كُـــلُّ مَطْلَـــبِ

(1) ديوان أثير الدين أبي حيان، تحقيق: أحمد مطلوب، وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ط1، 1969، ص224.
(2) رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق: محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1987، ص148.
(3) انظر الملحق، الترجمة رقم (29).
(4) عقود الجمان (مخطوط)، ج5، ورقة 229.

خليليَّ قولا والحديثُ كما حَكَوا شُجوناً ودهري ساخرٌ بكُما وبي
هل الزمنُ الماضي بما قد مضى بِهِ يَعُدْ ولو مِن كُلِّهِ بالتقرُّبِ[1]

ومن الطريف أن الشعراء قد قسّموا حروف الغربة، وجعلوا لكل حرفٍ معنى يشاكل ما في نفوسهم من أسى وغم، وذلك ما ورد عن عيسى بن سليمان الرُّعَيْني مما أنشده إياه عبدالله بن أحمد بن أبي بكر القرطبي[2]:

وحروفُها من كُلِّ بؤسٍ رُكِّبَتْ لِتَعُمَّ من تغشاهُ بالأشجانِ
فالغَيْنُ من غمٍّ وغُبنٍ دائمٍ والرّاءُ من رُزءٍ على الأوطانِ
والباءُ من بُرَحٍ وبَيْنٍ وبِلىً والهاءُ من هَمٍّ وهُلْكٍ دانِ[3]

وقد وردت إشاراتٌ كثيرةٌ للشكوى من ألم البعاد والحنين والشوق للوطن، وقد ارتبط أحياناً بالتوسل بالرسول ﷺ[4]، ولا تخرج في معظمها عن المعاني التي وردت.

لقد امتزجت الغربة بنفوس الشعراء، فعبّروا عنها في كل مواقفهم، وجعلوها مبرراً لكل ما يلاقونه من مصاعب في ديار الغربة، ورسموا لها صوراً صادقة تعبر عما في نفوسهم، وصلت حدّ المبالغة أحياناً، وهذا شأن الغريب.

وصف مدن المشرق، والمظاهر الحضارية فيها

لقد شكا الشعراء من الغربة والانتزاح وفوات المطالب في بلاد المشرق، لكن هل كانوا راضين عن مدنها. والمظاهر الحضارية فيها؟ وما هي الانطباعات التي حملوها عن هذه البلاد؟ وكيف تعاملوا مع مظاهرها الحضارية من جزر وأنهار وبرك وبساتين؟ وما الذي عكسته صفاتها في نفوسهم وما ارتبطت به هذه الصفات مما شاهدوه وعايشوه في

(1) عقود الجمان، ج10، ورقة 20.
(2) ورد ذكره من خلال الحديث عن عيسى بن سليمان الرعيني، حيث عاصره وأنشده، ويرجح من الأخبار أنه من المرتحلين، لكن لم ترد له ترجمة. انظر: عقود الجمان، ج5، ورقت 227-228.
(3) عقود الجمان، ج5، ورقة 228.
(4) انظر: الإحاطة، 2/ 464، الوافي، 2/ 14، النفح، 2/ 609-611.

ديارهم البعيدة في الأندلس؟ وهل وجدت مفارقة بين رأيهم بمدن مصر ورأيهم بمدن الشام؟

لنبدأ بمصر ومدنها ومظاهرها الحضارية، ثم ننتقل إلى الشام، حتى نستطيع أن نخلص إلى المقارنة بين انطباعاتهم عن بعض مدنها.

فابن سعيد يعرض جانبين متباينين في وصفه لمدينة الفسطاط، فقد عاين ما كرهه منها مثل كثرة الغبار الأسود الذي دنَّس ثيابه حينما طار به الحمار في ظلمة الأزقة، وضيق الشوارع، وقد سبق إيراد شعره في ذلك[1] ثم يذكر إدبار المسرة عنه حينما دخلها، وقاسى من ازدحام الناس فيها، وما عاينه من ضيق الأسواق حول مسجدها الجامع، وهذا ضد ما وجده كما يقول في جامع إشبيلية، كما راعه عدم احتشام الناس حينما يأكلون في عدة أمكنة، والصبيان حينما يلعبون في ساحة المسجد ويكتبون على حيطانه، ويأتي للمقارنة مرة أخرى بينه وبين جامع إشبيلية وما فيه من الزخرفة والأناقة، والبساتين في صحنه، إلا أنه كان يصف بصدق شعوره بالارتياح والأنس في جامع الفسطاط، لارتباطه بالصحابة ووقوفهم في ساحته[2].

ومع كل هذه الصور التي لم تعجبه في الفسطاط، إلا أنه وصف مشاهدها، والليلة التي باتها في طيارة وهي نوع من القوارب على جانب النيل، حيث بدت المراكب كأسراب قطا وسط أمواجه الرقراقة الرطبة، يقول:

نزلنا من الفُسطاطِ أحسنَ منزِلٍ ... بحيثُ امتدادُ النيلِ قد دار كالعِقْدِ
وقد جُمِعَتْ فيه المراكِبُ سُحْرةً ... كسِرْب قطاً أضحى يَرِفُّ على وِرْدِ
وأصبَحَ يطفو الموجُ فيه ويرتمي ... ويَطْرَبُ أحياناً ويلعَبُ بالنَّردِ

ثم يصف ماءَه العذب:

حلا ماؤهُ كالرّيقِ ممن أحبُّه ... فمُدَّت عليه حُلَّةٌ من حُلى الخَدِّ

(1) انظر الدراسة، ص79.
(2) انظر المغرب، قسم مصر، ص6-7. النفح، 2/ 340-341.

وقد كانَ مثلَ النهرِ من قبلِ مدِّهِ فأصبحَ لمّا زاده المدُّ كالوَرْدِ[1]

ونراه يعلل وصفه هذا لماء النيل بقوله: «لأني لم أذُقْ في المياه أحلى من مائه، وإنَّه كون قبل المد الذي يزيد به ويفيضُ على أقطارِه أبيض، فإذا كان عبابُ النيل صار أحْمَر»[2].

ويمتدح ابن سعيد أهل الفسطاط باللطافة ولين الكلام، وكثرة المهازحة، ويفضلهم في ذلك على أهل القاهرة[3] دون إيراد شعر له فيهم، لكنه يدلل على ذلك بشعر لأحد معاصريه، وهو أيدُمَر المُحيوي[4]، إذ يقول:

حبّذا الفُسطاطُ من والِدَةٍ جنَّبَتْ أولادَها دارَ الجَفا

يَردُ النيلُ إليها كَدِراً فإذا مازَجَ أهليها صَفا

لَطُفُوا فالمُزنُ لا تألَفُهُمْ خَجَلاً لمّا رأتْهُمْ ألطَفا[5]

وهذا الشعر يعكس رأي ابن سعيد فيهم.

ويفاضل ابن سعيد بين الفسطاط والقاهرة فيرى «أن الفسطاط أكثرُ أرزاقاً، وأرخَصُ أسعاراً من القاهرة، لقرب النيل من الفسطاط، فالمراكب التي تصل بالخيرات تحطُّ هناك ... والقاهرة أكثر عمارةً واحتراماً وحشمةً من الفسطاط، لأنها أجلُّ مدارسَ، وأضخمُ حانات، وأعظمُ دياراً لسكنى الأمراء فيها لأنها المخصوصة بالسلطنة»[6]، لكنه

(1) المغرب، قسم مصر، ص8. النفح، 2/ 342.
(2) المغرب، قسم مصر، 1/ 8، النفح 2/ 342.
(3) المغرب، الخاص بمصر، 1/ 9.
(4) أيدُمر المحيوي: أيدمر بن عبدالله التركي المكنى بعلم الدين، شاعر له قصائد وموشحات، أعتقه يحيى الدين بن ندى، نعته ابن شاكر الكتبي بفخر الترك (ت 674هـ). الفوات، 1/ 208. الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط9، 1990، 2/ 34.
(5) المغرب، قسم مصر، ص9. لم ترد هذه الأبيات في ديوانه.
(6) الخطط، 1/ 367.

لا يستثني القاهرة من المشاهد التي عاين بعضها في لفسطاط من كدرة وزحام وجو مغبر «فتنقبض نفسه، ويفرُّ أنسُه»[1]، ويقول رادّاً على رفاقه الذين يحضّونه على العود إليها:

يقولـــــــونَ ســــــــافِرْ إلى القــــــاهِرَهْ   ومـــــا لي بهـــــا راحَـــــــةٌ ظـــــاهِرَهْ
زِحـــــامٌ وضـــــيقٌ وكـــــربٌ ومـــــا   تُثـــــيرُ بهـــــا أرجُـــــلٌ ســـــائِرَهْ[2]

وقد صور العبدري الزحام فيها بقوله: «والزحام متصلٌ، والطرق غاصة بالخَلق حتى ترى الماشي فيها ما له سوى التحفظ من دَوْس الدَّواب إياه، ولا يمكنه تأمل شيء في السوق، لأن الخلق يندفعون فيها مثلَ اندفاع السيل»[3].

ولا يفوت ابن سعيد المقارنة بينها وبين بلاد المغرب، «فأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة، كثيرة التراب والأزبال، والمباني عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيَّقت مَسْلَكَ الهواء والضوء بينهما، ولم أرَ في جميع بلاد المغرب أسوأ حالاً منها في ذلك»[4]، ولا يخفى ما في هذا الرأي من تعصب ومبالغة.

كما صوّر ابن سعيد تعذر المعايش فيه ونزرتها على لسان أحد شعرائها في القرن السابع الهجري وهو أبو الحسن النور بن سعيد، إذ يقول:

كـــــم ذا تُقـــــيمُ بمـــــصرٍ   مُعـــــــذَّباً بـــــــذويها
وكيـــــف ترجُـــــو نَـــــداهُم   والـــــسُّحْبُ تبخـــــلُ فيهـــــا[5]

وقد نقل عن العبدري في ذلك أن رسولاً من قبل الروم وصل إليها، فأمر الملك أن يدوروا به بعد العصر حتى يرى عمارة البلد، فداروا به فقال لهم: «إن بلدهم هذا

---

(1) الخطط، 1/ 366.
(2) النفح، 2/ 346.
(3) رحلة العبدري، ص128.
(4) الخطط، 1/ 366.
(5) النفح، 2/ 350.

ضعيف»، فقالوا: كيف؟ أو ما ترى المخلوق الذي به[1]. فهو لم يكن يقصد كثرة الناس، بل قلة الموارد وشراء الناس حاجياتهم يوماً بيوم. وفي ذلك قال عنها ابن بطوطة: «إنها محط رحل الضعيف والقادر»[2].

ولا ينسى ابن سعيد وصف مواضعها الحسنة، ولا سيما أرض القُرط[3] والكتّان، يقول:

سقى اللهُ أرضاً كلما زرت روضَها　　كساها وحلاّها بزينتِهِ القُرْطُ
تجلَّتْ عروساً والمياهُ عقودُها　　وفي كل قُطرٍ من جوانِبِها قِرْط[4]

كما وصف الشعراء نهر النيل الذي عُدّ من عجائب الدنيا، لخصوبة أراضيه وكثرة محاسنه[5]، يقول ابن خروف القرطبي معجباً بالجنان التي تحيط به، واصفاً زيادته:

ما أعجَبَ النيلَ ما أحلى شمائِلَهُ　　في ضفَّتيهِ من الأشْجارِ أدْواحُ
من جنّةِ الخُلدِ فياضٌ على تُرَعٍ　　تهُبُّ فيها هبوبَ الرّيح أرواحُ
ليست زيادَتُه ماءً كما زعَموا　　وإنَّما هي أرزاقٌ وأرواحُ[6]

وقال بعض الحكماء عن هذه الزيادة: «لولا ما جَعل الله في نيل مصر من حكمة الزيادة زمن الصيف على التدريج، حتى يتكامَل ري البلاد وهبوط الماء عنها عند بدء

---

(1) رحلة العبدري، ص128.
(2) رحلة ابن بطوطة، 1/ 53.
(3) القُرط: نبات كالرَّطبة إلا أنه أجل منها وأعظم ورقاً، تعلَفُه الدواب. انظر: محمد حسن آل ياسين: مُعجَم النبات والزراعة، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1986، 1/ 481.
(4) النفح، 1/ 346.
(5) الهروي، الإشارات، ص50. الخطط، 1/ 63.
(6) الوافي، 22/ 92. السيوطي: بغية الدعاة في طبقت اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، القاهرة، ط2، 1979، 2/ 204. الأرواح: جمع رَوْح الله، أي رحمته بعبادته. لسان العرب، مادة: رَوَحَ.

الزراعة لفسد إقليم مصر، وتعذّر سكناه، لأنه ليس فيه أمطار كافية، ولا عيونٌ جارية»[1].

ويقارن ابن سعيد بين نهر النيل ونهر إشبلية، إذ تكثر التماسيح في النيل، بينما يُسبَح في نهر إشبيلية دون خوف لخلوه من التيارات والتماسيح:

يا نيلَ مصرٍ أين حمصُ ونهرُها   حيثُ المناظرُ أنجمٌ تَلْتاحُ
في كلِّ شطٍّ للنَّواظِرِ مَسْرَحٌ   تدعو إليه منازهٌ وبطاحُ
وإذا سَبَحْتُ فلستُ أسبحُ خائفاً   ما فيه تيّارٌ ولا تمساحُ[2]

وقد ذكر المقريزي عن كثرة التماسيح وعن فرس البحر التي تعترض المراكب وتلاحق تلك التماسيح وعن الكثير من الأسماك المؤذية[3] التي تعيق السباحة.

ولعل من الطريف أن نورد هنا أبياتاً لأثير الدين أبي حيّان في وصف تماسيح النيل وطبائعها، وطريقة أكلها والتهامها لفريستها، راسماً لها صورة لا تخلو من الرهبة:

وخَلقٍ غريبِ الشَّكلِ في مِصْرَ ناشئٍ   وما هُو في أرضٍ سوى مصْرَ يُوجَدُ
هو السَّبُعُ العادي بِنيلِ صَعيدِها   يقافِصُ[4] من للماءِ في النيلِ يقصِدُ
ويخطفُهُ خطفَ العُقابِ لصيدِها   ويفصِلُهُ عضواً فعُضواً ويَزْرَدُ
وما من شخوصِ النيلِ خلقٌ له يدٌ   ورجلٌ سواهُ وهو في البرِّ يصْعَدُ
لهُ ذَنَبٌ مُرخىً طويلٌ يُقيمُهُ   يَلُفُّ بِهِ من كانَ للناسِ يُفقَدُ
وأسنانُهُ أنثى على ذكرٍ أَتَتْ   لِكسرِ العظامِ الصُّلْبِ منها تفقَّدُ
ويحفرُ في رَملٍ ويدفنُ بيضَهُ   يعاهِدُها غباً إلى حين تولَدُ
ولا تَعْمَلُ الأسيافُ فيه كأنَّما   على جلدِهِ منه صفيحٌ مُسرَّدُ

---

(1) الخطط، 1/ 63.
(2) النفح، 2/ 306.
(3) انظر، الخطط، 1/ 65-67.
(4) يقافص: يشتبك ويجتمع، لسان العرب، مادة (قفص).

ولكــنَّ تحــتَ الإبــطِ لــيِّنُ جلــدةٍ فمنهـــا المنايـــا دونَـــهُ تتـــصعَّدُ
ويقتُلُـــهُ الجـــاموسُ فهـــو إذا دَرى بِــهِ فــرَّ منــهُ وهــو في الــسَّبح يجهَــدُ
ويخدَعُـــهُ الإنـــسانُ حتـــى يـــصيدَهُ ويربطُـــهُ كـــالغنزِ بالحبـــلِ تُـــصْفَدُ[1]

وإذا انتهت زيادة النيل، فتحت منه خلجان وترع[2]، وقد وصف ابن سعيد من هذه الخلجان خليج القاهرة الذي يمرُّ غربيها، وتقع بظاهره مدينة الفسطاط[3]، حيث يبدو الكتّان على جوانبه يرمقه بأحداقه:

أُنظـــر إلى النهـــرِ والكتّـــانُ يرمُقُـــهُ مـــن جانبيـــه بأجفـــانٍ لهـــا حَـــدَقُ
رأتـــهُ ســـيفاً عليـــه للـــصَّبا شُـــطَبٌ فقابَلَتْـــــهُ بأحـــــداقٍ بهـــــا أرَقُ
وأصـــبحتْ في يـــد الأرواحُ تنـــسُجُها حتـى غَـدَت حَلَقـاً مـن فوقهـا حَلَـقُ[4]

لكنه يعرِّض بما يحدث في الخليج في بعض الأحيان من الفواحش والتهكم والمخالفة، حتى إن بعض المحتشمين لا يجيزون عبوره في مركب، ويصفه ابن سعيد مُحذراً من ركوبه في النهار:

لا تـــركبنْ خلـــيجَ مـــصرٍ إلاّ إذا أُسْـــدِلَ الظـــلامُ
فقـــد علمـــتَ الـــذي عليـــهِ مـــن عـــالَمِ كلُّهُـــمْ طَغـــامُ
صـــفّان للحـــربِ قـــد أطـــلاّ ســـلاحُ مـــا بيـــنهِمْ كـــلامُ
يـــا ســـيّدي لا تَـــسِرْ إليـــهِ إلاّ إذا هَـــــوَّمَ النيـــــامُ
والليـــلُ ســـترٌ عـــلى التَّـــصابي عليـــه مـــن فـــضلِهِ لِثـــامُ
لله كـــم دوحـــةٍ جَنَيْنـــا هنـــاك أثمارُهـــا الأثـــامُ[5]

(1) الديوان، ص150-151.
(2) الخطط، 1/ 70.
(3) المصدر السابق، 2/ 139.
(4) النفح، 2/ 347.
(5) الخطط، 1/ 368. النفح، 2/ 349.

وقد أشار المقريزي إلى شيء من ذلك في وصفه للخليج، ووصف ما قاله ابن سعيد بالتحامل[1].

وقد كثرت في القاهرة المتنزهات التي كان الناس يخرجون إليها رغبة في القصف والعزف، ولا يبقى صغيرٌ ولا كبير إلا خرج متنزهاً إلى بركة الحبش، وهي من أشهر برك مصر، يأكلون ويتفكهون وينعمون ويقضون أربهم من النزهة واللهو[2]، وقد خرج ابن سعيد إليها أيام فيض النيل فرأى منها أبهج منظر، ثم زارها أيام غاض الماء وبقيت فيها مقطعات، بين خضر من القُرط والكتان يتفنن الناظر فيها، يقول:

يا بركَةَ الحبشِ التي يَومي بها ... طولَ الزمانِ مُبارَكٌ وسعيدُ
حتّى كأنَّكِ في البسيطةِ جنَّةٌ ... وكأنَّ دهري كلَّهُ بك عيدُ
يا حُسْنَ ما يبدو بكِ الكتّانُ في ... نوّارِهِ أو زرِّهِ معقودُ
والماءُ منكِ سيوفُهُ مسلولَةٌ ... والقرطُ فيك رُواقُهُ ممدودُ
وكأنَّ أبراجاً عليك عرائسٌ ... جُليَتْ وطيرُكِ حولَها غِرّيدُ
يا ليتَ شعري هل زَمانُكِ عائدٌ ... فالشوقُ فيه مُبدئٌ ومُعيدُ[3]

ومما قيل في هذه البركة أنها «ميدانُ رهان، وجنانُ نخل، وبستانُ شَجْر، ومنازك سُكنى .. ونهرٌ عجاج، وأرضُ زرع، ومرتعُ خيلْ وساحِلُ بحر»[4].

وهناك بركة الفيل التي تقع بين مصر والقاهرة، وهي كبيرة جداً، عمر الناس حولها، وأصبح فيها في القرن السابع الهجري مساكن من أعظم مساكن مصر[5]، وقد وصف ابن سعيد جمالها في الليل، حيث بدت بدائريتها كالبدر، والمناظر فوقها كالنجوم، يقول:

---

(1) الخطط، 2/ 368.
(2) المصدر السابق، ص2/ 152، 155.
(3) المغرب، قسم مصر، ص10.
(4) الخطط، 2/ 153.
(5) المصدر السابق، 2/ 164.

أنظـرُ إلى بِركـة الفيـل التـي اكتَنَفـتْ بهـا المنـاظرُ كالأهـداب للبَـصَرِ
كـأنما هـي والأبـصارُ ترمُقُهـا كواكـبٌ قـد أداروهـا عـلى القَمَـرِ[1]

أما حينما قابلتها الشمس بالغدو، فقد غدت في صورة أخرى، يقول:

أُنظـر إلى بركـةِ الفيـلِ التـي فَجَـرتْ لهـا الغزالَـةُ فجـراً مـن مطالِعِهـا
وخـلِّ طَرْفَـكَ مجنونـاً ببَهجتهـا يهـيمُ وجـداً وحُبّـاً في بـدائِعِها[2]

ومن المتنزهات الأخرى، جزيرة الروضة الصالحية، وهي متنزّه ملوكي، قد أنشأه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وفيها القلعة المشهورة بقلعة الروضة أو قلعة الجزيرة، وقد أصبحت في زمانه تثير الإعجاب، لكثرة زخرفتها، وحسن سقوفها المزينة، وبديع رخامها[3]، وقد وصف ابن سعيد حسن هذه الجزيرة وقلعتها، ومعانقتها للنيل، إذ يقول:

تأمَّـل لحُـسنِ الـصالحيَّةِ إذ بَـدَتْ مناظرُهـا مثـلَ النجـوم تَـلالا
وللقلعـةِ الغـرّاءِ كالبـدرِ طالعـاً تفجَّـرَ صـدرُ المـاءِ عنـه هِـلالا
ووافى إليهـا النيـلُ مـن بعـد غايـةٍ كـما زارَ مـشغوفٌ يـرومُ وِصـالا
وعانقهـا مـن فـرطِ شَـوْقٍ بحُـسنِها فمـدَّ يمينـاً نحوهـا وشِـمالا
جـرى قادمـاً بالـسَّعدِ فـاختطَّ حولهـا مـن الـسَّعدِ إعلامـاً بـذلكَ دالا[4]

لقد كان ابن سعيد في وصفه للفسطاط والقاهرة وما فيهما من أتربة وغبار وشوارع ضيقة، أو ما فيهما من متنزهات وخلجان وبرك، شديد الملاحظة أميناً دقيقاً، وكان منفتح العين على العادات والتقاليد والطبائع، ولا تفوته الطرفة وخفة الروح في وصف البلد

(1) الخطط، 2/ 367. النفح، 2/ 347.
(2) المصدران السابقان نفسهما. وفي الخطط: نحرت لها الغزالة نحراً.
(3) انظر الخطط، 2/ 181-183.
(4) النفح، 2/ 269-270.

وأحوال أهله[1]، مقارناً بين مشاهداته في مصر، ومشاهداته في المغرب.وقارن غيره من الشعراء بين مصر وبلاد المغرب، مفضلين مدنهم على ما فيها من أحوال مضطربة، فقد فضّل ابن عتبة اشبيلي الرجوع إلى إشبيلية على الرغم مما فيها من الأحوال المتردية وثورة ابن هود، لما عاينه في مصر من أشغال النصارى واليهود في الدولة[2]، يقول شاكياً:

أصـــــبحتُ في مـــــصرَ مُستــــضاماً   أرْقُــــــصُ في دَوْلَــــــةِ القـــــرودِ
وا ضـــــيعةَ العمــــــرِ في أخــــيرٍ   مــــــع النـــــصارى أو اليهـــــودِ
بالجِــــدِّ رزقُ الأنـــــامِ فـــــيهم   لا بـــــــذواتٍ ولا جـــــدودِ
لا تُبـــصرُ الـــدهرَ مـــن يُراعـــي   معنـــــى قـــصيدٍ ولا قَـــصودِ
أود مـــــن لـــــؤمِهِمْ رُجوعــــاً   للغَــــرْبِ في دولـــةِ ابـــن هـــودِ[3]

أما وصف الشعراء المرتحلين لمدن الشام، فقد نحا الشعراء فيه منحىً آخر تختلف فيه إحساساتهم عند مشاهداتهم لما في مصر، في العديد من الجوانب. فحينما كان ابن سعيد على سبيل المثال يذكر نيل مصر ويصفه فإنه كانَ لا ينسيه نهر إشبيلية، إلا أنه حينما رأى العاصي على اختلاف ما بين النيل والعاصي من حيث الامتداد والجمال، نسي نهر إشبيلية وتفاعل مع هذا النهر ونواعيره في حماة، وأصبح هذا المشهد ممتزجاً بنفسيته وهواه، فقد غدا عاصياً مثله، ويغلب النواعير رقصاً، واصفاً حماة وجمال خمائلها، حيث يحلو اللهو والقصف:

حمـــى الله مـــن شَـــطّيْ حمـــاةَ منـــاظراً   وقفـــتُ عليـــا الـــسَّمْعَ والفِكـــرَ والطرفـــا
تُغنّـــــي حمـــــامٌ أو تميـــــلُ خمائـــــلٌ   وتَزهـــى مبـــاهٍ تمـــنَحُ الواصـــفَ الوَصـــفا
يلومـــونَ أن أعـــصي التـــصوُّنَ والنُّهـــى   بهـــا وأطيـــعَ الكـــأسَ واللهـــو والقـــصفا

---

(1) محمد عبدالغني حسن: ابن سعيد المغربي، المؤرخ - الرحالة - الأديب، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ص127.
(2) اختصار القدح المعلّى، ص164.
(3) المصدر السابق، ص164.

إذا كــانَ فيهـا النهــرُ عــاصٍ فكيــف لا أحاكيـــهِ عِـــصياناً وأشربُهـــا صِرفـــا
وأشـــدو لـــدى تلـــك النـــواعير شَـــدْوَها وأغلبُهـــا رَقـــصاً وأشـــبهُها عَزفـــا[1]

كما يصف ابن الجنّان الشاطبي حماة ونهرَها العاصي الذي لا يطيع إلا النسائم العليلة:

نهرُهـــا العـــاصي تنـــدّى مُطيعـــاً حيـــثُ مـــالَ النـــسيمُ أضـــحى يميـــلُ
ومُحيّـــا الحبيـــب شمـــسيَ فيـــهِ ووجـــوهُ العـــشاقِ فيـــه أصـــيلُ
وعليـــلُ الـــسقامِ فيـــه صـــحيحٌ وصـــحيحُ النـــسيمِ فيـــه عليـــلُ[2]

ولعل الشبه الكبير بين الشام والأندلس، كان له أثرٌ في التعلق بمدن الشام والحنين إليها، والاستئناس بها، كما أن معاملة أهل الشام للمغاربة وإحساسهم بطبيعتهم في حب الجمال، كان عاملاً رئيساً في حب أهل الأندلس للشام وأهله، من ذلك ما يرويه ابن سعيد عن كمال الدين بن العديم رئيس الأصحاب بحلب بقوله: «ولما وصلتُ معه إليها، أنزلني في دار ببستان ماءٍ جارٍ، وقال لي: أنت أندلسي، وقد عرفت أن دياركم لا تخلو من هذا»[3].

وقد أصبحت حلب ملاذ ابن سعيد وقبلة أشواقه، وليست مفراً للحنين إلى الوطن البعيد، كما كان حاله في مصر، يقول:

حـــادي العـــيسِ كـــم تُنـــيخُ المطايـــا سُـــقْ فروحـــي مـــن بعـــدِهم في ســـياقِ
حَلَـــبٌ إنَّهـــا مقـــرُّ غرامـــي ومَرامـــي وقبلـــةُ الأشـــواقِ

---

(1) النفح، 2/ 326.

(2) اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد: ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، الدكن، الهند، ط1، 1961، 2/ 202.

(3) المقتطف من أزاهر الطُرَف، تحقيق: سيد حنفي حسين، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1983، ص199-200.

كــــم بِهـــا مرتـــعٌ لطـــرفٍ وقلـــبٍ   فيـــه يُـــسقى المُنـــى بكـــأسٍ دِهـــاقِ[1]

وقد حلّت في قلوب المرتحلين إليها، كما يقول الفتح بن حماد:

هـــي في القلـــب لا بـــل القلـــبُ فيهـــا   جَمَـــعَ اللهُ بـــين قلبـــي وعينـــي[2]

وتصفو في حلب نفس ابن خروف القرطبي، إذ يقول:

حلبـــــتُ الـــــدهرَ أشـــــطُرَهُ   وفي حَلَـــــبٍ صـــــفا حَلَبـــــي[3]

كما أعجب المرتحلون بدمشق، لشبهها بمدن الأندلس ببساتينها الأنيقة، وبركها العميقة، وبحيراتها الممتدة، وجداولها الرقراقة وغصونها المتمايلة[4]، حيث تغريد الأطيار، وحفيف الأشجار، يقول أحمد بن مُفرِّج الإشبيلي[5]:

خَـــيِّمْ بجلَّـــقَ بـــين الكـــأسِ والـــوَتَرِ   في جنَّـــةٍ هـــي مـــلءُ الـــسَّمْعِ والبَـــصَرِ
ومتِّـــعْ الطَّـــرفَ في مـــرأى محاسِـــنِها   تـــروضُ فكـــرَكَ بـــينَ الـــرَّوضِ والزَهَـــرِ
وانظـــر إلى ذهبيّـــاتِ الأصـــيلِ بِهـــا   واســـمَعْ إلى نغـــماتِ الطـــيرِ في الـــشَجَرِ[6]

ويطنب ابن سعيد في وصف محاسنها التي ملأت الخواطر، يقول:

وإنّي لـــو نظـــرتُ بـــألفِ عـــينٍ   لمـــا اســـتَوْفَتْ محاسِـــنَها العيـــونُ[7]

ويجد فيها وطنه الذي يستطيع الغريب مثله أن يبني به، يقول:

---

(1) النفح، 2/ 326.
(2) ذيل مرآة الزمان، ط1، 1955، 2/ 329. الكتبي، محمد بن شاكر: عيون التواريخ، تحقيق: د. فيصل السامر ونبيلة عبدالمنعم، دار الرشيد للنشر، العراق، 1980، 20/ 328.
(3) رايات المبرزين، ص138. الغصون، ص138. المغرب، 1/ 138.
(4) مسالك الأبصار الخاص بمصر والشام، ص113.
(5) انظر الملحق، الترجمة رقم (4).
(6) اختصار القدح، ص181. الإحاطة، 2/ 213.
(7) اختصار القدح، ص181.

أمّــــا دمــــــشقُ فجنَّـــــــةٌ   يبنـــي بهـــا الـــوَطَنَ الغريـــبْ[1]

على حين وجدنا ابن سعيد في مصر، تتوحش ألحاظه، وتتباعد الألفة بينه وبين الوجوه. ثم يصف يوم السبت الذي اختصه أهل دمشق للغناء واللهو واللعب حيث لا مثرِّب فيها ولا منتقد ولا منغص، يقول:

لله أيّـــــامُ الــــــسُّبوتِ بهـــــا   ومنظرُهـــــا العجيـــــبْ
أنظـــر بعينـــكَ هـــل تـــرى   إلاّ محبّـــــاً أو حبيـــــبْ
كـــلٌّ يبلِّـــغُ نفـــسَهُ   مـــا تـــشتهي مرحـــاً وطيـــبْ
أرضٌ خَلَـــتْ ممَّـــن يـــنغِّصُ   أو يراقِـــبُ أو يعيـــبْ[2]

ويصف من رياضها روضةً تلوَّنت أزهارُها بعد أن روّاها السحابُ بمائهْ:

لله مـــن أقطـــارِ جلَّـــقَ روضـــةٌ   راقـــتْ لنـــا حـــين الـــسَّحابُ تُـــراقُ
وتلوَّنـــت أزهارُهـــا فكأنَّهـــا   نزلَـــتْ بهـــا الأحبـــابُ والعـــشّاقُ[3]

ويصور ابن الجنّان جنَّة أخرى على أحد أنهار دمشق، الذي ترقصه النسائم العليلة، وتميلُ عليه الأغصان[4].

وتصفو النفس في دمشق، حيث الأدواح المتنوعة، والأرواح المتضوِّعة والغوطة الغنّاء، فيكتمل النعيم كما يقول ابن سعيد:

أمـــا دمـــشقُ فـــما في الأرضِ مُـــشبِهُها   جنّـــاتُ عـــدنٍ بهـــا مـــا يـــشتهي البَـــشَرُ
بهـــا النعـــيمُ غـــدا للنـــاسِ مكـــتملاً   مُطـــوَّلاً وهـــو في الآفـــاق مختـــصرُ
القـــضبُ راقـــصةٌ والطـــيرُ صـــادِحَةٌ   والنـــشرُ مرتفـــعٌ والمـــاءُ منحـــدِرُ

---

(1) الغصون، ص143.
(2) المصدر السابق، ص143-144.
(3) الفوات، 3/ 104. الوافي، 22/ 255.
(4) انظر اختصار القدح، ص208.

وقـــد تجلَّـــتْ مـــن اللـــذّات أوجُهها لكنّهـــا بظـــلال الـــدَّوح تـــستَتِرُ[1]

ويتشوق أحمد الشريشي[2] وهو بمصر إلى الشام ومغانيها وسفوحها، وكأنه الحنينُ إلى الأندلس وطنه الأول، يقول:

يـا جيرةَ الـشّامِ هَـلْ مـن نحـوِكُمْ خَـبَرُ فـإنَّ قلبـي بنـارِ الـشوقِ يـستَعِرُ
بَعُـدْتُ عـنكُمْ فـلا والله بعـدَكُمُ مـا لـذَّ للعـين لا نـومٌ ولا سَـهَرُ
إذا تـذكَّرْتُ أوقاتـاً نـأَتْ ومـضت بقـربِكُم كـادت الأحـشاءُ تنفطِـرُ
كـأنني لم أكُـنْ بـالنيربَيْنِ[3] ضُـحىً والغـيمُ يبكـي ومنـهُ يـضْحَكُ الزَهَـرُ
والـسَّفحُ أيـنَ عَـشيّاتي التـي سَـلَفَتْ لي منـهُ فهـي لَعَمـري عنـديَ العمُـرُ[4]

وعلى شدة إعجاب الشعراء المرتحلين بمدن الشام، إلا أن المادة الشعرية، التي بين أيدينا، تُعدُّ قليلة إذا ما قورنت بما نقله المؤرخون والرحالة عنها، لكنها على قلّتها تؤكد إعجاب الشعراء المرتحلين بمدن الشام، وصفو نفوسهم فيها، واستيلائها على طبائعهم، وندرة حديثهم عن الغربة وشكواهم منها.

المجالس والمطارحات والمساجلات والمعارضات الأدبية بين الشعراء المرتحلين والشعراء المشارقة

لعل هذا الموضوع من أهم الموضوعات التي تعكس مدى التفاعل الأدبي بين الشعراء الأندلسيين المرتحلين والشعراء المشارقة، والذي تشهد به تلك اللقاءات في المجالس الأدبية بشقيها المجالس الأدبية في حضرة الملوك ومنادمتهم، والمجالس الأدبية التي يتحاور فيها الشعراء على سبيل المشاركة والمطارحة.

(1) الغصون، ص144. الفوات، 3/ 104. الوافي، 22/ 256.
(2) انظر الملحق، الترجمة رقم (1).
(3) النَّيْرَبين (النَّيْرب): قرية مشهورة بدمشق وسط البساتين. معجم البلدان، 5/ 330. وهي الآن القسم الغربي من أقسام الصالحية. ديوان ابن عنين، تحقيق: خليل مردم، دار صادر، بيروت، ط2، 1959، ص11، الحاشية رقم 2.
(4) النفح، 2/ 116.

فقد قرب السلاطين الشعراء والأدباء، وأحاطوهم بالرعاية، وشاركوهم أحياناً، ولعل أبرز الملوك الذين كان لهم دور في تنشيط الحركة الأدبية، الملك الناصر الأيوبي، الذي كان يحاضر الأدباء والفضلاء، وكان للشعر شأن كبير في أيامه[1]، يشهد بذلك ما ورد عن علاقته بابن سعيد وبغيره من الشعراء، فحينما ارتحل ابن سعيد بصحبة كمال الدين ابن العديم إلى حلب، ودخل على الملك الناصر، أنشد ابن سعيد القصيدة التي أولها:

جُـدْ لي بـما ألقـى الخيـالُ مـن الكَـرى   لا بُـدَّ للـضَّيْفِ المُلـمِّ مـن القِـرى[2]

فقال كمال الدين، «هذا رجل عارف، ورّى بمقصوده من أول كلمة»[3]. واختار الناصر له لقباً يليق بحسن صوته، وهو البلبل، متبعاً إياه بالخلع الملوكية والأعطيات والأرزاق[4].

وفي بلاط الناصر، التقى ابن سعيد بشخصيات علمية وشعرية، كابن العديم، والشهاب التلَّعْفري[5]، وعون الدين ابن العجمي[6]، والتاج ابن شُقير[7]، والشرف

(1) الفوات، 4/ 362.
(2) النفح، 2/ 272.
(3) المصدر السابق نفسه.
(4) المصدر السابق، 2/ 273.
(5) الشهاب التلعفري: محمد بن يوسف الشيباني، نسبته إلى (تل أعفر) بين سنجار والموصل، سافر إلى دمشق، كان من شعراء الأشرف موسى، اتصل بالملك الناصر الأيوبي، كان يستجدي بشعره ويقامر، توفي سنة (675هـ). انظر، معجم البلدان، 2/ 39. والفوات، 4/ 62.
(6) عون الدين ابن العجمي: سليمان بن عبدالمجيد بن حسن، الأديب الحلبي البارع، وُلد سنة (606هـ)، كان مترسلاً شاعراً، ولي الأوقاف بحلب، تقدم عند الملك الناصر، توفي سنة (656هـ)، انظر: الفوات، 2/ 66-67. الوافي، 15/ 399.
(7) التاج ابن شقير: نصر الله بن عبدالمنعم التنوخي، أديب من رجالات الحديث، ولي وقف العادلية بدمشق، توفي سنة (673هـ)، انظر: الفوات، 4/ 186. ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم تاريخ ابن الفرات، تحقيق: قسطنطين زريق، جامعة بيروت، 1942، 7/ 37. الشذرات، 5/ 341.

سليمان الإربلي[1] وطائفة أخرى[2].

وجمع ابن سعيد للملك الناصر كتاب (ملوك الشعر) ذاكراً فيه مكانة الشعراء، وخاصة الشهاب التَلَّعفري الذي حظي بمكانة خاصة في هذا المجلس[3]. كما امتدحه بقصائد كثيرة، بلغت أبياتها خمسة آلاف ورفعها إليه، راغباً في أن يترك سراحه للحج، فأنعم عليه، وأمر له بخلعة لم يكن معها زاد، فكتب إليه:

يا أيُّها الملكُ الذي	نَفَعَ الزمانُ به وضرّ
أهديتَ لي التشريفَ لكن دونَهُ زادُ السّفَرْ	
فكأنّما أهديتَ لي	فصلَ الربيع بلا مَطرْ

وحينما عاد من الحج، أحس بالضيق، وأراد العود إلى المغرب، فكتب للناصر العديد من المقطعات، لكنه لم يستجب، إلى أن حضر مجلسهُ وأنشد مستعطفاً:

بالله يا أكْرَمَ مَنْ قد رأَتْ	عينايَ بالمغرب والمَشْرِقِ
أنظُرْ لقولي منصفاً مُفكِراً	حيناً وعوِّق بَعدُ أو أطْلِقِ
قضَيْتُ خيرَ العُمْر في أرضكُم	فمتِّعوا أهلي بما قد بقي

فارتاح وظهر منه الحنان، وقال لأميره جمال الدين بن يغمور[4]، «صَدق، يُسرَّح بما يكفيه من الإحسان»[5].

---

(1) الشرف سليمان الإربلي: سليمان بن بنيمان بن أبي الجيش شرف الدين، شاعر محسن له شعر ونوادر ومدائح في الملك الناصر، توفي (686هـ). انظر: الفوات، 2/ 57. الوافي، 15/ 356. النجوم الزاهرة، 7/ 372-373. الشذرات، 5/ 395.

(2) النفح، 2/ 273.

(3) المصدر السابق، 2/ 295.

(4) جمال الدين موسى بن يغمور، سمع الحديث، وتنقّل في أعمال الولايات، مثّل نيابة السلطنة في القاهرة ودمشق، كان جواداً ممدحاً، وله ألّف ابن سعيد (رايات المبرزين وغايات المميزين)، وكان شاعراً، توفي سنة (663هـ). انظر: المغرب، الخاص بمصر، ص301. النجوم الزاهرة، 7/ 218-219.

(5) انظر الحادثة والأبيات في اختصار القدح، ص7-8.

كما كان له اتصال بالملك المعظم تورانشاه بدمشق، وقد دخل مجلس خلوته، وتعاف معه حينما قتل في حصن كَيْفا[1] كما مرّ[2].

قد تجري في مجالس الملوك، مطارحات بينهم وبين الشعراء، من ذلك ما وقع بين ابن دحية والملك الكامل الأيوبي، حيث كتب له ابن دحية قصيدة ابتدأها بمقدمة غزلية، ثم يمتدح صفاته، إذ يقول:

مالي أسائِلُ برق بارِق عنكمُ	من بعد ما بعُدَتْ دياري منكُمُ
والعَذْل بالملِكِ الهُمام محمدٍ	بادي المنارِ لكلِّ من يتظلَّمُ
عزِّ الملوكِ الكاملِ الشرفِ الذي	لعلائِهِ السبعُ الكواكِبُ تخدُمُ[3]

فكافأه السلطان مجيباً إياه بنظم يبتدئه بمقدمة غزلية أيضاً:

وهيَّجن شوقي للأجارِعِ باللِّوى	وأينَ اللّوَى منّي وأينَ الأجارِعُ
رعى اللهُ أيّاماً ولَوْ أنَّها	إليَّ وقد ولّى الشبابُ رَواجِعُ[4]

ثم يُثنّي بالإجابة على أبيات ابن دحية نثراً، مميزاً إيّاها بالحسن والصفاء بقوله: «الحمد لله وليّ الحمد ... وليس من البديع أن يقذفَ البحر دُرّاً، أو ينظم الخليل شعراً، وقد أخذت الورقة لأتنزّه في معانيها، وأستفيدَ بها أودعه فيها، فالله تعالى لا يخلينا من فوائد فكرته، وصالح أدعيته والسلام»[5].

ويرد الحافظ ابن دحية على الأبيات مستخدماً القافية والبحر نفسيهما، بقصيدة يكثر فيها من التغزل، يقول:

---

(1) حصن كَيْفا: ويقال كَيْبا، وهي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر، وكانت ذات جانبين، وعلى دجلتها قنطرة عظيمة. معجم البلدان، 2/ 265.

(2) انظر الدراسة، ص68.

(3) عنوان الدراية، ص272، 273.

(4) النفح، 2/ 101.

(5) عنوان الدراية، ص275. النفح، 2/ 101.

شـجتني شـواجٍ في الغُـصُونِ سـواجعُ ففاضَـتْ هـوام للجفـونِ هوامـعُ
ومـا محنتـي في الحـبِّ غـيرُ عزيـزةٍ هـي البـدرُ في ليـل النوائِـبِ طـالعُ

ثم ينتقل إلى مدح الملك الكامل مشيداً بفضائله الحربية والخُلقية:

يـدافعُ عنـي الـضيمَ قـائمُ سـيفِهِ إذا عـزَّ مـن للـضيمِ عنّـي يُـدافعُ
كتائبُـهُ منـصورةٌ بكتائِـب مـن المـلأ الأعـلى وجبريـلُ وازعُ
وتُفـتحُ قـسطنطينةٌ وقِلاعُهـا يتـاحُ لهـا أمـرٌ مـن الله قـالعُ
ومنْـكَ عيـونٌ للمَهـمّاتِ يُقَّـظٌ وعنـكَ عيـونُ الحادِثـاتِ هواجـعُ[1]

لئن كانت الأبيات السابقة على صورة المطارحة والمساجلة، لكنها تبين إعجاب ابن دحية بالملك الكامل، ومطارحته له على سبيل المدح والإشادة، من الشاعر إلى السلطان، لذلك عُدَّت من باب المنادمة.

أما المجالس الأدبية الأخرى، فقد كان الشعراء الأندلسيون يجتمعون فيها بشعراء مصر وشعراء الشام، ويشتركون في نظم الشعر أو إجازته، وعكست هذه اللقاءات، ما تميزت به العلاقات بين الشعراء من مودة لا تخلو في بعض الأحيان من التنافس الذي قد يصل درجة من العداء والمشاتمة، في القليل النادر منها.

وكان الشعراء المرتحلون يجتمعون مع شعراء المشارقة في المتنزهات وعند البرك والأنهار، فحينما دخل ابن سعيد القاهرة «صنع له أدباؤها صنيعاً في ظاهرها، وانتهت بهم الفرجة إلى روضة نرجس»[2] وكان هذا المجلس يضم من شعراء المشارقة أبا الحسين

(1) انظر القصيدة: عنوان الدراية، ص275-278.
(2) الإحاطة، 4/ 155.

الجزّار[1]، ونجم الدين بن إسرائيل الدمشقي[2]، وابن أبي الأصبع[3]، ومشى أحدهم على بسيط نرجس، فقال ابن سعيد ارتجالاً:

يـــا واطِــئَ النـــرجِسِ مـــا تـــستحي   أنْ تَطَـــــأَ الأعــــيُنَ بالأرْجُـــــلِ

فتهافتوا بهذا البيت، وراموا إجازته، فقال ابن أبي الأصبع:

فقلـــــت دعنــــي لم أزَلْ مُحْرَجــــاً   عــــلى لِحــــاظ الرشــــأ الأكْحَـــلِ

وكان أمثل ما حضرهم، ثم أبوا أن يجيزه غير ابن سعيد فقال:

قابِـــــلْ جفونــــاً بجفـــونٍ ولا   تبتَـــــذِلْ الأرْفَـــــعَ بالأســــفَلِ[4]

ثم استدعاه سيف الدين بن سابق[5]، صاحب الأشغال السلطانية إلى مجلس بمصر بضفة النيل مبسوط بالورد. وقد قامت حوله شمامات نرجس فقال في ذلك، مفضلاً الورد:

مــن فــضَّلَ النــرجسَ فهــو الــذي   يـــرضى بحكـــم الـــوردِ إذْ يـــرأسُ
أمــا تـــرى الـــوردَ غـــدا قاعـــداً   وقـــام في خِدْمَتِـــهِ النَّـــرجِسُ

---

(1) أبو الحسين الجزّار: يحيى بن عبدالعظيم، شاعر مصري ظريف كان جزاراً بالفسطاط، أوصله شعره إلى السلاطين والملوك، كانت بينه وبين السِّراج الوراق مداعبات، توفي سنة 679هـ. انظر: المغرب، القسم الخاص بمصر، ص296-297. الفوات، 4/ 277-293.

(2) نجم الدين بن إسرائيل: محمد بن سوار بن إسرائيل، ولد بدمشق سنة 603هـ، كان مليح النظم رائق المعاني، توفي بدمشق سنة 677هـ. الفوات، 3/ 383. العبر، 3/ 336.

(3) ابن أبي الأصبع: عبدالعظيم بن عبدالواحد بن ظافر بن أبي الأصبع العدواني البغدادي ثم المصري الشاعر، من العلماء بالأدب، وُلد بمصر سنة 595هـ، توفي بها سنة (654هـ). الفوات، 2/ 363-364. النجوم الزاهرة، 7/ 37.

(4) انظر الحادثة والأبيات، الإحاطة، 4/ 155، النفح، 2/ 269.

(5) سيف الدين بن سابق: أبو الحسن علي بن عمر بن قزل المعروف بالمشدّ، كان يتولى الأعمال في الدواوين بمصر والشام، توفي سنة 656هـ. المغرب، الخاص بمصر، ص260. الفوات، 3/ 51.

«ووافق ذلك مماليك الترك وقوفاً في الخدمة على عادة المشارقة فأطرب الحاضرين»[1]. كما لقي ابن سعيد في مصر أيدُمَر المُحيي، والبهاء زهير[2]، وجمال الدين ابن مطروح[3]، وجمال الدين موسى بن يغمور[4].

وقد أشاد ابن سعيد بطريقة البهاء وشعره بقوله: «وحملني الشَغفُ بطريقة هذا الرجل، على حفظ ما يرد من شعره على أفواه الواردين من المشرق، إلى أن جمع الله بيني وبينه بالقاهرة حاضرة الديار المصرية»[5] وانفعل أشد الانفعال في مقطوعة زهير التي أنشده إياها، ومنها:

رُويدَكَ قَدْ أفنيتَ يا بينُ أدْمُعي ... وحسبُكَ قد أحرقْتَ يا وجدُ أضلُعي
إلى كم أقاسي لَوعةً بعد لوعةٍ ... وحتّى متى يا بينُ أنتَ مَعي مَعي
رعى اللهُ ذاكَ الوجْهَ حيثُ توجَّهوا ... وحيَّتهُ عنّي الشمسُ في كُلِّ مطْلَعِ[6]

ثم تبادلا الحديث حول طريقة المغاربة وطريقة المشارقة في استخدامهما الألفاظ والمعاني، واستشهد البهاء لابن سعيد بأمثلة على طريقة المغاربة من شعر بعض شعرائهم، كابن خفاجة وابن زيدون، وعلى طريقة المشارقة من شعر بعض شعرائهم[7]. وسنقف

---

(1) انظر الحادثة والأبيات، الإحاطة، 4/ 155. النفح، 2/ 272. وقد وجدت الأبيات في مسالك الأبصار (مخطوط) شريط رقم 1529. الجامعة الأردنية، ج8، ق2، ورقة 387.

(2) البهاء زهير، بهاء الدين أبو الفضل الأزدي المهلبي ثم القوصي المصري الشاعر، ولد سنة (581هـ)، وتوفي سنة 656هـ، وله شعر عذب. البداية والنهاية، 13/ 224.

(3) ابن مطروح: جمال الدين يحيى بن عيسى، شاعراً كيِّساً، استنابه الملك الصالح على دمشق، مدح الناصر داود صاحب الكرك لما استعاد القدس، توفي بمصر سنة (650هـ). انظر: وفيات الأعيان، 6/ 258-260. البداية والنهاية، 13/ 194-195.

(4) النفح، 2/ 272.

(5) الوافي، 14/ 232.

(6) ديوان البهاء زهير، دار صادر ودار بيروت، بيروت 1964، ص195.

(7) انظر الوافي، 14/ 233-235.

عند هذه المقارنة في الجزء المتعلق بالتأثر والتأثير من الفصل الفني. كما أعجب ابن سعيد بشعر أبي الحسين الجزّار وعلى وجه الخصوص في المقطوعة التي يقول فيها:

مَـــنْ منـــصِفي مـــن مَعْـــشرٍ كَثُـــروا عـــليَّ وكثَّـــروا
صـــادَقتهُمْ وأرى الخـــروج مـــن الـــصداقةِ يعـــسُرُ
كـــالخَطِّ يـــسهُلُ في الطـــروسِ ومحـــوُهُ متعـــذِّرُ
وإذا أرَدْتَ كَـــشَطتُهُ لكـــنَّ ذاكَ يـــؤثِّرُ

وابن سعيد بمقاييسه النقدية الخاصة، يصف هذه المقطوعة بأنها تحتوي على المعنى الغريب، الذي فاق ما لابن الرومي وأبي تمام[1]. وفي ذلك مبالغة، وحكم نقدي مبني على المجاملة.

والتقى أثير الدين مع ابن بنت الأعزّ[2] في جزيرة الروضة، فكتب إليه ووجههُ مع بعض غلمانه، إذ يقول مشيداً بأثير الدين وغلامه:

حيَّيْــتُ أثــيرَ الــدّينِ شــيخَ الأدَبــا أقــضي لــه حقــاً كــما قــد وَجَبــا
حيَّيْــتُ فتــىً بطــاقِ آسٍ نــضِرٍ كالقــدِّ بــدا ملئــتُ منــه طَرَبــا[3]

فأنشده أبو حيان، مضمناً شعره بعض الألفاظ التي وردت في قوله، ومشيداً ببأسه وجوده:

أهــدى لنــا غُــصُناً مــن نــاضِرِ الآسِ أقـضى القُـضاة حليـفُ الجـودِ والبـاسِ
لمّــا رأى ســقمي أهــداه مــع رشــأ حلــو التثنّــي فكــانَ الـشافيَ الآسي[4]

(1) انظر الأبيات والخبر في المغرب، الخاص بمصر، 1/ 317.
(2) ابن بنت الأعزّ: علاء الدين ابن بنت الأعز، من أدباء القاهرة، تولى الحسبة فيها، قدم دمشق وتولى التدريس في الظاهرية، ثم عاد إلى مصر وأقام بها حتى وفاته سنة (699هـ). الفوات، 1/ 106-107.
(3) النفح، 2/ 578.
(4) الديوان، ص236.

كما تطارح أثير الدين والبهاء زهير، والشهاب العزازي[1] الشعر في صبي مصارع يدعى جمال، فنظم فيه زهير قوله:

مُصارعٌ تصرَعُ الآسادَ شَمرَتُهُ ... تيهاً فكلّ مليح دونَهُ سَمِجُ
لمّا غدا راجحاً في الحُسنِ قلتُ لهُم ... عن حسنِهِ حدِّثوا عنهُ ولا حَرَجُ

ونظم أثير الدين:

سباني جمالٌ من مَليحٍ مُصارِعٍ ... عليه دليلٌ للملاحَةِ واضحُ
لئِنْ عزَّ منه المِثلُ فالكُلُّ دونَهُ ... وإن خفَّ منه الخَصرُ فالرِّدفُ راجِحُ[2]

أما العَزازي فقد أنشد حينما سمع النظم:

هَلْ حَكَمٌ يُنْصفني في هَوى ... مُصارِعٍ يَصْرَعُ أُسْدَ الشَرى
مُذْ فرَّ عنّي الصَّبرُ في حبِّهِ ... حكى عليه مَدمعي ما جرى
أباحَ قتلي في الهوى عامِداً ... وقالَ كم لي عاشقٍ في الوَرى
رميتُهُ في أسرِ حبّي ومِنْ ... أجفانِ عينيهِ أخذتُ الكرى[3]

ولا تخلو هذه الأبيات من المبالغة، والارتجال الذي يتبادر إلى خواطر الشعراء حسب ما يتطلبه الموقف، مضمنين شعرهم بعض الصور المتوارثة من مخزون ما يحفظون، ولا يخفى ما في هذه الأبيات من تشابه معانيها وتكرار بعض ألفاظها، مما يجعلها تحمل سمات متقاربة لا تجعل لكل شاعر منهم استقلالية خاصة في ألفاظه ومعانيه وتراكيبه، أو أثر خاص لسمات مشرقية أو مغربية، لأنها نسيج متقارب في مشهد واحد جاء النظم فيه مقصوداً ، فتأثر كل شاعر بها نظمه الآخر.

---

(1) الشهاب العزازي، أحمد بن عبدالملك بن عبدالمنعم، شاعر مصري كان بزازاً في القاهرة بقيسارية جركس، له موشحات وألغاز، توفي سنة (710هـ). النجوم الزاهرة، 9/ 214.

(2) الديوان، ص436.

(3) انظر الحادثة والأبيات في النفح، 2/ 579-580. لم ترد أبيات زهير في ديوانه.

وتقارب الأبيات السابقة، أبيات نظمها كل من أثير الدين وابن بنت الأعز عند رؤيتهم شاباً حسناً يسبح وقد تلطخ بالتراب، بإيعاز من القاضي صدر الدين بن فخر الدين بالقاهرة، فقال ابن بنت الأعز مشبهاً إياه بالبدر يظلله السحاب:

ومُترَّب قد ظنَّ أنَّ جمالَهُ لم تبصِرْ الأبصارُ فيه مَنظرا
وكأنَّهُ بدرٌ عليه سحابَةٌ والتربُ ليلٌ من سناهُ مُقمِرا

ونظم فيه أثيرُ الدين، مشبهاً إياه بكافورةٍ لُطِخَت بمسك:

ومُترَّبٍ قد ظنَّ أنَّ جمالَهُ سيصونُهُ منّا بتربٍ أعْفرِ
فغدا يُضمِّخُهُ فزاد ملاحَةً إذْ قد حوى ليلاً بصبحٍ أنْورِ
وكأنَّما الجسمُ الصقيلُ وتربُهُ كافورةٌ لُطِخَتْ بمسكٍ أذْفُرِ[1]

واجتمع ابن سعيد المغربي مع جماعة من شعراء العصر من المصريين وفيهم أبو الحسين الجزار، فنظموا شعراً في غلام نائم تحت شجرة، وقد أشاد أبو الحسين بما نظمه ابن سعيد، مبيناً قدرته في الإتيان بما لم يستطع المشارقة الإتيان به[2]. مما يدل على المكانة الأدبية للمغاربة. وإن كانت بعض الآراء لا تخلو من المجاملات، لأن هذه الأشعار هي من قبيل المشاركة والتسلية.

وقد يزيد بعض الشعراء الأندلسيين أبياتاً على نظم المشارقة على سبيل الإجازة، بحيث تكون على البحر والقافية نفسيهما، كما كان من أثير الدين، حينما أنشد قول الشاعر المصري نور الدين القصري في روضة مصر:

ذاتُ وجهين فيها قُسِمَ الحسنُ فأضحتْ به القلوبُ تهيمُ
ذا يلي مصر فهو مصرٌ وهذا يتولّى وسيمَ فهو وسيمُ
قد أعادَت عصر التصابي صَباها وأبادَتْ فيها الغُمومَ الغيومُ

---

(1) الفوات، 1/ 106. لم ترد أبيات أثير الدين في ديوانه.
(2) انظر: الفوات، 3/ 104-105.

فزاد أبو حيّان بيتاً وهو:

فـــبلُجِّ البحـــار تـــسبح نـــونٌ وبفـــجِّ القفـــارِ يـــسفَحُ ريـــمُ[1]

ومن باب الإجازات أيضاً، ما أجازه أبو الرّوح التاكُرُني[2] لأبيات شرف الدين عمر بن الفارض في غلام اسمه بركات بالجامع الأزهر، إذ قال ابن الفارض:

بركـــاتُ يحكـــي البـــدرَ عنـــد تمامِـــهِ حاشـــاه بـــل شـــمسُ الـــضُحى تحكيـــهِ

فأكمل أبو الرّوح على البحر والقافية نفسيهما:

هـــذا الكـــلامُ فقـــل لمـــن قـــد عابَـــهُ حـــسداً وآيـــةُ كـــلّ شيءٍ فيـــهِ
لم تـــذوِ إحـــدى زهريتـــه وإنـــما كَمُلَـــتْ بـــذاكَ ملاحَـــةُ التـــشبيهِ
وكأنَّـــه قـــد رامَ يغلِـــقُ جفْنَـــهُ ليُـــصيبَ بالـــسهمِ الـــذي يَرميـــهِ[3]

وقد تصل المطارحات حد المناكفة والمشاتمة والتعريض بالنسب، من ذلك ما وقع بين ابن دحية وأبي اليمن الكندي[4]، فقد كان هناك شخص من أدباء النصارى يتعصب لابن دحية، ويعتقد بصحة نسبة للرسول ﷺ فقال أبو اليمن يعرض بابن دحية من خلال ذلك، طاعناً في نسبه، واصفاً إياه بالخرق:

يـــا أيُّهـــا العيـــسيُّ مـــاذا الـــذي تـــرومُ أنْ تثْبتَـــهُ في الـــصَّريحْ
إنَّ أبـــا الخطّـــاب مـــن دحيـــةٍ شـــبهُ الـــذي تـــذكُرُهُ في المـــسيحْ
مـــا فيـــهِ مـــن كَلْـــبٍ ســـوى أنّـــهُ ينـــبَحُ طـــولَ الـــدهرِ لا يـــستريحْ
أخـــرقُ لا يُهـــدى إلى رُشـــدِهِ كالنـــارِ شرّاً وكـــلام كـــريحْ

(1) النفح، 2/ 579.
(2) انظر الملحق، الترجمة رقم (30).
(3) النفح، 2/ 607. لم يرد بيت ابن الفارض في ديوانه.
(4) أبو اليمن الكندي: زيد بن الحسن تاج الدين أبو اليمن، النحوي اللغوي المحدث، قدم دمشق وسكن فيها، أقرأ القراءات والنحو واللغة، قرأ عليه المعظم عيسى، توفي سنة (610هـ)، انظر الوافي، 15/ 53.

فـــــــــــرَدَّهُ اللهُ إلى غربَـــــــــــــةٍ أو هـــا هُنـــا يـــستُرُهُ في الـــضَريحْ

فردّ عليه ابن دحية على البحر والقافية نفسيهما معارِضاً، ومدافعاً عن نسبه، معيباً عليه أن يُدافَع عنه بنصراني، في حين يُذَم من قِبَل مسلم مثله:

يـــا ذا الـــذي يُعـــزى إلى هاشـــمٍ ذَمُّـــكَ عنـــدي في البَرايـــا نُبـــيحْ

ألـــستُ أعـــلى النـــاسِ في حفـــظ مـــا يُـــسنَدُ عـــن جـــدِّكُمُ في الـــصَّحيحْ

يكـــونُ حظّـــي مـــنكُمُ طعـــنكُمْ في نَـــسَبٍ زاكٍ عـــليَّ صريـــحْ

وأعجَـــبُ الأمـــرِ شـــقائي بكُـــمْ وأننـــي أحْمـــى بقـــوم المـــسيحْ[1]

وقد كان السبب الرئيسي في ذلك، اختلافهما في مسألةٍ من مسائل اللغة، إذ صنّف ابن دحية مؤلفاً سماه: «الصارم الهندي في الردّ على الكندي»، وبلغ ذلك الكندي، فعمل مصنفاً سماه: «نتف اللحية من ابن دحية»[2].

ولم يسلم ابن دحية من لسان شرف الدين بن عنين اللاذع، إذ قال فيه طاعناً بنسبه:

دِحيَـــةُ لم يُعْقِـــبْ فَلِـــمْ تعتـــزي إليـــه بالبهتـــانِ والإفْـــكِ

مـــا صـــحَّ عنـــد النـــاسِ شيءٌ ســـوى أنَّـــكَ مـــن كَلْـــبٍ بـــلا شَـــكِّ[3]

وقد يتحاكم بعض شعراء المشارقة إلى بعض شعراء الأندلسيين للحكم على شعرهم، من ذلك ما تحاكم به الجزّار، والسِّراج الورّاق[4] عند رضي الدين الشاطبي، إذ بعث إليه الجزار شيئاً من شعره فقال: هذا شعر جزل، فلما بلغ الورّاق ذلك، أرسَلَ إليه من شعره فقال: هذا شعر سَلْس، ثم انتهى آخر الأمر إلى القول، ما أحكم بينكما[5].

(1) انظر الحادثة والأبيات، الوافي، 22/ 454-455. لم ترد أبيات أبي اليمن الكندي في ديوانه.

(2) الوافي، 15/ 53.

(3) ديوان ابن عنين، ص220.

(4) السراج الورّاق: عمر بن محمد بن حسن أبو حفص، شاعر مصر في عصره، كان كاتباً لواليها، كان حسن التخيّل، توفي بالقاهرة، سنة (695هـ). انظر الفوات، 3/ 140. النجوم، 8/ 83.

(5) النفح، 2/ 377-378.

ويتبدى من خلال ذلك ثقة المشارقة بأدباء الأندلسيين، وتقدمهم عندهم، كذلك مجاملة الأندلسيين في أحكامهم النقدية، فقد انتهى رضي الدين كما رأينا إلى قوله «ما أحكم بينكما» حتى يرضي الطرفين، كما تبين تلك الحادثة جو التنافس الأدبي والمطارحات، وما كانت تنطوي عليه المجالس من مودة ومشاركة بين الشعراء.

وقد يدلي بعض الشعراء من المشارقة برأيهم فيما يسمعونه من شعر المغاربة، كما وقع من ابن دانيال[1] حينما زار أثير الدين مع جماعة من الشعراء بسبب مرضه، فأسمعهم قصيدته النحوية التي مطلعها:

هـو العِلـمُ لا كـالعِلْم شيءٌ تُـراوِدُهُ   لقـد فـازَ باغيـهِ وأنجَـحَ قاصِـدُه[2]

فلما فرغ منها، قال ابن دانيال: «إن الشيخ عوفي وما بقي به بأس، لأنه لم يبقَ عنده فضلة»[3]. وهذا الرأي يؤكد ثقة المشارقة بشعر الأندلسيين وفضلهم، كما كان من صدق رأي الأندلسيين بالمشارقة.

وهناك صور للمساجلات والمكاتبات الأدبية بين الشعراء الأندلسيين والشعراء المشارقة، تكشف عن مدى التواصل والتوادّ بينهما مع تقارب الأمكنة أو تباعدها، وتعكس رأياً في المشرق وشعرائه، كما تصوّر انطباعات الشعراء الأندلسيين عن بعض الأماكن في المشرق، ومدى ارتباطهم بها.

من تلك المساجلات، ما تكاتب به ابن سعيد المغربي مع السّراج الورّاق، حيث كتب السّراج لابن سعيد مشيداً به، ومورياً باسمه:

إذا ابـنُ سـعيدٍ سـادَ أهـلَ زمانِـهِ   فقُـلْ لَهُـمُ مـا سـادَ هـذا الفتـى سُـدى

أرى الـشُهْبَ مـن شرقٍ لغـربٍ مـسيرُها   لتَحظـى بـأن تهـوي لـذا النـور سُـجَّدا

---

(1) ابن دانيال: محمد بن دانيال بن يوسف الموصلي شمس الدين، صاحب النظم الحلو والنثر العذب، واضع كتاب «طيف الخيال» كانت له صلة بالملك الأشرف، توفي سنة (710هـ). انظر: الفوات، 3/ 330-331. الوافي، 3/ 51-52. النجوم الزاهرة، 9/ 215.

(2) انظر القصيدة كاملة في الإحاطة، 3/ 50-56. لم ترد القصيدة في ديوانه.

(3) الوافي، 5/ 273.

فكتب له ابن سعيد مورياً بالسراج والنور ممتدحاً إياه، على البحر نفسه مخالفاً القافية:

أتــى بارتــسامي في المحبــةِ مــسطورُ　　فللـــه منظـــومٌ هنـــاكَ ومنثـــورُ
أهــيمُ بمعنــاكُم ومعنــى جمــالِكُمْ　　وأيُّ سِراجٍ لا يهــيمُ بــه النّــورُ

فأجاب السراجُ راداً بالفضل على البحر والقافية نفسيهما:

كتابُــكَ نــورَ الــدين نَــوْرٌ مُفــتَّحٌ　　أريجُ الـشَّذا مـن صـوب عقلِـكَ ممطـورُ
تــأرَّجَ لي لّمــا تــبلَّجَ حبَّــذا　　سـطورٌ بهـا قـد أشرَقَ النَّـورُ والنـورُ[1]

وجرت ملاطفة أخرى بين ابن سعيد، وابن النقيب[2]، فقد كتب إليه ابن سعيد معجباً بلطافة شعره وحلاوته، مشيداً من خلال ذلك بالأدباء المصريين:

أيـا سـاكني مـصرٍ غـدا النيـلُ جـارَكُم　　فأكــسبكُم تلــكَ الحــلاوَةَ في الــشِّعر
وكــان بتلــك الأرضِ ســحرٌ ومــا بقــي　　ســوى أثــرٍ يبــدو عــلى الــنظم والنثــرِ

فأحابه ابن النقيب، بكاتبةٍ لا تخلو من كياسةٍ ودماثة على البحر والقافي نفسيهما:

ولّمـــا حَللـــت الثغـــرَ زادَ حَـــلاوَةً　　وحليتَــهُ أعــلى مــن الــشَّذْرِ[3] والــدُرِّ
فرحـــتُ وبي شـــوقٌ ومـــا كنـــتُ شـــيِّقاً　　للـــثَم ذاكَ الثغـــرِ لـــولاكَ في الثغـــرِ
فـــلا تطلُـــبَنْ سِـــحْرَ البيـــانِ بأرضِـــنا　　فكـــم فيـــه موســـى مُـــبطلاً آيـــة الـــسِّحْرِ
لا رِقَّـــةَ الـــشعرِ الـــذي كـــان أوّلاً　　وكيفَ رقيق الـشعر مـع قـسوةِ الـدهرِ[4]

---

(1) انظر المساجلة وأبياتها، الوافي، 22/ 259.

(2) ابن النقيب: الحسن بن شاور بن طرخان، ابن النقيب الكناني، شاعر من فضلاء مصر. وله كتاب «منازل الأحباب ومنارة الآداب»، توفي في القاهرة سنة (687هـ). ودُفن بسفح المقطم. الفوات، 1/ 324. الوافي، 12/ 44. النجوم الزاهرة، 7/ 376.

(3) الشذْر: صغار اللؤلؤ. لسان العرب، مادة: شَذَرَ.

(4) انظر المساجلة والأبيات، الفوات، 1/ 328. الوافي، 12/ 51.

ومن المساجلات الطريفة ما وقع بين ابن سعيد وناظر الديوان ابن محارِب. فحينما وصل ابن سعيد إلى الإسكندرية يريد الحجاز، ثقفَ ابن محارب كتب ابن سعيد ليأخذ الوكالة منها والزكاة. فطرق ابن سعيد منزله وهو يقرأ بعض الكتب، فاحتجب عنه، وأُخبرَ انه قال: «لقد يصرعوننا هؤلاء المغاربة». فكتب إليه ابن سعيد عاتباً، معتزاً بأصله المغربي، مستهجناً كيف يصدر عنه مثل هذا القول، وهو يُمَلّي الآداب:

يــــا ذا الحجــــــابِ ترفَّـــــقْ	ففـــــي حَيــــاتي حِجـــــابُ
إنْ سُـــــدَّ بابُـــــكَ عنّــــــي	فكـــــــم إلى الله بـــــــابُ
وإن أكُـــــــــــنْ مغرِبيّــــــــاً	فــــلي معـــــانٍ غِــــرابُ
كُتْـــــبَ التــــأدُّبِ تُمـــــلي	وعَنْــــكَ يُـــروى الــــصَّوابُ
ولا تُـــــــصيخُ لمـــــــثلي	أهكــــــــــــــــذا الآدابُ؟

فأجاب ابن محارب معتذراً، غير متنازلٍ عن استيفاءِ الضريبة:

أدخُـــــلْ فُـــــديتَ رفيقــــاً	فلـــــيسَ دونَــــكَ بــــابُ
وكـــــلُّ مـــــا رُمْـــــتَ يُقـــضى	وبالنَّجـــــــاحِ الجَـــــوابُ
ســـــوى ضرائِـــــبِ مَلْـــــكٍ	فـــــــــــدونَهُنَّ ضِرابُ [1]

ومن المساجلات الإخوانية بين الأصدقاء، ما جرى بين ابن سعيد وكمال الدين ابن العديم، وكان ابن سعيد قد زارَ معه المشاهد الخارجة عن دمشق، وفي خدمتهما المماليك بمناطق الذهب، كالولدان في الجنان، فتعاهدا على عدم اتخاذ المماليك، فلما مضى ابن العديم إلى حلب، علم أن ابن سعيد عاد لما كان عليه من اتخاذ المماليك، فكتب إليه ناصحاً وعاتباً وملاطفاً:

يــــا ابــــن سَــــعيدٍ إليــــكَ شــــوقي	شـــــوقَكَ للغُـــــصنِ والكثيــــبِ
نقـــــضتَ بعـــــد البِعـــــادِ عَهـــــدي	فــــــارجِعْ إلى الله مــــــن قريــــبِ

(1) انظر المحادثة والمساجلة في القدح، ص4-5.

فردّ عليه ابن سعيد معترفاً:

يـــا ابـــن الكَـــمال اطَّـــرِحْ كتابـــاً … في الـــشَّوقِ للغـــصنِ والكَثيـــبِ
واســـــــــأَلْ اللهَ أن يُعـــــــافي … مـــن مُقلـــةِ الـــشادِنِ الرَّبيـــبِ
بتنـــا كلانـــا وســـوفَ ننـــسى … لكننـــي عُـــدْتُ مـــن قَريـــبِ[1]

وقد ورد مثل هذا الشعر في الغلمانيات والعذار، في غير موضع عند ابن سعيد[2] بما لا ينفي عنه ذلك.

وساقَ ابن سعيد بعض المساجلات مما كتبه له شعراء الشام الذين لازمهم، دون أن يورد إجاباته عن هذه المكاتبات، من ذلك ما كاتبه به الفخر بن عز القضاة[3] من جنته على نهر بردى، بعد أن لازمه ابن سعيد مدةً في دمشق يطلب منه المسارعة وعدم تسويف التنعم بطيب العيش في هذه الجنة، واغتنام زمن اللهو والقصف فيها، وقد تبدّى جمال فصل الخريف:

يـــا ابـــنَ ســـعيدٍ دُمْـــتَ في أســـعُدِ … هَـــلْ لَـــكَ في طيـــبٍ لنـــا سَرْمَـــدِ
في جنَّـــةٍ قـــد جُـــنَّ سَلـــساهُا … إذ مـــرَّ بالـــدُرِّ عـــلى الجَلْمَـــدِ
والـــوَرَقُ التِّـــبريُّ مـــن حَولِـــهِ … يميـــلُ أو يـــسقُطُ لا تهتـــدي
أبـــدي خريـــفُ الفـــصلِ فيـــه لنـــا … عـــشاقَهُ كـــيما بهـــا نقتَـــدي
فَـــصِلْ وواصِـــلْ مُـــسْرِعاً مُـــنْعِماً … فكـــأسُ كـــلِّ واقـــفٍ في اليَـــدِ
وحـــاشَ للمجـــدِ بـــأن يرتـــضي … خَلَفـــاً لا أســـلفَ مـــن مَوْعِـــدِ[4]

---

(1) انظر الخبر والأبيات في القدح، ص6.

(2) انظر الرايات، ص176. الوافي، 22/ 257. النفح، 2/ 263.

(3) الفخر بن عز القضاة: إسماعيل بن علي بن عبدالواحد فخر الدين المعروف بابن عز القضاة، كاتب وأديب، اتصل بالملك الناصر صاحب حلب، تزهد ولازم الشيخ محيي الدين ابن عربي، توفي سنة (689هـ). انظر الفوات، 1/ 179-181.

(4) المقتطف، ص157، 158.

كما كتب له النور الأسعُردي[1] من دمشق إلى حلب، قصيدة يحنُّ فيها إلى أيامه معه، ويذكره بدمشق وجمالها، متعجباً من صبره عل البُعد عنها، وهو الذي يمتاز برقة ولطف يحاكي رقة نسيمها ولطفه:

إليكَ حنيني لا إلى الكأسِ والصِّبا ... وما زالَ دهرٌ قد قطعناهُ من ذِكْرِ
ولطُفكَ يقضي أن تكونَ ببلدةٍ ... حَكَتْ جنَّةَ الرَّضوانِ قبل مدى الحَشْرِ
أجُلَّقُ في الدنيا فتختارُ غيرَها ... ما هي لي أرضٌ ولكن سَّبَتْ فكري
أتصبرُ عن أرضٍ ينوحُ حَمامُها ... غراماً وتختالُ الغصونُ من السُّكرِ
يمرُّ اختلاساً في رُباها نسيمُها ... فأحسَبُهُ من رَوضِها سارِقَ النشرِ
إذا لَمْ أضعْ عمري على رُغمِ حاسِدٍ ... بنيلِ المُنى فيها فوا ضيعةَ العُمرِ[2]

وكتب له من مصر أَيُدمَر المُحيَوي بإشارة من وزير الجزيرة محيي الدين بن ندى، طالباً منه أن يثني العزم على الحضور من حلب إلى مصر، وتجديد العهد بها.

يا رافعاً للمعالي رأيَةَ الأدَبِ ... حتّى متى لا تزالُ الدَّهرَ في حَلَبِ
من كانَ مثلُكَ لم تقعِدْهُ همَّتُهُ ... بالفضلِ والجِدِّ والتَّشمير في الطَلَبِ
قضيتَ مهنَةَ أرضِ الشامِ فاثنِ إلى ... مصر العتاقِ وجدِّد عَهْدَ مُغتَرِبِ

ثم يذكره بالأيام التي قضيا أصائلها معاً في الأهرام، والجزيرة الصالحية، وبركة الفيل، وتطارحا الشعر عندها، حتى تكون هذه الذكريات حافزاً لرجوعه.

واذكُر معاهِدَ قضَّينا أصائلَها ... بينَ المذانِب[3] والأغصانِ والكُتُبِ
فكَمْ لنا بذُرى الأهْرام من نُزَهٍ ... أبدى لنا الدَّهرُ منها كُلَّ ذي عَجَبِ

---

(1) النور الأسعُردي: محمد بن عبدالعزيز بن عبدالصمد بن رُستُم، شاعر فيه مجون وظرف، اتصل بالملك الناصر ومدحه بقصائده سمّاها الناصريات، توفي سنة (656هـ). الفوات، 3/ 271-272. الوافي، 1/ 188-189. البداية والنهاية، 13/ 225.

(2) المقتطف، ص160-161.

(3) المذانب: مفردها مَذْنَب، وهو المسيل في الحضيض، وهو كهيئة الجدول. لسان العرب، مادة: ذَنَبَ.

والصالحيَّةُ حيثُ النهرُ عانَقَها كَمْ قَدْ قَطَعناه من جِدٍّ ومن لَعِبِ
وبركةُ الفيلِ لا تُنْسى لَياليها والشَّمعُ فيها يضاهي زينَةَ الشُّهُبِ[1]

لقد لوحظ على الأبيات التي كتبت لابن سعيد من شعراء مصريين وشاميين امتداح كل منهم لبلده، ووصف الأماكن الرائقة الجمال فيها، ووصف معالمها الحضارية ومعاهد أنسها، وتذكيره بمجالسه مع الشعراء فيها، وهو نوع من المفاضلة التي اشتهرت بين مصر والشام، وبين المغرب والأندلس، ولعل الرسائل في ذلك غنية عن التعريف، مثل رسالة القاضي الفاضل[2]، ورسالة الشَّقُندي[3].

ومن المساجلات الإخوانية المشهورة بين المغرب والمشرق، ما كتبه أبو العباس الغسّاني[4] صديق ابن سعيد من تونس، من أبيات في غاية الرقة لهذا النازح الذي أضحى بعيداً، فتجاذبت الأشواق فؤاد صاحبه الحانق على الدهر الذي جعل التواصل بينهما خيالاً:

يا نازِحاً عنّي أجِبْ كُتُبي كما صَدَحَ الحَمامُ إذا الحَمامُ ترنَّما
وأجِلْ جفونَكَ في سطورٍ لم تكَدْ لولا تصعُّدُ زفرتي أنْ تُفهَما
باللهِ طارِحني الحديث فإنَّني أهوى حديثَك مُفْصِحاً ومُجَمْجِما
باقٍ على حفظِ الوِداد وطالما أمسى بأيدي الحادِثاتِ مقسَّما
تتجاذَبُ الأشواقُ قلبيَ كلَّما أبصرتُ فيه مكانَكَ المُتوَهَّما
ويطولُ ردّي للكؤوسِ تَذَكّراً فإذا شرِبتُ شربتُ فيها العَلْقَما
ويحاً لهذا الدَّهرِ فوَّقَ أسْهُماً للحادثاتِ فكنتَ أوَّلَ من رَمى

(1) المقتطف، ص161-162.
(2) انظر تفصيل ذلك في الروضتين، 2/ 57-60.
(3) انظر: النفح، 3/ 186 وما بعدها.
(4) أبو العباس الغساني، كان كاتباً في بلاط المستنصر الحفصي، وجرت بينه وبين ابن سعيد مطارحات كثيرة. انظر: القدح، ص12. الرايات، ص144.

مـــا كـــان يقنِعُنـــا التواصُـــلُ دائـــماً فـــاليومَ يُقنِعُنـــا الخيـــالُ مُـــسَلّما[1]

ويردّ ابن سعيد بأبيات لا تقل رقة عن أبياته، على البحر والقافية نفسيهما، ولا تخلو من الشوق الذي يضرم فؤاده لأهله وأصدقائه، واصفاً أثر قصيدة الغساني فيه، حيث غَدَت مناراً لأفقهِ الحالك لما يعانيه في ديار الغربة:

أطْلَعـــتَ في لَيْـــلِ التـــشوُّقِ أنجُـــماً لّمـــا بعثْـــتَ مُـــسائلاً ومُـــسَلِّما
لـــولا كتابُـــكَ ظلْـــتُ فيـــه حـــائِراً حيـــثُ اتجهـــتُ رأيـــتُ جنحـــاً مُظلِـــما
وافى وأفقـــــي حالـــــكٌ فأنـــــارَهُ وأُوامُ شـــوقي مـــؤلمٌ فَـــشَفى الظَّـــما
أودعتُـــــهُ قلبـــــي ففـــــاحَ نـــــسيمُهُ فكـــأنَّما نَـــوْرٌ بجمـــرٍ ضُـــرِّمـــا
عهـــدي بـــصدرِكَ مثـــلُ بحـــرٍ زاخِـــرٍ لا غَـــروَ إن أرسَـــلْتَ دُرّاً نُظِّـــما
إيـــهِ أبـــا العبـــاسِ بعـــدَكَ لم أزَلْ مهـــما تـــدُرْ مـــشمولَةٌ مـــتجهِّما
ولقـــد بكيـــتُ فلـــم أجِـــدْ في الجَفـــنِ مـــا أبكـــي بـــهِ إن كنْـــتَ أبكيـــتَ الـــدَّما[2]

ولعل هذه المساجلة تختلف عما سبقها، إذ يتبدّى فهيا صدق العاطفة، وحرارة المشاعر، فلا غرابة في ذلك، إذ إنها مكاتبة بين ابن سعيد وصديقه الذي قضى معه أيام شبابه، وقد كتب أبو العباس أبياته من أرض الوطن الذي لا ينفك ابن سعيد يحن إليه وهو فيه، فكيف إن تباعد عنه، ولا شك أن عوامل البُعد وارتباط بالأهل والأصدقاء والحنين إلى الوطن التي اجتمعت في هذه المساجلة، جعلتها من أصدق المساجلات الإخوانية وأرقِّها.

ونأتي للمعارضات، فقد عارض بعض الأندلسيين المرتحلين، قصائد مشهورة لمشارقة من عصور متقدمة، ومن أشهرها معارضة ضياء الدين أبي الحسين علي بن محمد الخزرجي[3] لقصيدة كعب بن زهير المشهورة التي يمدح فيه الرسول ﷺ ومطلعها:

(1) المقتطف، ص162، 163.
(2) القدح، ص5. المقتطف، ص163، 164.
(3) انظر الملحق، الترجمة رقم (26).

بانَتْ سعادُ فقلبي اليومَ مَتْبولُ مُتيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مكبولُ[1]

وأما الخزرجي فقد خالف ما ذهب إليه كعب،فما عادَت سعاد سؤله، فوصلها وعدمه سيان، لأن وعدها ممطول، يقول:

ما في سعادٌ لنا قصدٌ ولا سولُ فإنَّ قلبيَ عنها اليومَ مشغولُ
وما سُعادُ وما مقدارُ مَنْصِبها حتّى أبيتَ وقلبي منه مَتْبولُ
سَيّان عندي إن بانَت وإن وَصَلَتْ فوصْلُها بنِصالِ الصَدِّ مفصولُ
وما أنْ يدومُ لها عهدٌ وإنْ غَدَرَتْ فهو الوَفاءُ، وعهد الغيدِ ممْطولُ

وكأنه يأخذ على كعب الابتداء بمقدمة غزلية في مدح الرسول ﷺ لأن حب النبي يجب أن يشغله عن حبٍّ من سواه، ويطنب ضياء الدين في مدح النبي ﷺ وبيان معجزاته في قصيدة زادت على مائتين وثلاثين بيتاً، في حين بلغ عدد أبيات قصيدة كعب بضعاً وثمانين، ولم يورد ابنُ رُشَيد الأبيات التي تحدثت عن معجزات الرسول ﷺ واكتفى بالإشارة إلى بعض الأبيات في خاتمة قصيدة الخزرجي، ومنها:

يا من لَهُ في حَديثِ المصطفى سَنَدٌ عالٍ، ويسمَعُهُ والنقلُ معلولُ
خُذْ هذهِ فهي للنّاسين تذكَرَةٌ ونظمُها فيه تَقْريبٌ وتسهيلُ
يا عالِمَ السرِّ لا تَفْضَح سريرَةَ مَنْ له على عفوِكَ المرجوِّ تعويلُ
وصِلْ صلاةً على خيرِ الورى فَلَهُ بين النبيِّين تخصيصٌ وتفضيلُ[2]

ولأثير الدين قصيدة يعارض فيها قصيدة كعب سمّاها «المورد العذب في معارضة قصيدة كعب» يبتدئُها بمقدمة غزلية، يقول:

لا تعذلاهُ فما في الحبِّ معذولُ العقلُ مختَبَلٌ والقلب متبولُ

---

(1) انظر القصيدة: ديوان كعب بن زهير بشرح أبي سعيد السكري، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، 1950، ص6-25.

(2) ابن رشيد الفهري السبتي: ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة. تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1981، 3/ 48-49.

هـزَّت لـه أسـمُراً مـن خَـوْطِ[1] قامَتها فـما انثنـى الـصبُّ إلاّ وهـو مَقْتـولُ

ثم ينتقل بعد المقدمة الغزلية إلى الدعوة إلى التوبة والتبتل للرسول ﷺ:

أتـاكَ منـكَ نـذيرٌ فانـذِرَنَّ بـه وبـادِرْ التَّـوبَ إنَّ التـوبَ مقبـولُ

وأمِّـلْ العفـوَ واسـلُكْ مَهْمَهـاً قَـذَفاً إلى رضى الله إنَّ العفـوَ مـأمولُ[2]

ثم يبين معجزات الرسول ﷺ من انفلاق الحجر ونبع الماء، ويؤكد بقاءَها وخلودَها.

وعارض ضياء الدين الخزرجي مسمَّط[3] الحريري الذي جاء في مقامته البصرية الخمسين، ومطلعه:

خـلِّ ادِّكـارَ الأربُـعِ والمَعْهَـدِ المُرتَبَـعِ

والظّـاعِنِ المـودِّعِ وعـدِّ عنـه ودَعِ

وانـدُب زمانـاً سَـلَفا سـوَّدْتَ فيـهِ الـصُّحُفا

ولم تَـزَلْ معتكِفـاً عـلى القبيـح الـشَّنِعِ

كَـمْ ليلـةٍ أودَعَتهـا مـآثِماً أبـدَعتَها

لـشهوةٍ أطَعْمَتهـا في مَرقَـدٍ ومَـضْجَعِ

وكـم تجـرأتَ عـلى ربِّ الـسموات العُـلَى

ولم تراقِبْـهُ ولا صَـدَقْتَ فـيما تـدَّعي[4]

(1) الخوط: الغصن الناعم، لسان العرب، مادة: خَوَطَ.

(2) انظر القصيدة كاملة، الديوان، ص461-471.

(3) المسّمط من الشعر: أبيات مشطورة يجمعها قافية واحدة، وقيل ما سمِّط أرباع بيوته وسمط في قافية مخالفة. لسان العرب، مادة: سمط.

(4) الشريشي، أبو العباس أحمد بن عبدالمؤمن: شرح مقامات الحريري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، 1976، 5/ 366.

وقد بلغ عدد أبيات مسمط الخزرجي واحداً وأربعين بيتاً، وهو يُقارب عدد أبيات مسمط الحريري التي بلغت أربعة وأربعين، لكن السبتي لم يورد منها إلا عدة أبيات تحمل بعض المعاني التي أوردها الحريري من التوبة، والتضرع لله واللوذ بأهل الورع للتكفير عن الآثار وهي:

هَــــوِّنْ بأهــــلِ البِــــدَعِ		والهجــــرِ والتــــصنُّعِ
ودِنْ بــــترك الطَمَــــعِ		ولُــــذْ بأهــــلِ الــــوَرَعِ
والهَــــجْ بــــبرٍّ جهبــــذِ		وعــــالِمٍ متَّــــضع
وانــــدبْ زمانــــاً قــــد سَــــلَفْ		ولم تجــــدْ منــــهُ خَلَــــفْ
وابعَــــثْ بأنفــــاسِ الأسَــــفْ		رســــائِلَ التــــضرُّعِ[1]

ويعارض أثير الدين أبو حيان موشحة ابن العفيف التلمساني[2] التي يقول في مطلعها متغزلاً:

قمــــرٌ يجلــــو دجــــى الغَلَــــسِ		بَهَــــرَ الأبــــصارَ مُــــذْ ظَهَــــرا
آمــــنٌ مــــن شــــبهةِ الكلــــفِ
ذبــــتُ في حبيَــــهِ بــــالكلَفِ
لم يــــزَلْ يــــسعى إلى تلفــــي
بركــــات الــــدُرِّ والــــصَّدفِ
آهِ لــــولا أعــــينُ الحَــــرَسِ		نلــــتُ منــــه الوَصْــــلَ مُقتــــدِرا[3]

---

(1) ملء العيبة، 3/ 46.

(2) ابن العفيف التلمساني، شمس الدين محمد بن سليمان بن علي، الملقب بالشاب الظريف، شاعر مُجيد ولد في القاهرة، وولي عمالة الخزانة بدمشق، مات شاباً سنة (688هـ). انظر: الفوات، 3/ 372-373. الوافي، 3/ 129-130. البداية والنهاية، 13/ 334.

(3) ديوان الشاب الظريف، تحقيق: شاهر هادي شَكَر، مطبعة النجف الأشرف، العراق 1967، ص294.

أما موشحة أثير الدين فتأتي على الترتيب نفسه، لكنه يغير من قافية الأسماط، فيجعلها رائية، في حين كانت فائية كما تبيّنا عند ابن العفيف، يقول في مطلعها:

عـــــاذلي في الأهيــــــفِ الأَنْـــــسِ لـــــو رآهُ كـــــان قـــــد عَـــــذَرا

رشـــــأٌ قـــــد زانَـــــهُ الحَــــــوَرُ

غُـــــصُنٌ مـــــن فوقِـــــهِ قمَـــــرُ

قمَـــــرٌ مـــــن سُـــــحْبِهِ الــــشَّعَرُ

ثَغَـــــــــرٌ في فيـــــــــه أم دُرَرُ

جـــــالَ بـــــين الـــــدُرِّ واللَّعَـــــسِ خمـــــرةٌ مـــــن ذاقَهـــــا سَـــــكِرا[1]

وربما كان تغيير قافية الأسماط عند أبي حيان من باب إظهار قدرة الأندلسيين وبراعتهم، وربما كانت قافية الرّاء كما يرى أبو حيان أكثر ملاءمة، فربما كان تغيير القافية من باب المعارضة، ولإثبات تقدم الأندلسيين على المشارقة في فن الموشّح، وقدرتهم على نسجه بطريقة خاصة، قد لا يصل إلى مستواها المشارقة كما يرون

هذه جوانب من صور المعارضات، التي جاء بعضها معارضاً لقصائد من عصور سابقة كقصيدة ضياء الدين الخزرجي وقصيدتي أثير الدين اللاميتين في معارضة قصيدة كعب بن زهير، ومسمط الخزرجي الذي يعارض به مسمّط الحريري، وجاء بعضها الآخر معارِضاً لقصائد شعرية في العصر ذاته، مثل موشحة أثير الدين التي يعارض بها موشحة ابن العفيف. وقد تكون تلك المعارضات من باب المخالفة أو الموافقة كما تبيّنا.

وتكشف هذه المعارضات عن تتبع المغاربة لأدب المشارقة؛ قصائدهم، ومقاماتهم وموشحاتهم، وتنبئ عن إعجاب أندلسي بتراث المشرق وأدبه، لم يقف الأندلسيون عند امتداحه، بل شاركوا فيه المشارقة، مطارحة أو مساجلة، أو معارضة.

---

(1) الديوان، ص495.

الزهد والتصوف

يُعدّ الزهد والتصوف من الظواهر العامة التي لا يخلو منها أي مجتمع من المجتمعات، لكنها ازدادت واتسعت في هذا العصر بصورة تسترعي النظر نتيجة للظروف التي داهمت الناس من فتن وحروب ومجاعات وانتشار أوبئة وكثرة مظالم، فرأوا في التدين سبيلاً للخروج مما يلاقون، بالإضافة إلى تشجيع القائمين على الأمر لهذا الاتجاه، لأسباب قد تكون نابعة من قيم دينية وإقامة العدل والصلاح زمن الأيوبيين وخاصة صلاح الدين، وإما لتنحية هؤلاء عن الانشغال بشؤون السياسة خاصة في العصر المملوكي. فزهد بعض الناس واعتزلوا وبالغوا في ذلك، وكثرت الدعوات التي تحض على استصغار الدنيا وعدم التعلق بها في شعر المرتحلين من ذلك ما يدعو إليه أبو الحسن علي بن أحمد الحِمْيَري[1] من ترك الدنيا وعدم الاغترار بها لأن العمر قصير والموت خير واعظ، في رثائه للعز بن عبدالسلام:

أمَدُ الحياةِ كما عَلِمْتَ قصيرُ ... وعليكَ نقّادٌ بها وبصيرُ
عجباً لمغترٍّ بدارِ فنائِهِ ... ولهُ إلى دارِ البقاءِ مصيرُ
فسليمُها للنائباتِ مُعرَّضٌ ... وعزيزُها بيدِ الرَّدى مقهورُ
أيظنُّ أنَّ العمرَ ممدودٌ لَهُ ... والعُمْرُ فيه على الرَّدى مقصورُ[2]

وما دامت الأيام زائلة لا محالة، فقد دعا الزهاد إلى المسارعة لعبادة الله تعالى والابتهال والدعاء له بطلب المغفرة، يقول ضياء الدين الخزرجي:

يا نائماً وعيونُ القومِ ساهرةٌ ... ولا يُبالي أطالَ الليلُ أم قَصُرا
قُم للتهجُّدِ يا نَومانُ مجتهداً ... فللجديدين سيفٌ ينسِفُ العُمُرا
وبشَّرَ الفَجرُ باليوم الجديدِ فَقُم ... ونادِ من لَمْ يَزَلْ في المُلْكِ مُقْتدِرا
يا عالِمَ السرِّ لا تَفْضَحْ سريرةَ مَنْ ... وافاكَ يا فالقَ الإصباحِ مُفْتِقرا

---

(1) انظر الملحق، الترجمة رقم 21.
(2) النفح، 2/ 611.

وقَـدْ دَعــاكَ قــريحَ القلــبِ منكسِراً   وأنــتَ تَعْلَـمُ مــا أبـدى ومـا سَـتَرا
فَهَـبْ لـه توبـةً وارْحَـمْ تـضرُّعَهُ   إليكَ واغفـر لـه يـا خـيرَ مَـنْ غَفَـرا[1]

ولا بد من اتباع سبيل المصطفى ﷺ والتمسك بكتاب الله للنجاة من عقاب الله تعالى، كما يقول محمد بن عبدالله المُرسي[2]:

مـن كـان يرغَـبُ في النجـاةِ فـما لَـهُ   غـيرَ اتبـاع المـصطفى فـيما أتـى
ذاك الـسبيلُ المـستقيمُ وغـيرُهُ   سُـبُلُ الغوايـةِ والـضَّلالةِ والـرَّدى
فـاتبَعْ كتـابَ الله والـسننَ التـي   صـحَّتْ فـذاكَ إذا اتبعْـتَ هـو الهُـدى
الـدّينُ مـا قـال النبـيُّ وصـحبُهُ   والتـابعونَ ومَـن منـاهِجُهُم قَفـا[3]

وقد كان الزهد ثورة على الحياة اللاهية، لذلك كان على المرء ألا يتلهّى بمتاع الدنيا وملذاتها، بل عليه أن يقنع ويثق بالله تعالى حتى يحظى بمكانة رفيعة، يقول علي بن أبي بكر ابن عتيق[4]:

واقْنَـعْ بـما أعطـاكَ ربُّـك راضِـياً   إنَّ القناعَـةَ كنزُهـا لا ينفَـدُ
إن الوثـوقَ بـذي المعـالي رِفعـةٌ   يحظـى بهـا العَمَـدُ الرشـيدُ الأسـعَدُ[5]

كما يحث الشاعر على التحلّي بالأخلاق الحميدة التي تقرب المرء من خالقه تعالى كالصدق والحِلم، ويحذر من الصفات التي تباعد بينه وبين الله تعالى مثل الكذب والنميمة والحسد، يقول:

إيـاكَ والكَـذِبَ المثـيرَ عـداوةً   إنَّ الكَـذوبَ عـن الإلـه لَمُبْعَـدُ
والـصدقُ أولُ مـا ملكـتَ طريقَـهُ   فهـو الـصراطُ المـستقيمُ الأقْـصَدُ

(1) ملء العيبة، 3/ 47-48.
(2) انظر الملحق، الترجمة رقم (44).
(3) معجم الأدباء، 18/ 212.
(4) انظر الملحق، الترجمة رقم (17).
(5) معجم الأدباء، 18/ 212.

إنَّ النميمـــــة خـــــصلةٌ مذمومـــــةٌ   يَـسعى بهـا النَّــذْلُ اللئـيمُ الأوغَــدُ
لا تَحْـسُدَنْ أحــداً عــلى مــا عنــدَهُ   فالعاقِــلُ المغبــوطُ مــن لا يحــسُدُ
واحلَــم فــإنَّ الحِلْــمَ خــير مطيَّــةٍ   مــن كــانَ راكبُهــا يُجَــلُّ ويُحْمَــدُ

كما يدعو إلى اتقاء مطاعم الشبهات، والحرص على تناول الطعام من مصدر حلال، يقول:

واجعَـلْ طعامَـكَ مـن حَـلالٍ خـالصٍ   فمطـاعِمُ الـشُّبهاتِ سُـمٌّ أسْـوَدُ[1]

ويغرق الزهاد في النفور من الدنيا، ويستمرون في مجاهداتهم لإخراج حُبّها والتعلق بها من قلوبهم، فيتطوّر الزهد حتى يصل مرتبة أسمى هي التصوف، فالحياة اللاهية وما يلاقونه من ضنك العيش يدفع بهم إلى الانعزال التام والإغراق في الروحانيات ومناجاة الذات الإلهية، حيث تتبدى لهم أسرار يستشعرون بها لذة تفوق أية لذة دنيوية، يعبرون عنها في أشعارهم.

ومن أشهر الشعراء المتصوفين من المرتحلين محيي الدين بن عربي، وأبو الحسن الشُّشتري اللذان تميز الشعر الصوفي لكل منهما بالغزارة والتنوع، ولا يمكننا في هذه الدراسة أن نقف عند نتاج كل منهما لسعته، ولأنه يحتاج إلى دراسة مستقلة ولكننا سنبين جوانب من تأثير عقائدهما وعلاقاتهما في البيئة الجديدة في مصر والشام.

فابن عربي وصف بأنه ظاهري المذهب في العبادات، باطني النظر في الاعتقادات[2] وقد تأثر بمؤثرين أحدهما إسلامي والآخر غير إسلامي، يتلخص الأول في الكتاب والسنّة والنظرات الصوفية السابقة وآراء المتكلمين، وترجع المؤثرات غير الإسلامية إلى الفلسفات الثقافات الأجنبية من يونانية وهندية وفارسية، فقد كانت تتردد على خياله

(1) عقود الجمان (مخطوط)، ج5، ورقة 90.
(2) النفح، 2/ 105.

على خياله شطحات صوفية وأفكار فلسفية لحصيلته الثقافية المتعددة الروافد[1]. وذهب إلى أن الوجود كله واحد، وأن وجود المخلوقات عين وجود الخالق، بمعنى أن وجود المخلوقات وحدة واحدة دليل وجود خالق واحد لها، فالوجود بأسره وحدة واحدة ليس فيه ثنائية أو تعددية[2]، وقد نفى عن نفسه القول بالوحدة والاتحاد اللذين قال بهما الملحدون، حين قالوا: «إن شخصية النفس وذات الإله لا يختلفان»[3] يقول:

وَدَعْ مقالَةَ قومٍ قال عالِمُهم ... بأنه بافله الواحد اتَّحدا
الاتحادُ مُحالٌ لا يقولُ بِهِ ... إلاّ جهولٌ به عن عقلِهِ شَرَدا
وعن حقيقته وعن شريعتِهِ ... فاعبُد إلهك لا تشرك به أحدا
وانهَض إلى واهِبِ الأسرارِ تحظَ بِهِ ... ولتتَّخذ عندهُ قبلَ القدومِ يَدا[4]

وتولدت عن وحدة الوجود عند ابن عربي وحدة الأديان، ونظريته في الإنسان الكامل[5]. وقد أثارت آراء ابن عربي الفقهاء في مصر ضده وسعوا إلى إراقة دمه، وأوذي بسببها وأودع السجن، لولا صديقه أبو الحسن البجائي الذي تأوّل كلامه بأنه «شطحات في محلّ سُكر ولا عَتب على سكران»[6]، وقد اتصل ابن عربي بابن الفارض من شعراء مصر، حيث بعث له يستأذنه في شرح تائيته، فقال: «كتابك المسمى بالفتوحات المكية شرح لها»[7] أما شيخ مشايخ الديار المصرية عز الدين بن عبدالسلام فقيل إنه طعن بابن

---

(1) علي الخطيب؛ اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، دار المعارف، القاهرة، 1404هـ، 297.

(2) طلعت غنام: أضواء على التصوف، عالم الكتب، القاهرة، ص219-220.

(3) آسين بلاثيوس: ابن عربي حياته ومذهبه، ترجمه عن الإسبانية، عبدالرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ودار القلم، لبنان 1979، 257.

(4) ديوان ابن عربي الكبير (مخطوط)، الجامعة الأردنية، ص441.

(5) أضواء على التصوف، 39-40، ولمزيد من التفصيل، انظر 228-237.

(6) عنوان الدراية، 157-158.

(7) النفح، 2/ 166.

عربي ظاهراً، لكنه حينما سئل: أين القطب، أشار إليه، فقيل له: فأنت تطعن فيه، فردّ مجيباً: أصون ظاهر الشرع[1].

أما في الشام فقد لقي ابن عربي كل حفاوة وتكريم من ملوكها وخاصة من الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب (- ت 613هـ). وكان الناس يلجأون إلى ابن عربي للتوسط لدى السلطان لقضاء حوائجهم، حتى إنه كما قال، رفع إليه في مجلس واحد مائة وثماني عشرة حاجة فقضاها كلها[2]. وقد بلغ في بلاطه نفوذاً زاد على نفوذ الفقهاء الذين شنّ عليهم حرباً لتغلب أهوائهم على نفوسهم، حيث أفتوا للظاهر غازي بتحليل العديد من الأفعال المحرمة، بالإضافة إلى كراهية ابن عربي لهم لموقفهم المتشكك من الصوفية[3]. كما كانت له علاقة جيدة بالملك المعظم عيسى (- ت 637هـ) وأراد أن يؤمن له معاشه، فأجرى عليه كل يوم مائة درهم فضة، فوجد ابن عربي في ذلك سبيلاً للتصدق بها[4].

وقد شهد أجلّ مشايخ الشام مثل كمال الدين الزملكاني، وسعد الدين الحموي لابن عربي بسعة علمه، مشبهين إياه بالبحر الزخار الذي لا ساحل له، واصفين من أنكروا عليه عقائده بجهلهم وقصور أفهامهم عن الإدراك، كما لقي الإجلال من قاضي قضاة الشافعية في عصره شمس الدين الخُويّي، وقاضي قضاة المالكية[5].

وقد خلف ابن عربي في كل بلد نزل به ما كان قد كتبه من المصنفات التي اشتغل بها الناس، وما زالوا إلى اليوم، يحاولون تفسير ما فيها من شطحات صوفية وإشارات ورموز بعيدة.

(1) النفح، 2/ 183.
(2) الفتوحات المكية، دار صادر، بيروت، 4/ 539.
(3) المصدر السابق، 3/ 69-70.
(4) السابق، 4/ 558، 560.
(5) النفح، 2/ 178، 179.

أما أبو الحسن الششتري فقد تنقل بين مصر والشام، ووصفه الغبريني صاحب عنوان الدراية بأنه «من الطلبة المحصّلين ومن الفقراء المنقطعين، له معرفة بالحكمة، ومعرفة بطريق الصالحين والصوفية، وله تقدم في علم النظم والنثر على طريقة التحقيق»[1]، وقد أخذ عن محيي الدين ابن عربي، واجتمع في الشام بالشاعر الصوفي نجم الدين محمد بن سوار بن إسرائيل الدمشقي (ت677هـ)، وأعجب كل منهما بالآخر[2] وقال عن النجم «ألفيته على قدم التجرد، وله أشعار وأذواق... وكان من الأمراء وأولاد الأمراء، فأصبح من الفقراء وأولاد الفقراء»[3]. وتنقل الششتري بين الربط والأديرة في مصر والشام، وتركت هاتان البيئتان أثراً في موشحات وأزجال الششتري ألفاظها ومضامينها، كما كان له دور بيّن في إيصال معانيها الصوفية إلى الناس ببساطة نظراً لأنها صيغت على لغة العامة ولسهولة غنائها وتلحينها، وعلى بساطتها، لم تخل من العمق، وسنقف عند بعض موشحاته وأزجاله، وموشحات ابن عربي في الدراسة الفنية إن شاء الله.

ومن الشعراء المتصوفين الذين كتبوا في معاني التحقيق من المرتحلين أبو الحسن الحرّالي التُّجيبي[4] الذي كان لديه علم في التفسير والفقه والطبيعيات والمنطق، والتقى بالعز بن عبدالسلام شيخ الديار المصرية ووقع بينهما كلام على التفسير[5]، وقد وردت له بعض الأبيات التي يبين من خلالها أن المعرفة لا يتوصل لها عن طريق العقل بل يتم الوصول إليها بالذوق لأن العقل قد يكون حجاباً، ويقصر عن الإحاطة بالمطلق، يقول:

كلما رُمتُ بذاتي وَصْلةً ... صارَ لي العَقلُ مع العِلْم جَلَمْ[6]
يقطعاني بخيالات الفنا ... عن وجودٍ لم يُقيَّدْ بعَدَمْ[7]

---

(1) عنوان الدراية، 239.
(2) النفح، 2/ 185.
(3) الإحاطة، 4/ 206.
(4) انظر الملحق، الترجمة رقم 18.
(5) عنوان الدراية، 144، 145.
(6) جلم: آلة كالمقص لجز الصوف وقطعه. المعجم الوسيط، مادة: جَلَمَ.
(7) عنوان الدراية، 155.

لكن الأبيات القليلة التي وردت له لا تكشف عن مذهبه الصوفي، ويرجح من آثاره وسيرة حياته أن له شعراً في التصوف غاب الكثير منه.

ومن الشعراء المرتحلين الذين كتبوا في غرض التصوف أثير الدين أبو حيان دون أن يكون متمثلاً لفلسفة التصوف سلوكاً، فلم يكن كلامه إلا نظرياً، ويشير في أبيات أوردها إلى أن الارتقاء بالنفس لا يكون إلا بترك الأغيار (كل ما هو غير الله)، وعندئذ تصعد النفس من الحضيض إلى الرتب العليا، فتزول عنها الحجب وتخرج من رؤية الكثرة إلى رؤية الوحدة، يقول:

فَلَمْ أرَ في الأكوانِ غيري لأنَّني ... أزحتُ عن الأغيارِ روحَ حياتي
وقدَّستُها عن رتُبةٍ لو تعيَّنَتْ ... لها دائماً دامتْ لها حَسَراتي
فها أنا أصعدتُها عن حضيضها ... إلى رتبةٍ تقضي لها بثباتِ
أقامت زماناً في حجابٍ فعندما ... تزحزَحَ عنها رامت الخَلَواتِ
لنقضي بها ما فاتَ من طيبِ أُنْسِنا ... بِها ونَنالَ الجمعَ بعدَ شَتاتِ[1]

هذه بعض الاتجاهات في الزهد والتصوف في شعر المرتحلين سواء كانوا متمثلين للزهد والتصوف أو واصفين له وموردينه غرضاً من أغراضهم، لكننا لا نجد في هذا الشعر ما يربط بين معانيه الدينية العميقة وبين ما يلاقي الشعراء من ضنك الارتحال والشكوى والغربة، لما يجمع بين الاتجاهين من ألم وابتعاد عزلة، ولا شك أن الزهد والتصوف يشكلان مناخاً خصباً للتعبير عن هذه المعاني التي عاناها الشعراء المرتحلون نتيجة البُعد عن الوطن.

اللهو والمجون

كثرت الأشعار التي تصف مجالس اللهو والغناء، وما يجري فيها من شرب الخمر والاختلاط بالنساء، والتغزل بالغلمان، وفي حين كانت ظروف الشدائد والمحن وتفاقم الأخطار، بالإضافة إلى شعور المرتحلين بألم الغربة ومعاناة البُعد عن الوطن تؤدي إلى

---

(1) الديوان، 432.

ازدياد النزعة إلى الزهد والتصوف، كانت هذه الظروف نفسها تؤدي إلى اتجاه آخر نحو اللهو والمجون، حيث كان أصحاب هذا الاتجاه يرون أن الحياة قصيرة فليعبّوا من ملذاتها وليستمتعوا بأوقاتها القصيرة ما يستطيعون، فالآلام في زمنهم كثيرة وطويلة.

وقد تفاعل الشعراء المرتحلون مع هذا التيار اللاهي في مصر والشام، وتبادلوا مع الشعراء المشارقة وصف مظاهره، إذ كانت الطبيعة من حولهم وما تبعثه في النفس من جمال تصلح لأن تكون مواطن لمجالس أنسهم ولهوهم، وقد بيّنا بعض جوانب من هذه المجالس ووصف ما يجري فيها عند الحديث عن وصف المظاهر الحضارية في المشرق من متنزهات وبرك، وفي بعض مطارحات الأندلسيين مع المشارقة وما يتبادلونه من الغزل ووصف الغلمان، لكننا نورد هنا مواضع أخرى تدعّم هذا الاتجاه.

يدعو ابن سعيد إلى اغتنام زمن اللذات وشرب الخمر في روضة غنّاء تخفق أغصانها طرباً، وتتفتح أزهارها التي كحلتها الشمس إشراقاً، يقول:

إذا الغصون غَدَتْ خفّاقَةَ العَذَبِ ... فاسجُد هُديتَ إلى الكاساتِ واقتربِ
وطارِحْ الوُرقَ في أوراقها طَرَباً ... ومِلْ إذا مالت الأغصانُ من طَرَبِ
وانهَضْ إلى أُمِّ أُنسٍ بنتِ دسكْرَةٍ ... تُجلى عليكَ بإكليلٍ من الذَهَبِ
وانظر إلى زينةِ الدُّنيا وزخرفِها ... في روضةٍ رقمتْها أنمُلُ السُّحُبِ
وللأزاهِرِ أحداقٌ مُحَدِّقَةٌ ... قد كحَّلَتْها يمينُ الشَّمسِ بالذَّهَبِ[1]

ونرى ابن حمزة القرطبي[2] يصف أحد المجاهرين بشرب الخمر غير آبه بما يترتب على ذلك من العقاب، مسمياً إياها بالعجوز لأن حدّها ثمانون جلدة، يقول:

عَذَلنا فلاناً على فِعْلِهِ ... ولُمناهُ في شُربِهِ للعَجوزْ
فقال: دعوني من أجلِها ... أنالُ أنا وأخي والعَجوزْ[3]

(1) الفوات، 3/ 105.
(2) انظر الملحق، الترجمة رقم 23.
(3) النفح، 2/ 374.

ولابن خروف النحوي[1] أبياتٌ يصف فيه حال كأس الخمر، يقول:

أنــــا جـــــسمٌ للحُميّــــا ... والحُميّــــــــــــــا لِيَ روحُ
بــــينَ أهـــلِ الظَّـــرْف أغـــدو ... كُـــــلَّ يـــــــومٍ وأروحُ[2]

ويمزج ابن الجنّان بين سكره من اللذات، وسكره من المدام التي تبدو بلونها المذهب كالشمس، فاجتمعت مع وجه محبوبه الذي يشبهه بالشمس فأصبح عنده شمسان يباهي بهما الأفق، يقول:

هــاتِ المُــدامَ فقــد نــاحَ الحَــمامُ عــلى ... هذا الظَّـلامِ وجيشُ الـصُّبح في الطَّلَبِ
لا أســـتفيقُ مـــن اللـــذّاتِ آونَـــةً ... مـا اهتـزَّت القُـضْبُ في مُخـضرَّةِ العَـذَبِ
والكــأسُ حُلَّتُهــا حمــراءُ مُذْهَبَــةٌ ... لكـــنْ أزرَّتَهـــا مـــن لؤلـــؤِ الحَبَـــبِ
إنْ تُهْـتُ بالـشمسِ يـا أفْـقَ الـسماءِ فـلي ... شمـسان، وجـه نـديمي وابنـةُ العَنَـبِ
قُـمْ سـقِّنيها وثغـرُ الـصبحِ مبتـسمٌ ... والليـلُ تبكيـهِ عـينُ البـدرِ بالـشُّهُبِ[3]

كما يثمل من سُكر الصبابة بين أدواح غوطة دمشق، حين تأتيه النسائم بأخبار المحبوب وتتلو عليه أحاديث الغرام، يقول:

خـــبرٌ بأنفـــاس الرِّيـــاحِ مُعَطَّـــرُ ... وافى شـــذاهُ فظلْـــتُ منـــه أسْـــكَرُ
وافى ومـــا في القـــومِ مـــن يـــدري بـــهِ ... إلاّ فتـــــى في حُبِّـــــهِ متنكِّــــرُ
تُـــتلى أحاديـــثُ الغَـــرامِ بقلبـــهِ ... ولـــسانُهُ عـــمّا بـــهِ يـــستخبرُ
حتـــى إذا غنّـــى لـــه الحـــادي بِهِـــمْ ... وسَرى لـــهُ مـــن نَـــشْرِ لـــيلى العنـــبرُ
هَـــزَّ المعـــاطِفَ ثـــمَّ راحَ مُوَلَّهـــاً ... نـــشوانَ في ذيـــلِ الـــصَّبابَةِ يعثُـــرُ

---

(1) انظر الملحق، الترجمة رقم 24.
(2) الوافي، 22/ 90.
(3) القدح، 208.

متهتّكـــاً في العاشـــقين كـــما تـــرى يبــدي الــذي يُخفيــه منــهُ ويُــضمِرُ[1]

وقد تغزل الشعراء في مجالسهم بالنساء والغلمان رابطين بين صفتهم وجمال عناصر الطبيعة من حولهم، من ذلك ما يصف به أثير الدين فتاةً وصفاً حسيّاً مشبهاً نظراتها بنفث السحر، ولين قدّها بالغصن وما تبعثه هذه الصفات في فؤاد الصبّ، يقول:

أسِــحْرٌ لتلـكَ العـينِ في القلـبِ أم وخْـزُ ولـينٌ لـذاك الجسمِ في اللَّمْـسِ أم خَـزُّ

وأُملــودُ ذاكَ القــدِّ أم أســمَرٌ غَــدا لــه أبــداً في قلــبِ عاشــقهِ هــزُّ

فتــاةٌ كــساها الحُــسْنُ أفخَــرَ حُلّــةٍ فــصارَ عليهــا مــن محاسِــنِها طَــرْزُ

وأهــدى إليهــا الغــصنُ لــينَ قوامِــهِ فــماسَ كــأنَّ الغــصنَ خــامرهُ العِــزُّ

يــضوعُ أديــمُ الأرضِ مــن نــشر طيبهــا ويخــضَرُّ مــن آثــارِ تُربتهــا الجُــرزُ

أصــابَتْ فــؤادَ الــصَبِّ منهــا بِنَظْــرةٍ فـلا رُقيـةٌ تُجـدي المُصابَ ولا حِـرْزُ[2]

ويصور أبو لحسن الميورقي افتتانه بقد المحبوب الذي بدا كغصن البان المورق، مأوّلاً قولته «لا»:

وذي هَيَــفٍ راقَ العيــونَ انثنــاؤهُ بقــدٍّ كريّــانٍ مــن البــان مُــوْرِقِ

كتبــتُ إليــه: هــل تجــودُ بــزورَةٍ فوقّــعَ «لا» خَــوفَ الرَّقيــبِ المُــصدِّقِ

فأيقنــتُ مــن «لا» بالعنــاقِ تفــاؤلاً كــما اعتنقــتْ «لا» ثُــمَّ لم تتفــرَّقِ[3]

ويصف أبو الربيع سليمان اليُنيني[4] أثر جفون المحبوب فيه، ونفاذها إلى قلبه كالسحر، فيمتثل لأمره:

رشــأ أصــدِّقُهُ وكــاذِبُ وَعْــدِهِ يُبــدي لعاشــقِهِ أدلَّــةَ عُــذرِهِ

---

(1) القدح، 207.

(2) الديوان، 207-208.

(3) النفح، 2/ 663.

(4) انظر الملحق، الترجمة رقم 10.

لـــــولا تحدّيـــــه بآيـــــةٍ سِـــــحْرِهِ ... مـــا كنـــتُ ممتـــثلاً شريعـــةَ أمـــرِهِ
ظهـــــرتْ نُبـــوَّةُ حُـــسْنِهِ في فـــترةٍ ... مـــن جَفنِــهِ وضَـــلالةٍ مـــن شَـــعْرِهِ[1]

كما كثُرَ الغزل بالذكر في هذا العصر، فقد كثر الغلمان في مجالسهم نتيجة سبي الحروب الصليبية، وما كان يجلبه تجار الرقيق من أطفال الأتراك والفرنج[2]، فكانوا يرافقونهم في رواحهم وغدوهم، وينتشرون في الأماكن العامة كالحمامات والأسواق، وقد وصفوهم في جميع أحوالهم وصفاتهم.

يقول محمد بن أحمد الصابوني[3] في وصف ساق:

يـــسقي الرَّحيـــقَ المختـــومَ مـــن يَـــدِهِ ... ختامُـــــهُ مـــــن عِـــــذارِهِ مِـــسْكُ
أَسَـــبلَ دمعـــــي مــــــن صَـــدِّهِ دُرَراً ... جـــسمي لفـــرطِ الـــضَّنا لهـــا سِـــلْكُ[4]

ويصف ابن خروف القرطبي راقصاً يتمايل فيلعب بقلوب وعقول محبّيه لحسنه:

ومُنَـــوَّعِ الحركـــاتِ يلعَـــبُ بـــالنُّهى ... لَـــبِسَ المحاسِـــنَ عنـــد خَلْـــعِ لباسِـــهِ
بالعقْـــلِ يلْعَـــبُ مقـــبلاً أو مُـــدبراً ... كالـــدَّهرِ يلْعَـــبُ كيـــف شـــاءَ بناسِـــهِ[5]

وحمل العذار معنىً خاصاً عند الشعراء، ويشبه علي بن أحمد القادسي[6] خد الغلام وعليه العذار بالماء والظل، يقول:

ذاكَ العِـــــــــــذارُ المُطِـــــــــلُّ ... دمــــــــي عليـــــــه يُطَـــــــلّ
كـــــــأنَّما الخـــــــدُّ مـــــــاءٌ ... وقــــد جـــــرى فيـــــه ظِـــــلّ[7]

---

(1) النفح، 2/ 381.
(2) محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف بمصر، 1967، ص238.
(3) انظر الملحق، الترجمة رقم 37.
(4) الفوات، 3/ 285.
(5) رايات المبرزين، 139.
(6) انظر الملحق، الترجمة رقم 19.
(7) القدح، 213.

ويرد محمد بن عبدالله المرسي على الذين يعيبون العذار، معلّلاً ذلك:

قــــالوا فــــلانٌ قـــد أزالَ بهـــاءَهُ ذاكَ العِـــذارُ وكـــانَ بـــدرَ تمـــامِ
فـــأجبتُهُمْ بـــل زادَ نـــورُ بهائِـــهِ ولـــذا تـــضاعَفَ فيـــه فَـــرطُ غَرامـــي
إسْتقـــصرتْ ألحاظُـــهُ فتكاتِهـــا فـــأتى العِـــذارُ يَمُـــدُّها بِـــسهامِ[1]

كما كثر وصف الشعراء لأصحاب المهن من الغلمان، رابطين بين طبيعة مهنهم وبين ما يفعلونه بقلوب محبيهم يقول ابن خروف القرطبي في غلام خياط رابطاً بين وخز إبرته في الثياب، ووخز أشفاره في القلوب:

بنـــي المُغـــيرة لي في حـــيِّكم رَشَـــأٌ ظِـــلالُ سُـــمْرِكُمُ تُغنيـــهِ عـــن سَـــمُرهْ
يُزهـــى بـــه فـــرسُ الكـــرسيُّ مـــن بَطَـــلٍ بـــإبرةٍ هـــي مثـــلُ الهُـــدْبِ مـــن شُـــفُرِهْ
إذا تـــألّقَ عنهـــا الخـــيطُ تحـــسَبُها شـــهابَ رَجْـــمٍ جـــرى والنُّـــورُ في أثَـــرِهْ[2]

ولأثير الدين في غلام نوتيّ (ملاّح) يجدّف في قولب محبّيه مع تجديفه بالماء، يقول:

كَلِفـــتُ بنـــوتيّ كـــأنَّ قوامَـــهُ إذا ينثنـــي خَـــوْطٌ مـــن البـــانِ نـــاعِمُ
مجاذِفُـــهُ في كـــلِّ قلـــبٍ مجـــاذِبٌ وهزّاتُـــهُ للعاشـــقينَ هـــزائِمُ[3]

ويصف ابن خروف القرطبي غلاماً قواساً، وقد دارت في يده القوس فأصابت إحدى ثناياه، فيعلل ذلك بحسدها له، لأنه البدر وهي الهلال:

لا زُرْتِ يـــا زوراءُ كـــفَّ حُلاحِـــلٍ[4] يـــومَ الهيـــاج ولا رَمَيْـــتِ نِبـــالا
نازعـــتِ عنـــد الرَّمـــي مُقلـــةَ شـــادِنٍ تُـــصمي القلـــوبَ ومـــا تغـــبُّ نِـــصالا
وقَرَعْـــتِ مـــا يُحمـــى بِـــهِ حَـــسَداً لـــه لمـــا غـــدا بـــدراً ولُحْـــتِ هِـــلالا

(1) معجم البلدان، 18/ 212. النفح، 2/ 242.
(2) الغصون اليانعة، ص140-141.
(3) الديوان، 477.
(4) الحلاحل: الثابت الشجاع. لسان العرب، مادة: حَلَلَ.

فغـــدت جُمانـــةُ سِـــنِّه مُرجانـــةً   وغـــدا قُـــراحُ رُضـــابِهِ جريـــالا[1]

وقد تغزل الشعراء بأصحاب العاهات والأمراض من الغلمان ممتدحين هذه الصفات، وسنأتي إلى بيان بعض جوانب هذه النزعة في الدراسة الفنية إن شاء الله.

لم تكد تخرج معاني اللهو والمجون في شعر المرتحلين عن السمات العامة لمعاني شعر الشعراء في مصر والشام في ذلك العصر، بل تمثل معها اتجاهاً متكاملاً، وإن كانت بعض المقطوعات التي وردت للشعراء المرتحلين في وصف المظاهر الطبيعية والمجالس والمتنزهات قد حملت سمة خاصة لديهم في القدرة على نسج الصورة الحسية الداخلية في تركيب دقيق متكامل تعبر عنه عناصر الطبيعة وتمتزج به.

موضوعات متفرقة

وصف الرحلة إلى المشرق في شعر المرتحلين

عثرت الباحثة على قصيدة مخطوطة[2] من نظم علم الدين القاسم بن أحمد المالَقي[3] يصف فيها رحلته إلى المشرق، محدِّداً زمنها، والمكان الذي خرج مرتحلاً منه وعمره حينما ارتحل، ذاكراً من التقى بهم من العلماء، معدِّداً فضائلهم، ولقيمة هذه القصيدة في أنها كشف عن مخطوط يتعلق بتاريخ الأندلس، وأحوالها التي أدت إلى ارتحال الأدباء، وتأكيدها لما سبق أن أوردناه عن الارتحال للمشرق، تقف الباحثة عند معظم أبياتها التي قد لا ترقى إلى مستوى فني مقبول، ولكن لأهميتها الموضوعية.

يبين علم الدين هدفه الرئيسي من الارتحال، وهو طلب العلم، لا سيما المتعلق بكتاب الله تعالى، يقول:

---

(1) الذيل والتكملة، ج5، ق1، ص398. جريال: خمر شديدة الحمرة. لسان العرب، مادة: جَرَلَ.

(2) انظر: قصيدة من نظم علم الدين القاسم بن أحمد، مجاميع مخطوط رقم 3818، مكتبة الأسد الوطنية دمشق. ورقة (112-114).

(3) انظر الملحق، الترجمة رقم (32).

وكــان مــن قــصتي أن كــانَ لي أمَــلٌ		في العِلْــمِ مــع همَّــةٍ مــن أشْرَفِ الهِمَــمِ
لا ســـيَّما في كتـــاب الله إنَّ لـــــه		فــضلاً عــلى كُــلِّ متلــوٍّ ومُرتَــسَمِ

وقد كثُرَ المرتحلون في طلب العلم، بأعداد يصعُبُ حصرها، فالمشرق أساس انطلاق العلوم، بالإضافة إلى وجود الأعلام والمشاهير في العلوم كافة، يقول:

شـــمَّرتُ في طَلَـــبٍ للعِلـــم مُعْتَمِـــداً		روايـــةً وقـــراءاتٍ عـــلى أُمَـــمِ
حـــصَّلْتُ أكـــبَرَ مـــا يـــروي مـــشايخُنا		مـــن الغَريـــبِ مـــع المـــشهورِ كـــالعَلَمِ

ويبين أنه لم يتجه للمشرق لطلب العلم والحج وزيارة بيت الله الحرام، وهما من أهم أسباب الارتحال، إلا بعد أن حصّل العلوم في المغرب:

فحـــينَ مـــا صـــحّ لي أعـــلامُ مغربنـــا		أحببـــتُ رؤيـــةَ مـــن بالـــشَّرقِ مـــن عَلَـــمِ
خرجـــتُ مـــن بلـــدةٍ تُـــسمى بمُرســـيةٍ		أبغـــي زيـــارَةَ بيـــتِ الله والحَـــرَمِ

ثم يشير إلى عمره حينما خرج مفارقاً أهله وأصحابه، مواجهاً الصعابَ، والمشقة:

فارَقـــتُ أهـــلي ومـــن قـــد كُنْـــتُ آلفُـــهُ		مـــن الأقـــارِبِ والأصـــحابِ والخَـــدَمِ
والعمـــرُ يومئـــذٍ عـــشرون تتبُعهـــا		ثلاثـــةٌ قُـــضِيَت في الخَفْـــضِ والـــنِّعَمِ
فتـــارَةً مجمَـــعَ البحـــرين أقطَعُـــه		وتـــارَةٌ أخـــرقَ الأرضَـــينِ بالقَـــدَمِ

ويبدو الشاعر معتزاً بحياته المنعَّمة في الأندلس، مقارِناً إياها بما يلاقيه من ضنك ومشقة في رحلته.

ثم يبين مسارَ رحلته، ومدن المشرق التي مرّ بها، ممتدحاً صفاتها:

مـــن شَرْقِ أنـــدلسٍ كـــانَ المـــسيرُ إلى		فسطاطِ مصرٍ فأرض الشام ذي الأكَـمِ[1]
إلى دمـــشقَ التـــي مـــن حُـــسنِها فَـــضُلَتْ		عـــلى الـــبلادِ وحتّـــى أختِهـــا إرَمِ
إلى حمـــاةَ ومـــن قُـــدّامِها حَلَـــبٌ		إلى العـــراقِ ودارِ العِـــزِّ والحَـــشَمِ

(1) الأكم: التلال: جمع أكَمَه، المعجم الوسيط، مادة: أكَمَ.

ويشيد الشاعر بالعلماء الذين التقاهم، وأخذ عنهم علمه، ففي مصر أخذ رواية القراءات عن شيخ الشيوخ الذي لم ينوّه باسمه، والتقى في مدن الشام بجلّة من العلماء والفضلاء، خاصة أبا اليُمن الذي قرأ عليه كتاب سيبويه في دمشق:

فحينَ جِئتُ إلى مصرٍ لقيتُ بها ... شيخَ الشيوخ أباً للجودِ والكَرَمِ
فلم أزَلْ راوياً عنه قراءَته ... بالسَّبع مع كتْبها المشهورَةِ اللَّقَمِ[1]
ثَمَّتْ أتيتُ دمشق الشام معتضداً ... زيداً أبا اليمن تاج الدين ذا الحلمِ
حتّى قرأتُ عليه أفخَرَ الكُتُبِ ... وسيبويهِ الجليلِ القدْرِ والقِيَمِ

ثم يستكمل بعلماء حلب وحماة، كبهاء الدين بن شدّاد، قاضي حلب، والآمدي[2] الفقيه، الذي لازمه مدةً:

وقد لقيتُ ابنَ شدّادٍ لدى حَلَبٍ ... وفي حماةَ رئيسَ العِلْم والحِكَمِ
الآمديَّ الذي سارَتْ مباحِثُهُ ... شَرقاً غرباً وما يُتلى على قِدَمِ
لازمتُهُ مدَّةً أقرا دقائقَهُ ... ومنتهى سُؤلِهِ في البحث والفَهِمِ

ثم ينتقل للحديث عن فضلاء بغداد، مما لا يدخل ضمن هذه الدراسة لتعلقها بمصر والشام، ويبين بعد ذلك مصاحبته لكل إمام من أئمة ومشاهير وعلماء المشرق، الذين بلغت عدتهم عشرين، لكن كثرتهم قصرت عن تسميتهم جميعاً:

عشرون شيخاً إماماً قد لقيتُهُمُ ... لم أُسْمِهِمْ كلَّهُم خوفاً من السَّأمِ
وهم مشاهيرُ من بالشرقِ يومئذٍ ... وهم أئمَّةُ كلِّ العُربِ والعَجَمِ

ولا بد للشاعر المرتحل أن يتكرر حديثه عن الغربة في كل مناسبة، إذ كان العلم ومن لقيهم من العلماء، من الأمور التي تجلو غربته التي لا ينسى:

---

(1) اللَّقم: المعظم، ولَقَمُ الطريقِ معظمها، لسان العرب، مادة: لَقَم.

(2) الآمدي، سيف الدين علي بن محمد بن سالم، أصله من ديار بكر، تعلم في بغداد والشام، انتقل للقاهرة، ودرّس بها، صنّف في أصول الفقه والدين والمنطق، استوطن حماة وانتقل لدمشق وتوفي بها سنة (631هـ). انظر، وفيات الأعيان، 3/ 293-294. الشذرات، 5/ 144.

وكنــت أجلــو بهــم همّــي ومُغــتَربي كــأنني بــينَ أهــلِ بَعْــدُ لم أَرِمِ

ويبين أن رحلته طويلة، كثيرة التجارب والأحداث، بما لا يستطيع أن يشرحه في أبيات:

فهــذه رحلتــي لــو كُنْــتُ شــارِحَ مــا لاَقَيْــتُ في الأرضِ مــن خَلْقٍ ومــن أُمَــمِ

لكُنــتَ تعجــبُ مــن إحكــامِ صــانِعِهِمْ ســبحانه وتعــالى منــشئَ الــرِّمَمِ

ثم ينتقل إلى الحديث عن أهل زمانه شاكياً، ومظهراً ضعفه وقلة حيلته. ونزوعه إلى الورع والتقوى وقراءة القرآن في انتظار أجله، منتهياً بقصيدته نهاية وعظية ابتهالية، ومختتماً إيّاها بتاريخ نظمها وهو:

تــسعٌ وخمــسونَ مــع ســتٍ لهــا مئــةٌ تــاريخُ كِتْبَتِهــا في الأشــهُرِ الحُــرُمِ

نوادر وطرائف ومداعبات مع المشارقة

وردت بعض أشعار للمرتحلين فيها من الطرافة والدعابة، ما يجعلها خفيفة على السمع، قريبة للنفس، تكشف عن بعض أحوالهم الاجتماعية، وعلاقاتهم مع المشارقة وما فيها من مودة ولطافة.

فابن سعيد يحمَدُ عدم زواجه الذي قد يشغَلُه عن طلب العلم والترحال والاستمتاع بأزمان اللهو، بسبب تنغيص الزوجة بمطالبها التي لا تنتهي:

أنــا شــاعرٌ أهــوى الــتخلّي دون مــا زوجٍ لكــيما تخلُــصُ الأفكــارُ

لــو كنــتُ ذا زوج لكنــتُ منغَّــصاً في كــل حــينٍ رزقهــا أمتــارُ[1]

دَعنــي أرُح طــولَ التغــرُّبِ خــاطِري حتّــى أعــودَ ويــستقرَّ قــرارُ

مهــما أرُم مــن دونِ زوجٍ لم أكــنْ كَــلاً ورزقــي دائــماً مــدرارُ

وإذا خرجــتُ لفرجــةٍ هُنيتُهــا لا صَــنْعَةٌ ضــاعَتْ ولا تــذكارُ[2]

---

(1) أمتار: يطلب الميرة أو الطعام. لسان العرب، مادة: مَيَرَ.

(2) النفح، 2/ 268.

ومن طريف شعره وقد داعَبه أحد الفقهاء وسرق سكينَه من حرز قوله:

أيـا سـارِقاً ملكـاً مـصوناً ولم يَجِـبْ ... عـلى يـدِهِ قطـعٌ وفيـه نـصابُ
سـتندِبُهُ الأقـلامُ عنـد عثارِهـا ... ويبكيـهِ إن يَعْـدُ الـصَّوابَ كتـابُ[1]

ويكتب ابن خروف إلى قاضي القضاة محيي الدين ابن الزكي، يستقيله من مشارفة البيمارستان النوري، وكان بوابه يسمّى السِّيد، وهو في اللغة الذئب:

مـولايَ مـولايَ أجِـرني فقـدْ ... أصـبَحْتُ في دارِ الأسـى والحُتـوفْ
ولـيسَ لي صـبرٌ عـلى منـزِلٍ ... بوّابُـهُ الـسِّيدِ وجـدّي خَـروفْ[2]

ويستهدي ابن خروف فروةَ خراف من القاضي بهاء الدين بن شداد، لأنها جلد أبيه كما يقول:

بهـاءَ الـدينِ والـدُّنيا ... ونـورَ المجـدِ والحَـسَبِ
طلبـتُ مخافَـةَ الأنـواءِ مـن نُعـماكَ جلـدَ أبي
وفـضلُكَ عـالمٌ أنّي ... خـروفٌ بـارعُ الأدَبِ[3]

وله أبيات أخرى في الغرضِ نفسِه[4].

ومن طريف ما جرى بين أثير الدين وصدر الدين ابن الوكيل[5]، أن أثير الدين أبا حيّان حضر لزيارته، فلم يجده في منزله، فكتب بالجبس على عادة المصريين «حضر أبو حيّان» وكانت الكتابة على مصراعِ الباب، فلما حضر صدر الدين رأى اسم الشيخ، فكتب إليه:

---

(1) النفح، ص266.
(2) الوافي، 22/ 91.
(3) المصدر السابق، 22/ 92.
(4) انظر الذيل والتكملة، ج5، ق1/ 397.
(5) ابن الوكيل: محمد بن عمر بن مكي، أبو عبدالله صدر الدين ابن المرحِّل، شاعر من العلماء بالفقه، ولد بدمياط سنة (665هـ) وانتقل مع أبيه إلى دمشق، ولي مشيخة دار الحديث بدمشق، توفي في القاهرة سنة (717هـ)ز انظر: الفوات، 4/ 13-26. البداية والنهاية، 14/ 82-83.

قالوا: أبو حيّانَ غيرَ مُدافعِ ملِكُ النحاةِ فقُلتُ بالإجماعِ
اسمُ الملوكِ على النقودِ وإنني شاهدتُ كُنيتَهُ على المصراعِ[1]

ولأبي حيان أبيات يصف فيها بعض ذوي العاهات، يرسُمُ من خلالها صوراً كاريكاتورية لا تخلو من مداعبات معهم، واستحسان صفاتهم[2].

الشكوى وعدم الرضا عن العيش

لعل نزعة الشكوى لا يخلو منها أي عصر، ولكنها ارتبطت عند الشعراء المرتحلين في معظم مواضعها بالغربة، والبُعد عن الأهل والوطن، وقد أشرنا إلى بعض صورها عند الحديث عن الحنين والغربة[3]، لكننا نشير إلى بعضها الآخر مما قد لا يكون لها ارتباط مباشر بالغربة، وإنما بما نتج عنها من اختلاط بالناس، والشكوى من سلوكاتهم، وتعليل ذلك في معظم الأحيان بالبُعد عن الوطن، فرضيّ الدين محمد بن يوسف يبدو منغّص العيش، لأنه لم يسكن إلى أحد في غير بلده، يقول:

منغَّصُ العيشِ لا يأوي إلى دَعَةٍ من كانَ ذا بَلَدٍ أو كانَ ذا وَلَدِ
والسّاكنُ النفسِ من لم ترضَ همَّتُهُ سُكنى بلادٍ ولم يسكُن إلى أحَدِ[4]

ويبدو الشاعر في موضع آخر محتداً، حتى يصل به الأمر إلى تمنّي الموت لسوء أخلاق من يجاورهم كما يقول:

لولا بناتي وسيئاتي لطرتُ شوقاً إلى المماتِ
لأنني في جِوارِ قَومٍ بغَّضني قربُهُم حياتي[5]

ويشكو أثير الدين كذلك أهل عصره، لانعدام الأوفياء الذين طلبهم كثيراً، لكنه لم يعاين منهم إلا الذئاب والجهال، يقول:

(1) انظر الأبيات والحادثة، الوافي، 5/ 272-273. النفح، 2/ 544.
(2) انظر: الوافي، 5/ 274-276. النفح، 2/ 547-548.
(3) انظر الجزء المتعلق بالحنين والغربة من الدراسة، ص72-83.
(4) النفح، 2/ 377.
(5) المصدر السابق، ص377.

حَلَبْتُ الدَّهرَ أشطُرَهُ زماناً وأغناني العِيانُ عن السُّؤالِ
فما أبصرتُ من خِلٍّ وفيٍّ ولا ألفيتُ مشكورَ الخِلالِ
ذئابٌ في ثيابٍ قد تبدَّتْ لرائيها بأشكالِ الرِّجالِ
ومن يكُ يدَّعي منهمْ صلاحاً فَزِنْديقٌ تغلغلَ في الضَّلالِ
ترى الجهّالَ تتبَعُهُ وترضى مُشاركةً بأهلٍ أو بمالِ
فينهَبُ مالَهُم ويصيبُ منهمْ نساءهُمُ بمقبوحِ الفِعالِ[1]

ويؤثر أبو حيّان العزلة والانفراد عن الناس، ومنادمة الكتب لا سيما القرآن الكريم، بعدما تتكرر بين الناس صور المراءاة، ويصبح همهم جمع المال وطلب لدنيا، وينعدم فيهم الصديق المخلص، فيستغني بالله عنهم:

أعاذِلُ ذَرني وانفرادي عن الوَرى فلستُ أرى فيهم صديقاً مُصافِيا
نداماي كُتْبٌ أستفيدُ علومَها أحبّايَ تُغني عن لقائي الأعادِيا
وآنسُها القرآنُ فهو الذي بِهِ نجاتي إذا فكرتُ أو كنتُ تاليا
لقدْ جُلْتُ في غربِ البلاد وشرقِها أنقِّبُ عمَّن كانَ لله داعِيا
فَلَمْ أرَ إلاّ طالباً لرياسةٍ وجمّاعَ أموالٍ وشيخاً مُرائِيا
قبضْتُ يدي عنهُمْ وآثرْتُ عُزلَةً عن الناسِ واستغنيتُ بالله كافيا[2]

لكن هؤلاء الأعداء نفعوه من حيث لا يدري، فكان سمّهم دواءً:

من خصَّ بالوُدِّ الصِّحابَ فإنَّني أحبو بخالِصِ وِدِّيَ الأعداءَ
جعلوا التنافُسَ في المعالي دَيدَني حتى وطئتُ بأخمصي الجَوزاءَ
ونَعَوْا إليَّ مثالبي فحذرتُها ونفيتُ عن أخلاقيَ الأقذاءَ
ولربَّما انتَفَعَ الفتى بعدُوِّهِ كالسُّمِّ أحياناً يكونُ دواءَ[3]

---

(1) النفح، 2/ 567.
(2) الديوان، ص489-490.
(3) النفح، 2/ 568. لم ترد الأبيات في ديوانه.

ويبقى بعض الشعراء غير راضين عن عيشهم، حتى بعد مرور سنوات طويلة على غربتهم وبُعدهم عن الوطن، فها هو محمد بن سراقة يبدو متحسراً على ضياع الأماني بعد مرور خمس وعشرين سنة، يقول:

إلى كَمْ أمنّي النفسَ ما لا تنالُهُ ... فيذهَبُ عمري والأمانيُّ لا تُقضى

وقد مرَّ لي خمسٌ وعشرون حِجَّةً ... ولم أرْضَ فيها عيشتي فمتى أرضى[1]

هذه بعض صور الشكوى التي نتجت في الغالب عن الغربة والارتحال، فيرى الشاعر أن من يبغضهم إنما كانوا لأنه في غير بلده، فغدا غير راضٍ عن عيشه المليء بالمنغِّصات والضيق، لظروف الرحيل، وظروف العصر المضطربة نتيجة الحروب والفتن وأثرها على الحياة الاجتماعية.

صور من العلاقات الاجتماعية في شعر المرتحلين:

تعدُّ المناسبات الاجتماعية صورة من صور العلاقات التي تنشأ بين أفراد المجتمع في الظروف المختلفة، وقيمة تناول بعض صورها في هذا البحث أنها تعطي انطباعاً ملموساً، وتصوراً للترابط الودّي بين المشارقة والمرتحلين من الأندلسيين. فقد تبودلت بينهما التهاني في الولادة والزواج وتولّي المناصب، وغيرها من المناسبات.

فقد هنّأ أثير الدين أبو حيان ابن جمّاعة[2]، عند ولادة ابنه عمر بعد بنتين، مشيداً بتسميته، وبمناقب والده التي سيورثها لابنه، يقول:

حُبيتَ بريحانَتيْ روضةٍ ... وبعدَهُما جاءَ نَجْلٌ أغرّ

وسمَّيْتَهُ اسمَ إمامٍ إذا ... رآهُ أبو مرَّةٍ[3] منه فرّ

---

(1) عيون التواريخ، 20/ 314. الوافي، 1/ 208.

(2) ابن جمّاعة: شيخ الشيوخ عبدالعزيز بن محمد بن منصور بن خلف، ولد سنة 586هـ، بدمشق وسكنها مدة، برع في الأدب وخاصة في نظم الشعر، توفي سنة 662هـ. انظر: الفوات، 2/ 354-355. النجوم الزاهرة، 7/ 214-215.

(3) كنية إبليس، لسان العرب، مادة: مرر.

ولا عَجَبٌ منكَ عبدَالعزيزِ إذا كان نجلُكَ سُمّي عُمَرْ
تفرَّعتُما من إمام الهُدى وبدرِ الدُّجى ورئيسِ البَشَرْ
فلا زالَ يوضحُ سُبْلَ الهُدى ولا زلتُما تقفُوانِ الأثَرْ[1]

وله يخاطب قاضي القضاة شمس الدين السروجي الحنفي[2] مورياً باسمه مهنئاً، بعودته إلى منصب القضاء سنة 698هـ، بعدما كان يتطلع إليه رجلٌ يُدعى نجمَ الدين:

ذوو العِلمِ في الدنيا نجومٌ زواهرٌ وإنكَ فيها الشمسُ حقاً بلا لَبْسِ
إذا لُحْتَ أخفى نورُكُم كلَّ نيِّرٍ ألَمْ تَرَ أن النجْمَ يخفى مع الشمسِ[3]

ولأحمد بن نصر المُعلّى[4] شعر يهنئ فيه لقاضي زين الدين الأسدي[5] بولاية القضاء بحلب، ويشيد بتقاه وفضائله وتقدمه، وهي أهم الصفات التي تليق بهذا المنصب:

يهنى المناصبَ إذْ عَلَوْتَ أجلَّها ولكَ التقى والدين والتحصيلُ
شهدَتْ صدورُ العصرِ أنكَ صدرُهُم يا مَن له الإكرامُ والتبجيلُ
زيَّنْتَ دينَ الله يا ابن وليِّهِ تلكَ الفضائلُ منه والتفضيلُ[6]

---

(1) الديوان، ص450.

(2) شمس الدين السروجي: قاضي قضاة الحنفية، شمس الدين أحمد السروجي، ولي القضاء سنة 692هـ، ثم وليه قاضي يسمى حسام الدين ثم أعيد إليه شمس الدين سنة 698هـ. انظر: النجوم الزاهرة، 7/ 128-129.

(3) الديوان، ص236.

(4) انظر الملحق، الترجمة رقم (3).

(5) القاضي زين الدين: عبدالله بن عبدالرحمن بن علوان الأسدي، تولى قضاء حلب بعد ابن شداد، كان رئيساً عالماً فاضلاً، توفي سنة 635هـ. البداية والنهاية، 13/ 162.

(6) عقود الجمان (مخطوط)، ج1، ورقة 232.

ويقول أثير الدين، مهنئاً بزواج علي ابن قاضي القضاة شمس الدين السروجي، أخت بدر الدين بن جمّاعة[1]، مشيداً بمناقب كل منهما، داعياً لهما:

هنيئــاً بتــأليفِ غريــب نظامُــهُ　　لقَـدْ حـارَ في أوصـافِهِ نظـمُ عـارِفِ
غَـدَتْ شـمسَ حُسنٍ بنتُ بـدرٍ سيادَةً　　تُـزَفُّ لبـدرٍ نجـلِ شـمسِ معـارِفِ
سـميّان للطهـرِ البتـول وللرِّضـا　　عـليٌّ ونجـلا الأكـرمينَ الغطـارِفِ[2]
فـدام عـليٌّ عـاليَ الجـدِّ سَـيِّداً　　ولا زالَ في ظـلّ مـن العـيش وارِفِ[3]

كما هنأ الشعراء بالخلاص من الاعتقال، من ذلك ما يقوله أحمد بن نصر مهنئاً شهابَ الدين أبا العباس[4] بخلاص ولديه من الأسر، وجمع شمله بهما داعياً له:

يـا خـيرَ معتمَـد وأفـضَلَ سـيِّدٍ　　ومـن الـسُّعودِ سـجلُّهُ قـد أُسـعِدا
يـا نخبـةَ الإسـلام يـا خـيرَ الـورى　　أصـبحتَ للـدّينِ القـويم مُؤيِّـدا
فاهنـأ لجمـع الـشَّملِ عـشتَ مُؤيَّـداً　　مـا دامَ بالأيْـكِ الحـمامُ مَغـرِّدا
واللهُ يمنحُـكَ الجنـانَ بمَنِّـهِ　　وزيـادةً جـوداً حـساناً خُـرَّدا[5]

هذه بعض الصور التي تمثل جانباً خاصاً ومتنوعاً من العلاقات الاجتماعية في مناسبات اجتماعية مختلفة كالميلاد والزواج وتولي المناصب والخلاص من الأسر.

---

(1) بدر الدين بن جمّاعة: محمد بن إبراهيم بن سعد، قاضي القضاة، وُلد بحماة سنة 639. ولي خطابة الجامع الأموي، وولي قضاء مصر سنة 690هـ (ت 733هـ). الفوات، 3/ 297. النجوم الزاهرة، 9/ 298-299.

(2) الغَطارِف: مفردها الغِطريف، والغُطارِف: وهو السيد الشريف السخي. لسان العرب، مادة غطرف.

(3) الديوان، ص299-300.

(4) شهاب الدين أبو العباس: عبدالسلام بن المطهر بن أبي عصرون، من القائمين على المدرسة المنسوبة لبني عصرون بحلب، وكان قد خصص لأحمد بن نصر جامكية، من أعلام القرن السابع الهجري. العقود، ج1، ورقة 231.

(5) عقود الجمان، ج1، ورقة 231-232.

الفصل الثالث
الدراسة الفنية

الصورة الشعرية

أكثر الشعراء المرتحلون من رسم الصور في مقطوعاتهم وقصائدهم، فجاءت معبرة عما يختلج في نفوسهم، مما ولّد فيها جمالاً تلقائياً، يدركه الذوق. وتكمن قيمة دراسة الصورة الشعرية في أنها تحكي ما وراء السطور، وما لم يرد الشعراء قوله مباشرة لأن في «الخيال الراقي روعة من نسمات الحقيقة، (ولو قيلت الحقائق) جافة من غير أن يعمد (الشاعر) إلى الخيال في تشبيهاته، لما كان لقوله التأثير، ... فهذا الشعر يعبر عن حقائق نفسية، هي في نفسها جمال»[1].

لقد اهتم شعراء العصر بالصورة اهتماماً بالغاً، وتنوعت صورهم، وجاءت في شعرهم صور تقليدية كثيرة، حيث شبهت «العيون الجميلة بعيون المها» و«بياض الوجه بالصبح» و«المشية بتمايل الغصن» و«الهلال بالزورق» و«الليل بالبحر». وحشدوا الصور والتشبيهات في شعرهم، باعتبار ذلك شكلاً من أشكال الإجادة ومقياساً لمستوى القدرة الفنية لدى الشاعر في هذا العصر. وربما كان قرب مأخذها، بالإضافة إلى قربها من الموروث الشعري القديم سبباً للإكثار منها، خاصة أنها لا تحتاج إلى إعمال الفكر والابتكار، فيأخذها الشاعر من محفوظة مباشرة.

---

(1) ابن سعيد المغربي، المرقصات المطربات، دار حمد ومحيو، بيروت 1973، ص211، 212.

الفَصْلُ الثَّانِي

موضوعات شعر النازحين

علاقة الشعراء بالملوك والسلاطين وكبار رجال الدولة

كان ارتحال الشعراء الأندلسيين من بلادهم، نتيجة اختلال الأوضاع السياسية في الأندلس وغير ذلك من العوامل كما بيّنا في الفصل الأول، وقد ساهمت بيئة مصر والشام الجديدة في توجيه شعر هؤلاء وجهات معينة، نتيجة للأحوال التي عايشوها في موطنهم الجديد. فقد أكثروا من مدح الأمراء والحكام والقضاة والوزراء طالبين منهم النصرة في ديار غربتهم. كما تفاعل الشعراء مع الأحداث السياسية في المشرق، وعبّروا عن نقمتهم على الصليبيين، وامتدحوا قواد المشرق من خلال ذلك.

امتدح الشعراء ملوك الأيوبيين الذين كانت لهم اليد الطُّولى في الإحسان إليهم، بعد أن تباعدت بهم الديار، وأضحوا غرباء ينشدون منهم رفع الضيم فكانوا أوفياء لفضلهم، لديهم الولاء لهم، كما يقول ابن دحية في امتداح الملك الكامل بن العادل الأيوبي (ت 635هـ) بكمال الأوصاف، وعظم الملك وإقامة العدل:

شجَتْني شواجٍ في الغصونِ سواجعُ ... ففاضَتْ هوامٍ للجُفونِ هوامعُ

ولا حاكِمٌ أرضاه بيني وبينها ... سوى حاكمٍ دهري له اليومَ طائعُ

يدافعُ عني الضيمَ قائِمُ سيفِهِ ... إذا عزَّ من للضيم عني يُدافعُ

هو الكامِلُ الأوصافِ والملكُ الذي ... تشيرُ إليه بالكمالِ الأصابعُ

رسم الشعراء صوراً كثيرة ومتنوعة للطبيعة استمت بالدقة والتتبع، جاعلين هذه الصور في كثير من المواضع افتتاحاً للمُقطَّعات والقصائد، رابطين بها أغراضهم ودواخل نفوسهم، أو تخصيص مقطعات كاملة لوصف الطبيعة ورسم صورها. فابن سعيد يرسم لوحة متكاملة العناصر للروض وقد طرز الندى عليه حبّاته. والنهر وقد هزته ريح الصّبا، وكتبت على صفحة الماء أسطراً، ثم جاءت الشمس وألقت عليه رداءَها الذهبي، يقول:

الـــروضُ بُـــرْدٌ بالنـــدى مُطـــروزُ والنهـــرُ ســـيفٌ بالـــصَّبا مَهـــزوزُ
كُتِبَـتْ بـه خـوفَ النـواظِرِ أسـطُرٌ فعليـه مـن خـطِّ النَّـسيمِ حـروزُ
ورمـت عليـه الـشمسُ فـضلَ ردائِهـا فَعـــلا مُـــذابَ لُجَينِـــهِ إبريـــزُ
والغـــصنُ إن رَكَـــدَ النَّـسيمُ كأنَّـــهُ أَلِـــفٌ بهمـــزةِ طـــيرِهِ مهمـــوزُ
وكـــأنها الأزهـــارُ فيـــه قلائـــدٌ وكـــأنها الأوراق فيـــه خـــزوزُ(1)

فالشاعر يتفنن في رسم هذه الصورة وانعكاساتها، في حالتي حركة النسيم وركوده، لا تفوته الحركة الخفيفة، وما تضفيه على المشهد من تلوين، وقدّم ابن سعيد هذه المقطوعة المتكاملة المشاهد، لوصف الخمر، فكانت أبيات وصف الطبيعة أكثر من أبيات صورة الخمر، إذ أصبح المنظر الطبيعي كالقاعدة أو العامل الكيميائي المساعد في القصيدة أو المقطوعة(2).

وحملت عناصر الطبيعة صور وأحاسيس الشعراء، وخلجات نفوسهم، حيث غدا النسيم عند ابن الجنّان يتبختر فرحاً بشمائل المحبوب، وتحمل أنفاسه أخباره المعطرة:

خَـــبَرٌ بأنفـــاسِ النَّـــسيم مُعَطَّـــرُ وافى إليَّ فظلـــتُ منـــهُ أســـكَرُ

(1) المغرب، 2/ 176. خزوز: جمع خزّ وهي الثياب المنسوجة بالحرير والصوف، أو بالحرير الخالص. لسان العرب، مادة خزز.
(2) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطائف والمرابطين، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط5، 1978، ص203.

لله مـــــا أحـــــلى شــــــمائلَهُ التـــــــي   جـــاءَ النـــسيمُ بعَرفِهـــا يتبخـــتَرُ[1]

كما شاركهم الروض سرورهم، فقد تثنى عنده النهر، وبدت الغصون وكأنها تسيل معه من الطرب، يقول ابن الجنّان:

يـــا رَعـــى اللهُ عيـــشَنا بـــينَ رَوضٍ   حيـــث مـــاءُ الـــسرورِ فيـــهِ يجـــولُ
تَحـــسَبُ النهـــرَ عنـــده يتثنّـــى   وتخـــالُ الغـــصونَ فيـــه تـــسيلُ[2]

وقد رقصت الأغصان، وأنشَدَت الوُرْق، وصفق النهر، وبكى الغيم، وضحك الزهر في أرض النيربين، كما يقول أبو العباس الشريشي:

كـــأنّني لم أكُـــن بـــالنَّيْرَبَيْن ضُـــحًى   والغـــيمُ يبكـــي ومنـــهُ يـــضحَكُ الزَهَـــرُ
والـــوُرْقُ تنـــشِدُ والأغـــصانُ راقـــصةٌ   والـــدَّوْحُ يطـــرَبُ بالتـــصفيقِ والنَّهَـــرُ[3]

لقد أخذ الشعراء من صفات عناصر الطبيعة ما يشاكل معاني ما في نفوسهم، فالغيم يبكي لمشاكلة المطر للدمع، كذلك الزهر يضحك لتشاكل الضحك مع إشراق الزهر الذي سببته دموعُ الغيم، وغدت الأصوات في الطبيعة أصواتاً لإنسان ينشدُ ويغني، والأغصان بتمايلها صورة لراقص. صورة تشخيصية مليئة بالحركة والصوت واللون. ومن ذلك أيضاً ما وصف به ابن سعيد الغيم وقد أُسْبِلَ عليه إزارٌ، وغدا البرق يذكي أنفاس الغيم بشرره، وطاب النسيم بأريجه، فغدا الجو من عنبر ونار:

أُنظـــرْ إلى الغَـــيمِ كيـــفَ يبـــدو   وقـــــد أتـــــى مُـــــسبَلَ الإزارِ
والـــبرقُ في جانبيَـــه يُـــذكي   أنفاسَـــــهُ وهـــــو كالـــــشَّرارِ
مـــا طـــابَ هـــذا النـــسيمُ إلاّ   والجـــــوُّ في عنـــــبرٍ ونـــــارِ[4]

---

(1) الفوات، 3/ 265.
(2) المصدر السابق، ص266. ذيل مرآة الزمان، 3/ 200.
(3) النفح، 2/ 116.
(4) الوافي، 22/ 257.

وفي صورة أخرى تزخر بعناصر اللون والحركة والصوت، يرسم ابن سعيد مشهد عرس الأفق، الذي يحييه البرق والمطر والصبح، يقول:

أدِرْ كؤوسَكَ إنَّ الأفْقَ في عُرُسٍ وحسبنا أنت ترعى حُسْنَكَ المُقَلُ
البرقُ كفٌّ خضيبٌ والحيا دُرَرٌ والأفق يُجلى وطرفُ الصُبْحِ مكتَحِلُ[1]

يبدو النسيم نشوان من الأحاديث اللطيفة، والغصون تموجُ فرَحاً، كما يقول ابن الجنّان:

ما شانُ هذا النسيمِ الرطبِ نشوانُ كأنه من حديثِ القوم ريّان
روى لنا خبراً من أرضِ كاظِمةٍ لم تدرِ كاظمةٌ عنه ولا البانُ
ماج الكثيبُ وماج الغصنُ منه فَهَلْ جرت لعطفِ الهوى في الكَوْنِ أردانُ[2]

وكما شاركت الطبيعة الشعراء رقصهم وأفراحهم، فقد شاركتهم بكاءهم وحزنهم وألمهم، يقول ابن الجنّان:

قُم سقِّنيها وثغرُ الصبحُ مبتسمٌ والليلُ تبكيه عينُ البدرِ بالشُهُب
وأعينُ الدَّهرِ من طولِ البكا رَمِدَتْ فكحَّلتها يمينُ الشمسِ بالذَهَبَ
والسُّحْبُ قل لبست سودَ الثيابِ وقد قامت لترثيَةُ الأطيارُ في القُضُبِ[3]

ويبدو البدرُ كالحاً، معبراً عن حال الشاعر حينما بذل وجهه على لئيم مكرهاً، يقول ابن سعيد:

لَبذلُ وجهي إلى لئيم أمرُّ منْ وِقفةِ الوَداع

---

(1) الرايات، ص181. الوافي، 22/ 257.
(2) ذيل المرآة، 3/ 199.
(3) اختصار القدح، ص208. وذيل المرآة، 3/ 200، البيتان الأول والثاني فقط.

فالبَـــــــدرُ في وجهـــــــه كُلـــــــحٌ حـــين اجتــدى الــشمس في الــشُّعاع[1]

أما الشمس فقد بدت مريضة وقت الغروب، حينما مدت راحتها لتوديع الأفق كما يقول ابن سعيد:

والـــشمسُ مـــن أَلَمِ الفِـــراقِ مريـــضةٌ مـــدَّتْ لتوديـــع البحـــيرة راحـــا[2]

فمعاني الفراق والرحيل ماثلة في أذهان الشعراء ونفوسهم، تبرز في صورهم لأنها تحاكي رحيلهم المؤلم عن أرض الأندلس، فقد غربت الشمس في صدر ابن سعيد، لغروب الوطن عنه، يقول:

وعـــلى مُرســـيةٍ أبكـــي دَمـــاً مَنْـــزِلٌ فيـــه نَعـــيمٌ مُعـــشِبُ
مَـــعَ شَـــمْسٍ طَلَعـــتْ في نـــاظِري ثـــم صـــارت في فُـــؤادي تَغـــرُبُ[3]

وشكا النسيم اللوعة والبُعد وجرَّت ذيوله السقام، كحالِ الشاعر لبعد الأحبة، كما يقول ابن ذي النون[4]:

مـــا للنَّـــسيم سَرى الأصـــيلَ علـــيلاً أَتُـــراهُ يـــشكو لَوعـــةً وغَلـــيلا
جَـــرَّ الـــذيولَ عـــلى ديـــارِ أحبَّتـــي فـــأتى يجُـــرُّ مـــن الـــسَّقامِ ذُيـــولا[5]

علل الشعراء بعض صورهم كما رأينا، فالشمس كحلت عيون الدهر لأنها رمدت من طول البكا، والشمس مرضت بسبب الفراق، أما النسيم فقد غدا عليلاً بسبب فراق الأحبة. وفي الوقت نفسه جاء رسم بعض صور الطبيعة لتبرير معنى أراد إثباته الشاعر، من ذلك ما رد به ابن سعيد على من يلومونه على شرب الخمر في حال الشيب، معللاً ذلك برسم صورة مختارة بدقة، من صور الطبيعة:

---

(1) الرايات، ص180.
(2) الرايات، ص180.
(3) النفح، 2/ 283.
(4) انظر الملحق، الترجمة رقم (51).
(5) النفح، 2/ 44.

يلومـــونني أنْ شــبتُ في الخَمــر ضِــلَّةً وأنّي إذا وافى المـــشيبُ بهـــا أحـــقْ
إذا شـــابَ رأسُ الليـــلِ بـــالفجرِ قرَّبَـــت له أكـؤُسُ الـصَّهباءِ مـن خمـرةِ الـشَّفَقْ[1]

لقد اختار الشعراء من صور الطبيعة وحالات عناصرها، ما يريدون التعبير عنه في دواخلهم، في حالي السرور أو الحزن، والضحك أو البكاء، في الزهر والشمس والغيم والأغصان والنسائم والنهار. وقد عد حازم القرطاجني هذه المتصورات التي تجد لها فرحاً أو ترحاً أو شجواً في النفس، متصورات أصيلة[2]. لقد تجلت الطبيعة صافية بصورها، وصور نفوس شعرائها، التي لم تكن تخلو من نزعات رومانسية، وتعكس مشاعرهم أكثر مما تعكس فكرهم.

وتمتزج صور الطبيعة بالصور والألفاظ الحربية، ولا غرابة في ذلك، فمشاهد الحرب تسكنهم، لقد كانت الأندلس قبل خروجهم منها مليئة بالفتن والحروب المتوالية والتهجير والطرد إثر سقوط المدن، ونتيجة لذلك توجه الشعراء إلى مدن مصر والشام التي كانت تعيش ظروفاً مشابهة في معظم جوانبها، بسبب الحملات الصليبية، وهجمات التتار، والفتن، وقد عكست الصور هذه المعاناة وهذه الأجواء السياسية الحربية بصورة غير مباشرة، مما قد يجعل الصور في الكثير من عناصرها مصدراً من مصادر دراسة أحوال العصر السياسية وانعكاسات هذا الوضع على الحياة الاقتصادية والاجتماعية، فهي تحمل الحقيقة بصورة محجوبة مبطنة.

وكما كان للطبيعة عرس، فإن للوغى عرساً آخر تمتزج عناصره بعناصر الطبيعة فقد غدت النبال فيه كالمطر، والسيوف كالبرق، يقول ابن سعيد:

لـو كنْـتَ حاضِرَنـا لـدى عُـرْس الـوَغى ومـــن النَّجيـــع عـــلى الكُـــماة خلـــوقُ

---

(1) الرايات، ص176.

(2) القرطاجني: أبو الحسن حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس 1966، ص22.

والـــشمسُ زهـــرٌ والعـــشيُّ أهلَّـــةٌ والنَّبـــلُ قَطـــرٌ والـــسُّيوفُ بُـــروق[1]

ويستعيض ابن سعيد عن النجوم والصبح بالرمح والسيف، ويعانق الغصن في الرماح، ويقبل البدرَ في الخيل:

ولـــيلي بخيـــلٌ بـــالنجوم وصُـــبحِهِ ونجمـــيَ في رمحـــي وصـــبحيَ في غمـــدي
فعانقـــتُ غـــصنَ البـــانَ في دوحَـــةِ القنـــا وقَبَّلـــتُ بـــدرَ الـــتَمِّ في هالـــةِ الجُـــرْدِ[2]

وتبدو الصورة هنا غريبة التكوين، فيها شيء من الغموض.

ويصور ابن الجنّان صورة للجيش، لكنه جيش الليل المنهزم حينما يأتي الصبح الذي تلوح علاماته باحمرار الأفق، الذي يشبه احمرار رايات المعركة:

قُـــمْ ســـقِّنيها وجـــيشُ الليـــل منهـــزمٌ والـــصبحُ أعلامُـــهُ مُحمَّـــرةُ العَـــذَبِ
والسُّحْبُ قـد نثـرت في الأرضِ لُؤْلُؤَهـا تضمُّها الشمسُ في ثَـوْبِ مـن الـذَهَبِ[3]

وتتبدى صورة المعركة بعناصرها كافة في مشهد صاخب من مشاهد الطبيعة يرسمه ابن سعيد، إذ يقول:

والـــبرقُ قُـــضْبٌ والـــسحابُ كتائـــبٌ والقطـــرُ نَبـــلٌ والرُّعـــودُ طبـــولُ
ولتعـــــذُرِ الأنهـــــارَ في تـــــدريعِها وكـــذلك الأغـــصانَ حـــين تميـــلُ[4]

ولم تنفصل عناصر الحرب عن عناصر الطبيعة فقد تداخلت الدماء مع الدجى، وقتام المعركة مع السحب، والسيوف مع البرق كما يقول ابن سعيد:

---

(1) الرايات، ص181.
(2) المغرب، 2/ 174.
(3) ذيل المرآة، 3/ 199. الفوات، 3/ 266-267.
(4) المغرب، 2/ 178.

فـلا تنكِـرَنْ صـوبَ الـدِّماءِ إذا دَجَـتْ   ســحابُ قتـامٍ والـسيوفُ بـوارِقُ[1]

ويزداد دجى قتام المعركة حينها تتداخل الشهب بالرماح، والسيوف بالبرق، يقول:

كأنَّـكَ لم تجـلُ القتـامَ وقـد دَحـا   بـشُهبِ عـوالٍ أو بـروقِ سـيوفِ[2]

أما فرسان المعركة، فقد تداخلت راياتهم مع صورة الطيور التي تحلّق، يقول:

لله فرســانٌ غَــدَتْ رايــاتُهُمْ   مثـلَ الطيـورِ عـلى عِـداكَ تُحلِّـقُ[3]

وعبرت الصورة الشعرية عن انفعالات الشعراء وعواطفهم، فحملت عناصرها إيقاعات نفوسهم رقيقة لطيفة، أو غاضبة صاخبة ساخرة، فها هي الأشجار تحِفُّ عشقاً لحذرها الرقباء كما يقول ابن سعيد:

حفَّـت الأشـجارُ عـشقاً حَوْلَنـا   تـارَةً تنـأى وطـوراً تقـرُبُ
جـاءَت الـرّيحُ بهـا ثـمَّ انثنـت   أتُراهـا حَـذِرَتْ مـن ترقُّـبُ؟[4]

أما الأغصان فهي تتعانق ثم تفترق بفعل حركة الريح:

هـلاّ نظَـرْتَ إلى الأغـصانِ تعتَنِـقُ   ظلَّـت تَلاقـى غرامـاً ثـمَّ تَفـترِقُ[5]

ثم لا تلبث الأغصان أن تتمايل لفرط شوقها وحملها أخبار سليمى التي يهواها الشاعر، فغدا حالها مثل حاله، إذ يقول ابن الجنّان مخاطباً النسمات التي حملت أخبار محبوبته:

حـدّثيني يـا نـسمَةَ الأسـحارِ   إنَّ خمـرَ الحـديثِ فيـه خُمـاري
أنـا سـكرانٌ مـن مُدامـة أشـواقي، فـما لي وحانـة الخَـمّارِ

(1) المغرب، 2/ 177.
(2) المصدر السابق، 2/ 177.
(3) الرايات، ص181. المغرب، 2/ 177.
(4) النفح، 2/ 382.
(5) المغرب، 2/ 177.

وأظـــنُّ الغـــصونَ تهـــوى سُـــليمى فلهـــــذا تميـــــلُ للأخبـــــارِ[1]

وتهيم الأرض بالشمس، فيأتي الغبش، عندئذ تفرش الأرض بساطها المُوشّى بالزهر، كما يقول ابن الجنّان:

الأرض بالـــــشَّمسِ تهـــيمُ فلِــــذا يــــأتي بـــشيراً بالقُـــدوم الغَـــبشُ
لـــو لَمْ يكُـــن هـــذا لمـــا غـــدا لهـــا بـــساطُ أزهـــارِ الريـــاضِ يُفـــرَش[2]

وعبرت الصور الشعرية بإيقاعاتها الصاخبة، عن انفعالات الغضب والسخرية في نفوس الشعراء، فها هو ابن سعيد يرسم صورة كاريكاتورية ساخرة، تنطق بالألم والمعاناة حينما اضطر لركوب الحمار من باب زويلة في القاهرة إلى الفسطاط[3] وقد عدا به بين الأزقة، فاكتحلت عيونه بالغبار، ولم يرحم المُكاري صراخه ولم يرق له، مما أدى به إلى الوقوع سجوداً على وجهه، وقد رسم ابن سعيد هذه الصورة بحركات متسارعة متلاحقة، مجيداً استخدام الألفاظ التي اكتسبت دلالة خاصة في صورتها الجديدة مثل (كحل الغبار) و(سجود العثار)، وقد عكست الألفاظ والصور بتسارع إيقاعها، واستخدام قافية الراء، اضطراب وغضب وثورة ابن سعيد، التي لم تنسِه روح النكتة.

أما ابن عتبة الإشبيلي فيرسم صورة رقصه ألماً، لشعره بالضيم في دولة القرود في مصر كما يقول[4]. فغدا استخدام صورة الرقص في موضع الألم، يعكس تأثراً شديداً يفوق احتمال المرء، وارتسمت هذه الصورة بكل متناقضاتها المقصودة، فبدت مضحكة مؤلمة مفعمة بالغضب، في دولة غير عادلة، وهي للقرود للؤم طباع ساستها، لاستخدامهم النصارى واليهود في الوظائف دون المرتحلين من الأندلسيين، وهذا يحمل نقداً سياسياً واجتماعياً للأوضاع في مصر، ويعكس عدم رضا بعض المرتحلين عن أوضاعهم فيها.

---

(1) بغية الوعاة، 2/ 112.
(2) المغرب، 2/ 384.
(3) انظر الدراسة، ص79.
(4) انظر المصدر السابق، ص92.

وقد يعدُّ هذا من باب المبالغات، لارتباطه بنفسية الشعراء المرتحلين، أتراهم لو عاشوا في بيئة المشرق أصلاً، هل ستحمل عباراتهم مثل تلك الحدّة وهل ستحمل صورهم تلك السخرية المؤلمة؟، فالأوضاع في الأندلس لم تكن تقل عن الأوضاع في المشرق، وإن كانت أوضاع المشرق بصورة عامة أفضل. وربما كان هذا نتيجة تعصب الأندلسيين لأندلسيتهم، الذي تبيّناه في غير موضع، بالإضافة إلى إحساسهم بعدم استطاعة الرجوع إلى وطنهم في هذا الوقت العصيب، فأسقَطوا من آلامهم ومعاناتهم على الحياة الاجتماعية والسياسية في مدن المشرق. مما لا ينفي وجود منغّصات في بعضها، لكنهم بالغوا في توسيع آثارها السلبية عليهم، متخذين منها ذريعة ومنفذاً للتخفيف من تلك المعاناة.

وجاءت بعض الصور تحمل نوعاً آخر من المعاناة، وهو استئثار الجهال بالمناصب والدراهم التي لمعت في ليلهم كالنجوم، بينما تباعد الحظ عن ذوي النهى الذين طرد صبح ذهنهم شُهُبَهُم ودراهِمَهُم، كما يقول ابن خروف:

تبلَّجَ صبحُ الذهنِ منيَ واضحاً ... فغارَت من الأهوالِ شُهْبٌ عواتمُ
ولو كانَ ليلُ الجَهلِ عنديَ حالكاً ... للاحَتْ به مثلَ النجوم الدَّراهِمُ[1]

وحملت بعض الصور دلالات الكتابة والقراءة عند ابن سعيد، يقول مصوراً النهر صفحة كتبت بالنسيم، ومالت الغصون لتقرأها:

كأنَّما النهرُ صفحةٌ كُتِبَتْ ... أسطُرُهُ والنسيمُ مَنْشَؤُها
لما أبانت عن حُسْن منظرِهِ ... مالَتْ عليها الغصونُ تقرؤُها[2]

وهي صورة تفصيلية دقيقة، تحتاج إلى إجهاد فكر، ولا يمكن للبديهة التنبه لها[3].

(1) الرايات، 139. الذيل والتكملة، ج5، ق1، ص398.
(2) الرايات، ص175. الوافي، 22/ 255.
(3) التفاعل الثقافي، ص277.

وحمل بعض الصور دلالات مكثفة للون، من ذلك وصف ابن دحية لروضة مزدانة بكافة الألوان في أبيات يمدح فيها الملك الكامل، يقول:

لـه مـن شـذى الـدهرِ بُـرْدٌ مفـوَّفٌ ... أتـيح لـه مـنن أرضِ صـنعاءَ صـانعُ
فراقَـكَ منهـا أخـضرُ الثـوبِ نـاضرٌ ... وشـاقَكَ منهـا أصـفَرُ اللـونِ فـاقعُ
وأحمـرُ قـانٍ كالخـدودِ مُـورَّدٍ ... وأبـيضُ كـالثغرِ المفلَّـجِ ناصـعُ[1]

ولابن سعيد قطعة وصفية لحصان تبدو كأنها معرض ألوان، فهذا الحصان أصفر بلون الذهب، ينطلق بين بياض الفجر وسواد الليل، ويجمع بين اصفرار العاشق وحسن المعشوق، يقول:

وأجـرَدَ تِـبْرِيٍّ أثـرتُ بـه الثَّـرى ... وللفجـرِ في حـضرِ الظـلام وِشـاحُ
لـه لـونُ ذي عـشقٍ وحُـسنُ مُعـشَّقٍ ... لـذلك فيـه دَلـةٌ ومَـراحُ
عجبـتُ لـه وهـو الأصـيلُ بعرفِـهِ ... ظـلامٌ وبـين النـاظرينَ صَـباحُ[2]

وامتازت أساليب الشعراء في رسم صورهم، بتجميل صورة القبيح، من ذلك ما يقوله أثير الدين معللاً عشقه لشيخ أبيض اللحية وكأن على وجنتيه الياسمين، ومفضلاً إياه على سود اللّحى:

تعـشَّقتُهُ شـيخاً كـأنَّ مـشيبَهُ ... عـلى وجنتيـه ياسَـمينٌ عـلى وَرْدِ
وقـالوا الـورى قـسمان في شِرْعـة الهَـوى ... لـسودِ اللِّحـى نـاسٌ ونـاسٌ إلى المُـرْدِ
وسـودُ اللِّحـى أبـصرتُ فـيهم مـشاركاً ... فأحببـتُ أنْ أبقـى بأبيَـضِهِم وحـدي[3]

كما يصور فحّاماً وقد بدت خطوط الفحم على وجهه كأنها مسك:

وعُلِّقتُـهُ مُـسودَّ عـينٍ ووفـرةٍ ... وثـوبٍ يعـاني صـنعَةَ الفحـم عَـنْ قـصدِ

(1) عنوان الدراية، ص277. النفح، 2/ 102.
(2) المغرب، 2/ 173.
(3) الديوان، ص349.

كـــأنَّ خطـــوطَ الفحـــمِ في وجناتِـــهِ   لِطاخــةُ مــسكٍ في جنــيٍّ مِــن الــوَرْدِ[1]

وله كذلك في أحدب[2].

وقد يكون لهذه النزعة في تجميل القبيح ارتباط بالفلسفة الصوفية التي انتشرت بصورة لافتة في هذا العصر، حيث إن وحدة المخلوقات المرتبطة بوحدة الخالق عند الصوفية تجعلهم ينظرون إلى المخلوقات بعين الجمال الواحد، فينتفي منها القبح، لأنها وليدة نور واحد هو نور الله تعالى، فقد يكون هذا الأساس فيها من بعض الشعراء المدركين لهذه النظرة الصوفية، ومن جاء بعدهم سار على ذلك تمشياً مع روح العصر، مقلداً غير قاصد لتمثل هذه الفلسفة الصوفية بعينها في شعره.

كما امتازت الصور بالتحليق، والخيال المكثف خاصة عند ابن سعيد، فهاهو يسقي الشمس التي صيغت قرطاً على الأفق في قدحه، يقول:

لا أنـــسَ ليلـــةَ وافَيْنـــا لموعـــدنا   والكـــأسُ دائـــرةٌ والغـــصنُ مُعْتَنِقـــي

فقلتُ إذ بتُّ أسـقي الـشمسَ في قَـدَحي   من ذا الذي صاغها قِرطـاً عـلى الأفـقِ[3]

أما سفح الخليج فبدا طائراً محلقاً، لاقى الصَّبا بجناحه، يقول:

وانظُـــر إلى ســـفح الخلـــيج كطـــائرٍ   لقـــي الـــصَّبا مـــن مَوْجِـــهِ بجنـــاحِ[4]

ثم ألقت الشمس الطائرة في الأفق عليه جناحها:

وانظــر لــشمسِ الأفــقِ طــائرةً وقــدْ   ألقَــتْ عــلى ســفح الخلــيج جَناحــا[5]

(1) الديوان، ص440.
(2) انظر الديوان، ص475.
(3) الوافي، 22/ 259.
(4) الرايات، ص179.
(5) المصدر السابق، ص180.

لقد ركّب الشاعر صوره فامتزجت فيه التشابيه وغدت الصور مكثفة حتى بدت حقيقية، فسفح الخليج طائر، لقي الصّبا بجناحه الذي أصبح جزءاً حقيقياً منه في صورته الجديدة، فاستخدم هذه الأداة وهو الجناح ولقي بها الصّبا. والشمس كذلك، استخدمت أحد أعضائها الذي أصبح جزءاً أساسياً منها في صورتها الجديدة، وهو الجناح.

فالصور متداخلة تثير التساؤل، وينقلك كل تساؤل لما يليه لتركب أجزاء تلك الصورة، فسفح الخليج طائر، فما هو موج السفح؟ وما الجناح الذي مدّه السفح ليلقى الصّبا؟ أما الشمس فلماذا عدّها طائراً؟ وما هي صورة الشعاع الذي ألقته على الخليج فبدا كالجناح؟ ولِمَ شبّه بالجناح؟. لقد تداخلت صورة المشبه بالمشبه به، مما جعل الصورة غريبة التكوين غامضة، يكمن جمالها في هذا الغموض والتداخل وأخذها كما هي، مما قد يجعل كثرة التساؤلات والاستفسارات تفسدها وتضعف من قيمتها الفنية.

لقد اتسمت الصور كما بيّنا بالتفصيلات والتتبع والدقة وحسن التعليل ورسمت بعناية، وكأنها تطريز دقيق يحتاج إلى مهارة وإعمال فكر في نسجه واختيار ألوانه وتشكيلاتها.

الفنون البديعية

لا يُعدّ البديع فناً جديداً في هذا العصر، فقد ظهر منذ القديم، وشهد تطوراً على يد مسلم بن الوليد وأبي تمام، وازداد الاهتمام بهذا الفن في القرنين السادس والسابع الهجريين، ووضع أسامة بن منقذ كتابه البديع في نقد الشعر الذي اشتمل على أبواب عديدة في ضروب البديع[1] وقد عمد الشعراء إلى إثقال الشعر به حتى حجب بعض محاسنه، فما عاد حلية تجمّل الأدب، بل أصبح زخرفاً متكلّفاً زائداً، وغاية في ذاته، يستر محاسن الشعر، ويخفي جمالياته الداخلية، لأن الشعراء ما عادوا يبحثون عن المعنى بقدر بحثهم عن اللفظ، مستخدمين خصائصه الصوتية والمعنوية، مفرداً ومنظوماً ومركّباً[2].

---

(1) انظر: البديع في نقد الشعر، تحقيق علي عبد مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان 1987، ص9-11.

(2) محمد زغلول سلام: تاريخ النقد الأدبي من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري، دار المعارف بمصر 1967، ص318، 313.

وأصبحوا يطلبون الجناس والمقابلات والتوريات، وقد يجمعون بين أكثر من فن بديعي في مقطوعة أو صورة واحدة، من ذلك الصورة التي رسمها ابن سعيد للحصان[1]، والتي تبين قدرته على نسج الصورة وتطريزها بدقة، وزخرفتها بألوان البديع، فبدت كأنها معرض للصور الملونة، تمثل ذوق العصر، وعلى قلة أبيات المقطعة، فقد ازدحمت بالفنون البديعية، من ذلك مجانسة الشاعر بين «أثرت» و«الثرى»، ومطابقته بين «ذي عشق» و«معشّق» وبين «ظلام» و«صباح» وتوريته في لفظ «الأصيل» بين معنى أصالة الحصان وبين لونه الذي يشبه الأصيل باصفراره، ولعل صور ابن سعيد في هذه المقطوعة على غرابتها ودقتها، تحولت من حيوية الحركة إلى جمود مزخرف ساكن، يدلل أن البيان والبديع كانا الهدف والغاية، واختيرت لمناسبتها وقابليتها للبيان البديعي[2].

وأكثر الشعراء من استخدام المجانسة في صورها كافة، مع استخدامهم لألوان البديع الأخرى، ولا تكاد تقرأ قصيدة أو مقطوعة، إلا وقد أخذت من البديع بنصيب، لكن الجناس - كما قلنا - استأثر بجانب لا يستهان به في معظم الشعر، من ذلك مجانسة ابن خروف بين الاسم والفعل «وجه» و«وجّهْ» وهو ما يسمى بالتجنيس المغاير[3]، يقول:

يــــا ماجــــداً لا يـــزالُ يحكـــي ... في مَجْـــدِهِ عمَّـــهُ وخالَــهْ
وجِّـــه لِوَجـــهِ المِـــداد منّـــي ... حبَّـــةَ مِـــسْكٍ تكـــونُ خالَـــهْ[4]

ويستخدم أبو الحكيم ذو الوزارتين[5] تجنيسين مغايرين في بيت واحد، يقول:

للـــشرقِ فـــضلٌ منـــه أشرَقـــت شُـــهُبٌ ... مـــن نـــورِهِمْ أقبـــسونا كُـــلَّ مِقبـــاسِ[6]

فقد جانس بين «الشرق» و«أشرقت» وبين «مقباس» و«أقبسونا».

---

(1) انظر الدراسة، ص .
(2) التفاعل الثقافي، ص276.
(3) البديع في نقد الشعر، ص26.
(4) الذيل والتكملة، ج5، ق1، ص398.
(5) انظر الملحق، الترجمة رقم (42).
(6) الإحاطة، 2/ 465.

ومن ضروب الجناس، التجنيس المماثل[1]، وهو المجانسة بين اسمين أو فعلين من ذلك مجانسة ابن سعيد بين الاسمين «أرجائها» و«الأَرِجات» في أبيات أرسلها إلى حلب لابن العديم:

إِقـرَ الـسلامَ بهـا مـن بعـدِ لـثم ثـرى   أرجائهـا الأرِجـاتِ الأفْـقِ والطُّنـبِ[2]

ومجانسة ضياء الدين الخزرجي بين الفعلين «قضَى» و«يقضي» في قوله يصف الدنيا:

كـم سـالِمٍ أسـلمَتْهُ للـرَّدى فقـضى   حَتْفـاً ولم يقـضِ مـن لـذّاتِها وَطَـرا[3]

ومن تجنيس التصحيف وهو اختلاف الكلمتين في النقط قول يحيى الطليطلي مجانساً بين «قضاء» و«مضاء» في مدحه للملك الأشرف موسى:

بـسُيوفِ عَزْمتِـكَ القـضاءُ يـصولُ   ومـضاءُ بأسِـكَ في يديـهِ نُـصولُ[4]

ومن ضروب التجنيس، تجنيس المضارعة، بزيادة الحروف أو نقصها أو قلبها[5].

ومن أمثلته في الزيادة والنقص قول ابن دحية مجانساً بين «سَرَوا» و«أسرَوا» وبين «حكَّمتُكم» و«حَكَمْتُمُ»:

أمنـازِلَ الأحبـاب أيـنَ أحبَّتـي   فَهُـمُ إذا جَـنَّ الظـلامُ الأنجُـمُ

وسَرَوْا وقـد أسَروا الفـؤاد وحرَّمـوا   طِيـبَ الهجـوع علـيَّ لَمّـا أحْرَمـوا

حكَّمـتُكُم في مُهْجَتـي فحكمـتُمُ   فيهـا بـما شـاءَ الغـرامُ وشِـئتُمُ[6]

ومن أمثلة القلب، قول أثير الدين مجانساً بين لحية وحِلية:

---

(1) البديع في نقد الشعر، ص30.
(2) اختصار القدح، ص6.
(3) ملء العيبة، 3/ 47.
(4) عقود الجمان، ج9، ورقة 229.
(5) السِّجِلْماسي، أبو محمد القاسم الأنصاري، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تقديم وتحقيق: علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، ط1، 1980، ص486-487.
(6) عنوان الدراية، ص273.

يقـــــولُ لي العَـــــذولُ ولم أطِعْـــــهُ تـــسلَّ فقـــد بـــدتْ للحِـــبِّ لِحيَـــهْ
تخيَّـــــلْ أنهـــا شـــــانَتْ حبيبـــــي وعنـــــدي أنَّهـــا زَيْـــنٌ وحِليَـــهْ[1]

وقد عدّ بعض النقاد هذا التجنيس الذي يأتي بين قافيتي البيتين تجنيس تلفيق، وقد يقع في القافية من البيت الواحد[2]، من ذلك قول أثير الدين في أبيات متتالية:

أسـهَرْتَ طَـرفي ووهَّـتَ الفـؤادَ هـوىً فالطرفُ والقلبُ مني الساهرُ الساهي
نَهَبْــتَ قلبــي وتنهــى أنْ تبــوحَ بِــها يلقـــاهُ وا شَـــوْقَهُ للنّاهـــب النـــاهي
بَهَـــرْتَ كُـــلَّ ملـــيح بالبهـــاء فـــما في النـــيِّرَيْنِ شـــبيهُ البـــاهِرِ البـــاهي
لَهِجْــتَ بالحُــبِّ لمـــا أن لَهَــوْتُ بِــهِ عن كُلِّ شيءٍ فـويحَ اللاهِـجِ اللاهـي[3]

ونلاحظ أن الشاعر بدأ كل بيت بالفعل الذي اشتق منه ألفاظ المجانسة، وكأنه نوع من التطريز يسير على ترتيب خاص مقصود.

واستخدم شعراء العصر أنواع البديع الأخرى بصورة أقل من استخدامهم الجناس، من ذلك استخدام ابن خروف لمطابقات متتابعة في أبيات يصف فيها غلاماً:

ومُنَـــوَعِ الحركـــاتِ يَلْعَـــبُ بـــالنُّهى لَـــبَس المحاسِـــنَ عنـــد خَلْـــع لِباسِـــهِ
بالعقـــل يَلْعَـــبُ مُقـــبلاً أو مُـــدبراً كالـــدَّهرِ يَلْعَـــبُ كيـــفَ شـــاءَ بناسِـــهِ
ويـــضمُّ للقَـــدمين منـــه رأسَـــهُ كالـــسَّيفِ ضُـــمَّ ذُبابُـــهُ لِرِئاسِـــهِ[4]

فقد طابق بين الخلع واللباس، والإقبال والإدبار، والرأس والقدمين، ورأس السيف ومقبضه.

(1) الديوان، ص418.
(2) المنزع البديع، ص491.
(3) الديوان، ص403.
(4) الغصون اليانعة، ص140. المغرب، 2/ 137. الذيل والتكملة، ج5، ق1، ص397. رئاس السيف: مقبضه، لسان العرب: مادة رأس.

ومما يتصل بالمطابقة المقابلة، وهي إيراد الكلام في مقابلته بمثله في اللفظ والمعنى على جهة الموافقة أو المخالفة[1]، بين أكثر من متضادين، ومن أمثلة ذلك قول يحيى الطليطلي في المدح:

بيــــاضُ مَعانيـــهِ بـــسودِ سُـــطورِهِ　　يُريكَ صَباحَ الوَصْلِ في ليلةِ الهَجْرِ[2]

أما رد الأعجاز على الصدور، فهو رد كلمة أو أكثر من الشطر الأول إلى الشطر الثاني، وقد سماه أسامة الترديد أو التصوير[3]، من ذلك قول أثير الدين:

راضَ حبيبـــي عـــارضٌ قَـــدْ بَـــدا　　يـــا حُـــسْنَهُ مـــن عـــارِضٍ رائِـــضِ[4]

أما الترصيع، فهو أن يكون حشو البيت مسجوعاً[5]، من ذلك قول أبي العباس الشريشي:

إذا تـــذكَّرتُ أوقاتـــاً نـــأتْ ومَـــضَتْ　　بقـــربكُمْ كـــادَتْ الأحـــشاءُ تنفطِـــرُ[6]

وقول يحيى الطليطلي جامعاً بين الترصيع وحسن التقسيم مخاطباً الملك الأشرف موسى:

ليـــثَ الـــشرى ، غيـــثَ الـــورى ، نجـــمَ الـــسُّرى نـــارَ القِـــرى ، تعـــشو لهـــا ضـــيفانُها
يـــا كـــاملاً بـــل فاضـــلاً يـــا فـــاعلاً مـــا قـــصَّرتْ عـــن فِعْلِـــهِ أعيانُهـــا
لَـــكَ في المـــآثِرِ دَوْلـــةٌ بـــل صَـــوْلَةٌ بـــل جولَـــةٌ حـــازَ المَـــدى فرســـانُها[7]

---

(1) أبو هلال الحسن عبدالله العسكري: كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، تحقيق: د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1984، ص371.
(2) عقود الجمان، ج9، ورقة 229.
(3) البديع في نقد الشعر، ص85.
(4) الديوان، ص252.
(5) الصناعتين، ص416.
(6) النفح، 2/ 116.
(7) عقود الجمان، 9/ 231.

لقد طرز الشاعر هذه الأبيات تطريزاً متكلّفاً، طغى على المعاني وأثقلها، ونراه يكرر المعاني والألفاظ، مما يعد حشواً في البيت الشعري، ويجعله نوعاً من البناء المزخرف المقصود على حساب المعنى.

أما التورية، فهي أن تكون الكلمة بمعنيين، تريد أحدهما فتورّي بالآخر، وقد عدّها النقاد من أعلى فنون الأدب إذا خلت من التكلف والابتذال[1]. وقد يكثر استخدام مثل هذا الفن، في موضوعات النقد الاجتماعي والسياسي، لكنها لم ترد في تلك المواضع عند الشعراء المرتحلين، لأن علاقة المرتحلين برجال السياسة في معظمها كانت علاقات تكسب، وطلب حماية وانضواء.

ومن المواضع التي استخدمت فيه، ما يقوله ابن سراقة في بيتين كتبهما من حلب متشوقاً إلى أصدقائه برأس عين مورياً بالقلب والعين.

حَلَبٌ مُذْ حَلَلْتُها حَلَّ فيها ... عينُ رأسي والقلبُ في رأس عينِ
هي في القَلبِ لا بلْ القلبُ فيها ... جَمَعَ اللهُ بين قلبي وعيني[2]

وقد عدّوا الألغاز من الكلام المورّى لأن باطنه غير ظاهره[3]، ومما قاله ابن خروف من باب الألغاز أو الشعر المُعمّى:

واشربوا كُلَّ صباحٍ لبناً ... واشربوا كلَّ أصيلٍ عَسَلا
واعكسوا ذاكَ إلى أعدائِكُمْ ... من قِسيُّ النَّبلِ أو رُقشِ الفَلا[4]

ويعني برقُش الفلا لسعها.

---

(1) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك: فض الختام عن التورية والاستخدام، تحقيق المحمدي عبدالعزيز الحناوي، دار الطباعة المحمدية، مصر، ط1، 1979، ص51 من المقدمة.
(2) عيون التواريخ، 20/ 328. ذيل المرآة، 2/ 329.
(3) الكُلاعي، محمد بن عبدالغفور، إحكام صنعة الكلام، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت 1966، ص188، 191.
(4) الوافي، 22/ 93.

وكثر استخدام الترادف، وهو إيراد اللفظين بمعنى واحد، يقول ابن الجنّان:

عليـــكَ مـــن ذاكَ الحِمـــى يـــا رَســـولْ بُـــشرى علامـــات الرِّضـــا والقَبـــولْ[1]

ويرادف ابن سعيد بين كلمتي «وجداً» و«حباً» في وصفه لبركة الفيل[2].

هذه بعض الفنون البديعية، التي استخدمها الشعراء المرتحلون، وأسرفوا، تمشياً مع ذوق العصر، مما أدى إلى طغيانها في معظم المواضع، وتأثيرها على جمالية الشعر وتحويله إلى معرض زخرفي، تُنتقى ألفاظه وتُرصف على هيئة خاصة، تذهب بالكثير من تلقائيته ورونقه، وتحول طبع الشاعر على صنعة يتفنن فيها على حساب جودة المعنى. ولا ينفي هذا أن بعض الفنون البديعية جاءت في الشعر عفو الخاطر، فأكسبت المعنى جمالاً، واللفظ انسياباً ورقة.

الأسلوب واللغة

استخدم الشعراء المرتحلون معظم أشكال القصيدة في بناء شعرهم، فقد أكثروا من كتابة المقطوات كما رأينا في رداستنا للصورة الشعرية، وكتبوا القصائد الطويلة، مكثرين من الأوزان المجزوءة، وكتبوا الموشحات والأزجال والمسمّطات. وتكمن قيمة هذا البناء في مدى قدرة الشعراء على استخدام ألفاظهم ومعانيهم، ومدى تعبيرها عن عصرهم وثقافتهم وحياتهم الاقتصادية والاجتماعية، ومدى إفادتهم من التراث المشرقي والمعطيات الحضارية فيه.

لقد استطاعت ألفاظ الشعراء ومعانيهم، أن تحمل رؤية واضحة إلى حد ما عن أوضاعهم، وارتباطهم بذوق عصرهم، وإعطاء الشعر المشرقي صبغة خاصة. فقد أجاد الشعراء في استخدام الصورة الشعرية، واستطاعت أن تعبر عن نفسياتهم وثقافتهم والظروف التي يعيشونها - لأنها كما أوردناه - صورة الحقيقة المحجوبة في دواخلهم،

(1) النفح، 2/ 122.
(2) انظر، المصدر السابق، ص347.

لكنها لم تخل من زخرفة وتلوين وترصيع بديعي أنيق اختيرت ألفاظه وصوره بدقة وإجهاد فكر.

جاءت مقدمات القصائد في معظمها، معبرة عن ولعهم بوصف الطبيعة، وشكوى الغربة والحنين، والحديث عن الرحيل والبعاد. من ذلك قصيدة ابن دحية في مدح الملك الكامل، التي يستهلها بالحديث عن البُعد والرحيل، رابطاً ذلك بوفائه للممدوح:

مـــا لي أســـائِلُ بـــرقَ بـــارِقَ عـــنكُمُ مـــن بَعْـــدِ مـــا بَعُـــدتْ ديـــاري مـــنكُمُ
وبمُنحنـــى الأضـــلاع بـــل وادي الغَـــضا مـــن مهجتـــي يـــا راحلـــينَ نَـــزَلتُمُ[1]

وله قصيدة أخرى يبدؤها بوصف باك للطبيعة، للشوق الذي هاج بين ضلوعه، رابطاً ذلك بالغزل:

شـــجتني شَـــواجٍ في الغـــصونِ سَـــواجعُ ففاضَـــتْ هـــوامٍ للجفـــونِ هوامـــعُ
وهـــيّجَنَ شـــوقاً للأراجـــعِ بـــاللِّوى وأيـــنَ اللِّـــوى منـــي وأيـــنَ الأراجـــعُ
ليـــاليَ لا لـــيلى إذا رُمـــتُ وَصْـــلَها يلـــوحُ لهـــا مـــن صـــبحِ شـــيبي مواقـــعُ[2]

ويبدأ ابن سعيد قصيدته البائية بالحديث عن أحواله في مصر مباشرة، دون مقدمات، لأن ما يعانيه لا يقبل إلا مثل هذا الاستهلال الباكي المشحون بالمساءلات والشكوى، يقول:

هـــذه حمـــصُ فـــأينَ المغـــربُ؟ مُـــذْ نـــأى عنّـــي دمـــوعي تَـــسْكُبُ
أيـــن حمـــصٌ؟ أيـــن أيـــامي بهـــا؟ بَعْـــدَها لم ألْـــقَ شـــيئاً يُعجِـــبُ[3]

---

(1) عنوان الدراية، ص272.
(2) المصدر السابق، ص275.
(3) النفح، 2/ 281.

وكثرت المقطوعات في وصف الطبيعة، أو شكوى الأحوال التي نتجت عن الغربة. كما وردت الأبيات المتناثرة، التي عبرت عن فكرة واحدة، أو حسّ شعوري سريع بموقف أو بشيء ما.

أما الموشحات والأزجال فسنقف على بعض منها عند تبين أساليب التأثر والتأثير بين المشارقة والمغاربة.

ويعبر الأسلوب بألفاظه ومعانيه وصوره عن شخصية الشاعر وفكره وعن ذوق عصره، ولا شك أن أحداث العصر وتحولاته، وامتزاجها مع طبع الشاعر وثقافته، كلها عوامل تحدد الأسلوب وتميزه.

وقد امتاز ديوان المرتحلين بكثرة الأشعار الشاكية، والقصائد التي تصور الغربة والبُعد عن الوطن، والمقطوعات التي تصور مظاهر الطبيعة بصورة جمالية مبدعة، أكسبت أسلوبهم سلاسة ورقة، خاصة عند حديثهم عن الغربة والانقطاع، مستخدمين ألفاظاً رقيقة تنطق بمعاني نفوسهم. يقول ابن سعيد شاكياً الغربة متوسلاً بالرسول ﷺ ومتشوقاً ليثرب حينما تعذر عليه الحج، بأسلوب يتفطر له المرء حزناً:

وا رحمــــــةً لمتـــــيَّم ذي غربـــــةٍ ... ومَـــعَ التغـــربِ فاتَـــهُ مـــا يقـــصِدُ
يـــا ســـائرين ليثـــربٍ بُلِّغــــتُمُ ... قـــد عـــاقني عنهـــا الزمـــانُ الأنكَـــدُ
يـــا عـــاذلي فـــيما أكابـــد قـــلَّ في ... مـــا أبتغيـــه صــــبابةٌ وتـــسهُّدُ

وترق ألفاظه ومعانيه حينما يخاطب الرسول ﷺ بقوله:

عَيْنـي شـكَتْ رَمَـداً وأنـتَ شـفاؤها ... مـــن دائِهـــا ذاك الثـــري لا الإثمِـــدُ
يـــا جنَّـــةَ الخلـــدِ التـــي قـــد جئتُهـــا ... مـــن دونِ بابـــكَ للجحـــيم توقُّـــدُ
فلـــئن حرمـــتُ بلـــوغَ مـــا أمَّلتُـــهُ ... فلـــديَّ ذكـــرى لا تـــزالُ تَـــرَدَّدُ
لـــولاهُ مـــا بقيـــتْ حيـــاتي ســـاعَةً ... هـــو لي إذا مـــتُّ اشـــتياقاً مولِـــدُ[1]

(1) النفح، 2/ 313، 314.

ولا شك أن نزعة الشكوى والحنين الدائمة في نفسية ابن سعيد جعلته يحسن استخدام موقف عدم حجه في التعبير عن المعاني التي يطرب لها، ولا ينفك يرددها في كل بلد، كما تبيّنا في حديثنا عن الحنين في شعره.

وتشفّ الألفاظ والمعاني عند ضياء الدين الخزرجي في ابتهاله لله تعالى في ساعة مجلوة من ساعات الفجر الغضّ، إذ يقول:

واعتاضَت الزُهُر بعَدَ الزَّهـوِ إذ جَنحَـتْ إلى الغـــوارِبِ مـــن إشراقهـــا غِـــيَرا
وغادَرَ الطَـلُّ زهـرَ الـروضِ حـينَ سَرَتْ رُويحَـــةُ الفجـــر غَـــضّاً نـــاعماً نـــضِرا
وبَـــشَّرَ الفجـــرُ بـــاليوم الجديـــدِ فَقُـــم ونـــادِ مَـــن لَمْ يَـــزَل في الملـــكِ مُقتـــدرا
يـــا عـــالِمَ الـــسرِّ لا تفـــضَحْ سريـــرةَ مَـــنْ وافـــاكَ، يـــا فـــالِقَ الإصـــباحِ مُفتِقـــرا[1]

فقد استخدم أسلوب التصغير في لفظة (رويحة) مما جعلها ترق، ورادف بين (غضاً وناعماً ونضراً)، وكلها ألفاظ متناسقة الحروف، رقيقة المعاني، فحرف الغين المكرر في معظم ألفاظ البيتين الأول والثاني، وحرف الفاء في أكثر كلمات البيتين الثالث والرابع، أكسبت هذه الحروف كلها الأبيات نغمة موسيقية متشاكلة جعلت لموقف الابتهال في النفس أثراً شفيف الإيقاع.

وترددت ألفاظ ومعاني الرحيل في أشعار المرتحلين، فها هو ابن الجنّان يصور دموعه ترتحل من مقلته وتفارق أوطانها مثله بأسلوب مؤثر، يقول:

رَحَلـــوا عـــن ربـــع عينـــي فلـــذا أدمُعـــي عـــن مقلتـــي ترتَحِـــلُ
مـــا لَهَـــا قـــد فارقَـــت أوطانَهـــا وهـــي ليـــست لحماهُـــم تَـــصِلُ
لا تظنّـــوا أننـــي أســـلو فـــما مـــذهبي عـــن حـــبِّكُم ينتقِـــلُ[2]

(1) ملء العيبة، 3/ 47، 48.

(2) اختصار القدح، ص206. النفح، 2/ 121. فقد ورد في القدح عن جدّكم بدل حبّكم.

فقد حملت الأبيات معظم ألفاظ الرحيل والفرقة (رحلوا، ترتحل، فارقت، تنتقل) وترددت مثل تلك الألفاظ، والمعاني المتعلقة بها في معظم أشعارهم، مثل: الشجون والهم والغربة، والواله المتغرب، والغريب والمسكين[1] والحُرَق والانقطاع، وهيج ويقاسي، والضنا[2]، والتغرب، والتوحش، والهجر، والعثار، والتفرق، والندب والبُعد، والبين، والفراق[3]، واستخدموا الرموز التي تدل على معاني الغربة مثل عواء الذئب، وغراب البين[4].

وفي الوقت نفسه، استخدم الشعراء ألفاظاً تتضمن معاني الطرب والنشوة والفرح، فجاءت راقصة ناطقة بفرح نفوسهم، خاصة عند رسمهم صور الطبيعة كما اتضح من خلال الحديث عن الصورة الشعرية ومن هذه الألفاظ، مهزوز، واهتزاز، وتصفيق[5] ونشوان، ولم تخل من الانسياب مثل تسيل، وماج، والتثني، ويجول[6].

واستخدم الشعراء الكثير من الألفاظ ذات الدلالة الحربية مثل السيوف، والسهام، والجياد، والسمر، والرايات[7]، ومن ذلك ما يقوله ابن دحية فيمدح الملك الكامل مستخدماً ألفاظاً لها علاقة بالمعركة مثل: قائم سيفه، والكتائب، والوقائع:

يُدافعُ عنّي الضيمَ قائمُ سيفِهِ ... إذا عزَّ من للضيمِ عنّي يُدافعُ

كتائبُهُ منصورةٌ بكتائبٍ ... من الملأ الأعلى وجبريلُ وازِعُ

ليَهْنَكَ يا عزَّ الملوك بشائرٌ ... بتوالى بها في المشركينَ وقائعُ

(1) عقود الجمان (مخطوط)، ج10، ورقة 20، 21، 22.
(2) المصدر السابق، ج4، ورقة 391.
(3) النفح، 2/ 264، 266.
(4) الرايات، ص180. النفح، 2/ 112، 267.
(5) الفوات، 3/ 140.
(6) المغرب، 2/ 176. ذيل المرآة، 3/ 199، 200.
(7) عنوان الدراية، ص276.

ولا شك أن ظروف العصر الحربية استوجبت استخدام مثل تلك الألفاظ عن قصد أو غير قصد.

ولعل سيطرة الألفاظ المتعلقة بالنجوم والكواكب والكهانة والتنجيم من السمات اللافتة للنظر في هذا العصر، وربما يُعزى تكرار هذه الألفاظ، لاتصالها بعناصر الطبيعة، أو لنهي الحكام عن استخدام المنطق والتنجيم، والهزء بآراء المنجمين ووصفها بالكذب[1]، مما جعل هذه النزعة تزداد لدى الشعراء في التعبير للحكام عن تأييدهم للنهي عن هذه العلوم، باستخدام ألفاظها في معاني الإشادة بممدوحيهم. وقد ورد الكثير من تلك الألفاظ في قصيدة ابن دحية مادحاً الملك الكامل، ومبطلاً ما يقوله المنجّمون، يقول:

أمنـــازلَ الأحبـــاب أيـــن أحبَّتـــي	فهُـــمُ إذا جـــنَّ الظـــلامُ الأنجـــمُ
عـــزُّ الملـــوكِ الكامِـــلُ الـــشرف الـــذي	لعلائِـــهِ الـــسبعُ الكواكـــبُ تخـــدُمُ
فالمـــشتري كالمـــشتري لـــسُعودِهِ	يمـــسي ويـــصبحُ حيـــثُ أمَّ يـــؤمِّمُ
فَـــدَع التحـــرُّسَ يـــا مـــنجّمُ واتَّئـــد	فـــالحُكم عنـــدي غـــير مـــا قـــد تحكُـــمُ
هـــذا الـــصحيح مـــن المقـــالات التـــي	فيهـــا بمكنـــونِ الغيـــوبِ يُـــرجَّمُ
لـــذوي النهـــي والفهـــمِ سرُّ حكومـــةٍ	قـــد حـــارَ فيهـــا كـــاهِنٌ ومـــنجِّمُ[2]

فقد استخدم الشاعر النجوم والكواكب بدلالاتها المختلفة، إذ غدت الكواكب السبع تخدم الملك الكامل، لأنه نجم ساطع بصفاته، وتشابه كوكب المشتري مع المشتري لسعودِه. وحارت هذه الصفات التي شاكلت النجوم والكواكب على المنجمين والكهّان، فجاء الرد على هؤلاء المنجمين من جنس ما ينجمون ويتكهنون به وذلك أبلغ. ووردت

(1) البداية والنهاية، 13/ 158.

(2) عنوان الدراية، ص273، 274.

ألفاظ وصور للنجوم وعلاقتها بالبدور والبروق في مواضع أخرى[1]. كما وصف الشعراء بعض الظواهر الكونية مثل خسوف القمر[2].

وتناول الشعراء ألفاظ العلوم واستخدموها، كألفاظ علم الحديث في قصيدة غزلية لأبي العباس أحمد بن فَرْح، إذ يقول ذاكراً درجاته من صحيح وحسن وضعيف ومتروك وأنواعه..

غَرامي صحيحٌ والرجا فيكَ مُعْضلُ ... وحُزني ودمعي مُطلقٌ ومُسَلْسَلُ

وصبريَ عنكم يشْهَدُ العقلُ أنَّهُ ... ضعيفٌ ومتروك وذلِّيَ أجْمَلُ

ولا حَسَنٌ إلاّ سماعُ حديثكُمْ ... مُشافَهَةً يُملى عليَّ فأنقُلُ

أُقَضِّي زماني فيكَ متصلَ الأسَى ... ومنقَطِعاً عمّا به أتوسَّلُ[3]

واستخدم أثير الدين ألفاظاً في صفات الحروف، كالجهر، والهمس، والغنّه، والصفير.. يقول:

أنا هاوٍ لمستطيلٍ أغنٍّ ... كلَّما اشتدَّ صارت النفسُ رَخْوَهْ

أهمِسُ القولَ وهو يجهرُ سرّاً ... وإذا ما انخَفَضْتُ أظهَرَ عُلْوَهْ

فَتحَ الوَصْلَ ثمَّ أطبَقَ هجراً ... بصفيرٍ والقَلبُ قلقَلَ شجْوَهْ

كما استخدم جمال الدين ابن مالك[4] ألفاظاً ومعاني نحوية[5]. وينحو مثل هذا الشعر منحىً تعليمياً، مما يجعله قوالب لألفاظ مخصوصة، تفقده قيمته الجمالية.

---

(1) انظر: الغصون، ص143. المغرب، 2/ 138. عقود الجمان (مخطوط)، ج9، ورقة 228. الفوات، 3/ 105.

(2) انظر النفح: 2/ 264.

(3) النفح، 2/ 530.

(4) انظر الملحق، الترجمة رقم (43).

(5) انظر: الوافي، 3/ 361-362.

ويعزو د. عبدالعزيز الأهواني هذه الظاهرة إلى انقطاع التواصل بين العارفين بالعلوم والجمهور، فالذين يعرفون أصول علوم اللغة والحديث وغيرها قلة، إذ لا بد للشاعر من استخدام مثل هذه المصطلحات، لزيادة التواصل بين الطرفين[1]، وقد يكون مرد ذلك إلى محاولة الشعراء إظهار البراعة، والتفنن في إبراز بعض سمات خاصة للشعر، ومنها هذه الظاهرة.

وأورد الشعراء في شعرهم ألفاظاً لها اتصال بالزراعة، كالبذر والحصاد، والخصب والجدب والغرس، من ذلك ما يقوله ضياء الدين الخزرجي من قصيدة زهدية:

فباتَ يبذُرُ في أرضِ الرضا حَسَناً وإنما يحصُدُ الإنسانُ ما بَذَرا[2]

ويقول ابن خروف ذاكراً الخصب والجدب والغرس في امتداحه لنفسه:

مثلي يسمّى أريباً مثلي يسمّى أديبا
متى وجدتُ كثيباً غرست فيه قضيبا
ولا أبالي خصيباً لقيتُهُ أم جديبا[3]

وتؤكد مثل هذه الألفاظ ودلالاتها، ارتباطاً بالزراعة، ومعرفة قيمة الأرض وأهمية رعايتها والقيام بشؤونها.

وحملت بعض الألفاظ دلالات مالية كالدراهم والدنانير، وقيمتها في التأثير على حياة الإنسان، من ذلك ما يقوله أثير الدين عن الدراهم التي لا يستطيع ردّها، لقضائها حاجته، وتصييرها الصعب سهلاً:

أجلُّ شفيع ليس يمكنُ ردُّهُ دراهِمُ بيضٌ للجروح مَراهِمُ
تُصيِّرُ صعبَ الأمرِ أسهَلَ ما أرى وتقضي لُباناتِ الفتى وَهو نائِمُ[4]

---

(1) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط2، 1986، ص37-38.
(2) ملء العيبة، 3/ 47.
(3) الغصون، ص142. المغرب، 1/ 138.
(4) الديوان، ص476.

وذكر ابن خروف الدراهم مصوراً إياها بالنجوم[1]، وشبه ابن سعيد السُرج في خليج مصر بالدنانير التي لا ترام[2].

وترددت في أشعار المرتحلين أسماء بض الحيوانات، مستخدمين دلالاتها ومرادفاتها وما ترمز إليه، كالأسد مرادفاته كالضيغم والليث[3]، والظبي والريم[4]، والذئب والسِّيد[5]، والثعبان ورُقشْ الفلا والأراقم والحُباب[6]. والظليم وهو ذكر العام ومن ذلك ما يقوله ابن خروف مقارناً بين سرعة الطرف وسرعة الظليم:

مـــا راقَ للطـــرف غـــيرُ طـــرفٍ   قـــــصَّرَ في العـــــدوِ بـــــالظَّليم

ذي نُقَـــــطٍ كـــــالنجوم تبـــــدو   في جـــنح ليـــلٍ لـــه بَهـــيم[7]

ويقول أبو عبدالله الغُماري جامعاً بين الظبي والأسد مخاطباً الوزير الحلبي مؤيد الدين أبا نصر الشيباني:

وقــــــد جَمَعْــــــتَ نفــــــرةَ الظبــــــي وبطــــــشَ الأسَــــــدِ[8]

ويصف شرف الدين المرسي[9] تثني الماء مشبهاً إياه بتثني الحُباب:

شَـــتّى محاسِـــنُهُ فمـــن زَهْـــرٍ عـــلى   نَهْـــرٍ تَسَلْـــسَلَ كالحُبـــابِ تَسَلـــسُلا

---

(1) انظر: الرايات، ص139.

(2) انظر: الخطط، 1/ 368. النفح، 2/ 349.

(3) انظر: المغرب، 2/ 175. عنوان الدراية، ص274. الإحاطة، 4/ 156.

(4) انظر: الغصون، ص143. الذيل والتكملة، ج5، ق1، ص397.

(5) انظر: النفح، 2/ 112.

(6) انظر: الغصون، ص142، 143. عقود الجمان (مخطوط)، ج7، ورقة 217. الوافي، 3/ 358، و22/ 93.

(7) المغرب، 1/ 138.

(8) عقود الجمان، ج7، ورقة 218.

(9) انظر الملحق، الترجمة رقم (44).

عَرِيَتْ بِهِ شَمسُ الظَّهيرةِ لاتَنِي إحراق صَفْحَتِهِ لهيباً مُشعِلا[1]

لكن هذه الدلالات في معظمها خاصة للحيوانات المؤذية، كالحُباب والذئب لم تأت بمعانيها الحادة وربطها بصفات الناس المؤذية، فالنهر كان تسلسله وانسيابه كالحُباب. والأراقم والثعابين ربطت بوصف عيد من أعياد السبت عند ابن خروف[2]، والسِّيد (الذئب) ربط بمشهد فيه دُعابة[3]. لكننا نجد المشاقة أكثر حدة في تصويرهم للحيوانات المؤذية، ونراها كذلك لا تتصل بما فيه رقة وسلاسة، فقد كانوا - على الأغلب - يربطون بين صفاتها المؤذية، وصفات أعدائهم السيئة. فابن عنين يشبه لئام الناس بالعقارب والثعابي التي تنفث السموم[4]، وقد تأتي مثل هذه الصور الحادة للحيوانات المؤذية في مواضع لا تتطلبها، كتشبيه غلام يركب زورقاً بالعقرب، يقوده ثعبان ماء[5].

ولعل الأثر الديني، من أبرز السمات التي تميز بها شعر المرتحلين، فقد أكثروا من استخدام الألفاظ الدينية الخاصة بالشعائر الإسلامية مثل الوضوء والتيمم والتكبير والصلاة، يقول ابن مالك:

إذا رمِدتْ عيني تداويْتُ منكُمُ بِنَظرةِ حُسْنٍ أو بِسَمْعِ كَلامِ
فإنْ لم أجِدْ ماءً تيمَّمتُ باسمِكُمْ وصلَّيتُ فرضي والديارُ أمامي
وأخلصتُ تكبيري عن الغيرِ مُعرِضاً وقابلتُ أعلامَ السِّوى بِسَلامِ[6]

كما وردت الإشارة إلى السجود، فالعقل يسجد عند بدر بن هود[7] في وصفه لأحوال العشاق:

---

(1) الوافي، 3/ 358.
(2) انظر: الغصون، ص142، 143.
(3) انظر: النفح، 2/ 112.
(4) انظر: ديوان ابن عُنين، ص137.
(5) عقود الجمان (مخطوط)، ج10، ورقة 156.
(6) النفح، 2/ 226.
(7) انظر الملحق، الترجمة رقم (6).

مجـــــــانينُ إلاّ أنّ ذُلَّ جنــــــــونِهِمْ عزيــزٌ عــلى أعتــابِهِمْ يـسجُدُ العقْــلُ[1]

والغصن عند ابن سعيد يسجد[2]، وغدا وقوعه عن الحمار سجود عثار[3]، وأشار بعضهم إلى الصوم والفطر[4]، وإلى البيت العتيق[5]. كما استخدموا دلالات أسماء سور القرآن الكريم، يقول ابن سعيد من مدحه للملك الناصر مستخدماً دلالة سورة الحمد:

مليــكٌ تــرى في وجهِــهِ آيــة الرِّضــا وتقــرأُ مــن أمداحِــهِ ســورةَ الحَمْــدِ[6]

ويستخدم دلالة سورة يوسف، يقول:

هـــذا الـــذي هُـــدْنا لمرسَـــلِ شِـــعرِهِ لّمـــا أتـــى في فـــترة الـــسُّلوانِ
يــا حُــسْنَ ســورة يوسُــفٍ في صــورةٍ تتلـــو عليـــك بـــدائعَ الـــرحمنِ[7]

كما ضمّنوا شعرهم ألفاظاً ومعاني من القرآن الكريم، يقول ابن عتبة الإشبيل في غلام:

رأيـــــتُ في خـــــدِّهِ عِـــــذاراً خلعـــــتُ في حبِّـــــهِ عِـــــذاري
قـــد كَتَـــبَ الحُـــسْنُ فيـــه سَـــطْراً «ويـــولِجُ الليـــلَ في النهـــارِ»[8]

ويقول أبو الحسن الشُّشْتُري، مضمناً من قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ [القصص:36]:

(1) الوافي، 2/ 158.
(2) انظر الرايات، ص175. والمغرب، 2/ 174.
(3) انظر المغرب، الخاص بمصر، 1/ 6. الخطط، 1/ 341.
(4) انظر: القدح، ص6.
(5) انظر: الفوات، 3/ 266.
(6) المغرب، 2/ 175.
(7) مسالك الأبصار (مخطوط)، ج8، ق2، ورقة 388.
(8) الفوات، 3/ 285. وانظر الآية 61 من سورة الحج.

شـــذَّتْ أمــورٌ القــومِ عــن عــاداتِهِمْ فلأجْـلِ ذاكَ يقــالُ ســحرٌ مفــترى[1]

وأشار الشعراء إلى معانٍ وردت في القرآن الكريم مثل جعل النبوة في أبناء يعقوب عليه السلام، وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ [العنكبوت:27] من ذلك ما يقوله ابن خروف ماحاً بني أيوب، مشبهاً إياهم بأبناء يعقوب لتقاهم وصلاحهم:

شـــمسُ الهدايـــةِ في أبنـــاءِ أيّـــوبِ أخـــتُ النبـــوَّةِ في أبنـــاءِ يعقـــوبِ
هـــم الملائِـــكُ في زيِّ الملـــوكِ وهُـــمْ أسْـدُ الحـروبِ وأقطـابُ المحاريـبِ[2]

وأحسن الشعراء استخدام القصص القرآني ورموزه، لا سيما قصة فرعون وموسى عليه السلام وقصة الخضر وموسى عليهما السلام، ويوسف عليه السلام وتملكه خزائن مصر، يقول ابن سعيد مشيراً إلى موسى والخضر أثناء وصفه لنعيم دمشق، مصوراً ينابيعها تتفجر من ضربات عصا موسى، ورياضها تخضر من لمسات الخضر:

وكـــلُّ وادٍ بـــه موســـى يُفجِّـــرُهُ وكُـــلُّ رَوْضٍ عـــلى حافاتِـــهِ الخَـــضِرُ[3]

كما ربط أثير الدين بين انشقاق البدر لمحمد، وانفلاق البحر لموسى - عليهما السلام - يقول:

فللرّســـولِ انـــشقاقُ البـــدرِ نَـــشْهَدُهُ كـــما لموســـى انفـــلاقُ البحـــرِ منقـــولُ[4]

أما ابن خروف، فيوظف قصة فرعون وموسى عليه السلام مع السحرة توظيفاً جيداً، في وصفه لمتنزهات دمشق وميادينها في يوم السبت الذي اختصه أهل دمشق للعبهم وغنائهم ولهوهم، فغدا فيه السحر لجماله، وعُجب ما يعرض فيه، يقول:

(1) ديوان الشُّشتري، تحقيق: د. علي سامي النشار، دار المعارف، الإسكندرية، ط1، 1960، ص41.
(2) الغصون، ص139.
(3) الوافي، 22/ 256.
(4) الديوان، ص469.

تـــروقُ دمـــشقُ ولـــداناً وحـــوراً وتزهـــو زهـــوَ جنـــاتِ النَّعـــيمِ

إذا رَحلـــت عَروبـــةُ[1] عـــن حماهـــا تـــأوَّهَ كُـــلَّ أوّابٍ حلـــيمِ

إلى سَـــبْتٍ حكـــى فرعـــونَ موســـى يجمِّـــعُ كُـــلَّ ســـحّارٍ علـــيمِ

فتبـــصِرُ كُـــلَّ أُملـــودٍ قـــويمٍ يمـــيسُ وكُـــلَّ ثعبـــانٍ عظـــيمِ

إذا انـــسابَتْ أراقمُـــهُ عليـــهِ تـــذكّرْنا بهـــا ليـــلَ الـــسليمِ

وشـــاهدنا بهـــا في كُـــلِّ حـــالٍ حِبـــالاً أُلقِيَـــتْ نحـــوَ الكَلـــيمِ[2]

ويقول ابن سعيد مشيراً إلى تملك يوسف عليه السلام خزائن مصر، وموريًاً باسمه في مدحه للملك الناصر يوسف:

خـــزائنُ أرضِ الله في يَـــدِ يوسُـــفٍ فَهَـلْ لـسواهُ في الملـوكِ يُـرى قَـصدي[3]

وقد استخدم الشعراء ألفاظاً دينية مسيحية، ولعل أبا الحسن الشُّشتُري في قصائده وموشحاته الصوفية، من أكثر الشعراء استخداماً لهذه الألفاظ، إذ تنقل في الربط والأديرة بين بادية الشام ومصر، وأشعاره مليئة بوصف الأديرة والرهبان والشمامِسة[4] والأيقونات والصور، من ذلك وصفه لدير مسيحي وما يجري فيه من شرب الخمر التي لم تكن إلا إلهية، حيث احتساها مع الرهبان والشمامسة واصفاً منهم شمّاساً يختال بثوبه وقاراً، يقول:

تنبَّـــهْ قـــد بَـــدَتْ شـــمسُ العُقـــارْ وقـــد غلَـــبَ الشُّـــعاعُ عـــلى النَّهـــارْ

سُـــلافاً قـــد صَـــفَتْ قِـــدْماً وراقَـــتْ أدِرْهـــا بالـــصِّغارِ وبالكبـــارْ

فـــما عُـــصِرَتْ ومـــا جُعِلَـــتْ بِـــدَنٍّ ومـــا سُـــكِبَتْ زُجاجتُهـــا بنـــارْ

(1) عَروبةُ وعُروبةُ: يوم الجمعة، لسان العرب، مادة: عرب.

(2) الغصون، ص143، 142.

(3) المغرب، 2/ 175.

(4) الشمامِسَة: مفردها الشمّاس، وهو من يقوم بالخدمة في الكنيسة، ومرتبته دون القسيس، وهي لفظة سريانية، المعجم الوسيط، مادة: شمَس.

شرِبناهـــا بـــدَيْرٍ لـــيس فيـــهِ   ســـوى الحَـــلاّجِ في خَلْـــع العِـــذارْ
نـــشا في القـــومِ شـــمّاسٌ لطيـــف   يجـــرُّ الـــذَّيْلَ في ثـــوبِ الوَقـــارْ
فأفنـــاهُمْ بـــه عَـــنهُمْ فتـــاهوا   فـــما يـــرويهُمُ شربُ البحـــارْ
وعنـــدَ دخـــولهِمْ في الـــديرِ ألقَـــوْا   عـــصاهُم إذ ألَمّـــوا بـــالجِوارْ[1]

ولعل سبب إعجابه بحياة الرهبان، هو التشابه الشديد بين حياتهم وحياة الصوفية، فكلتاهما تقومان على الحرمان والزهد والإعراض عن الدنيا، والعيش في طقوس خاصة[2].

وتتداخل الألفاظ النصرانية عند ابن دحية مع بعض الألفاظ الإسلامية في مدحه للملك الكامل، ومحاربته للنصارى وتدميره لكنائسهم ونواقيسهم، يقول:

بأســـيافِهِ في الأرضِ هُـــدَّت كنـــائِسٌ   وشُـــيِّدَ للإســـلام فيهـــا جوامِـــعُ
لِيَهنَـــكَ يـــا عـــزَّ الملـــوك بـــشائرٌ   تـــوالى بهـــا في المـــشركينَ وقـــائعُ
تُـدالُ بهـا أرضُ العِـدى بـالعمى هُـدى   يُكـــسَّرُ نـــاقوسٌ وتُبنـــى صـــوامعُ[3]

أما بدر الدين بن هود فيشير إلى قس النصارى وحبر اليهود معرضاً بأقوالهم التي يدحضها الحق:

ســـلامٌ علـــيكم صـــدَّقَ الخَـــبَرَ الخُـــبْرُ   فَلَمْ يَبْـقَ قـالَ القُـسُّ أو حـدَّثَ الحَـبرُ[4]

كثر استخدام ألفاظ مذهب التصوف، نظراً لانتشار التصوف والزهد في المجتمع بصورة واضحة، نتيجة للظروف غير المتوازنة التي توسد حياة المجتمع والتي أدت للاتجاه لتيار اللهو والترف، أو للتصوف والزهد بصورة متطرفة في كلا الجانب، ولعل ظهور

---

(1) الديوان، ص40.
(2) علي سامي النشار (صوفي أندلسي مجهول)، مقالة في مجلة الأديب، ج9، السنة الثالثة، بيروت، 1944، ص19.
(3) عنوان الدراية، ص276.
(4) الوافي، 2/ 159.

أشهر المتصوفة في هذا العصر مثل السُّهروردي وابن عربي وأبي الحسن الششتري وما يدور بينهم وبين الفقهاء من المناقشات، من الأمور التي أجّجت هذا الاتجاه، مما كان له أثر بيّن في استخدام الشعراء لألفاظ ومعاني التصوف، يقول بدر الدين بن هود، مستخدماً ألفاظ الظاهر والباطن والتجلي:

ألا يـا حبيـبَ القلـب يـا مـن بـذكرِهِ ... عـلى ظـاهري مـن بـاطني شـاهِدٌ عَـدْلُ
تجلَّيْـتَ لي منّـي عـليَّ فأصـبَحَتْ ... صـفاتي تنـادي لمـا لحبوبنـا مِثْـلُ[1]

أما ابن الجنّان فيؤمن بالحلول، لكن في دين الهوى كما يقول:

أحبابَنـا ودَّعـتُمُ نـاظري ... وأنـتُمُ بـين ضـلوعي نـزولْ
حللـتُمُ قلبـيَ وهـو الـذي ... يقـولُ في ديـنِ الهـوى بـالحُلولْ[2]

كما وردت ألفاظ أخرى مثل البعض والكل، والوجود والقِدَم[3]، والخلود والتفرد والأغيار والفناء والعدم[4].

ومن الظواهر الأسلوبية التكرار، فقد كرر الشعراء في ألفاظهم ومعانيهم وصورهم وحروفهم، وعلق ابن الأثير على هذه الظاهرة بقوله: «إنها من المفيد أن تأتي لمعنى، ومن غير المفيد أن تأتي لغير معنى»[5]. وقد كان سبب التكرار اللفظي - على الأغلب - استخدام المجانسة كما تبيّنا عند الحديث عن الفنون البديعية، وكرر الشعراء في مطارحاتهم ومساجلاتهم لما تستوجبه من تكرار واستخدام ألفاظ متشابهة، أو استخدام ألفاظ بعينها عند الرد، من ذلك المساجلة بين ابن سعيد وابن العديم، حيث يقول ابن العديم في بيات كتبها لابن سعيد:

---

(1) الوافي، 2/ 158.
(2) القدح، ص209.
(3) انظر، الوافي، 2/ 159.
(4) انظر: ديوان أبي حيان، ص432.
(5) ابن الأثير: ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تقديم وتعليق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، ط2، 1973، 3/ 4.

يـــا ابـــن ســـعيدٍ إليـــكَ شـــوقي (شـــوقك للغـــصْنِ والكثيـــبِ)

فأجابه ابن سعيد بقوله:

يـــا ابـــن الكَـــمالِ اطَّـــرحْ كتابـــاً (في الـــشوقِ للغـــصنِ والكثيـــبِ)[1]

ويجمع ابن دحية بين التكرار اللفظي الناتج عن المجانسة وعن غير المجانسة، خاصة المتعلق بألفاظ النجوم، وبين التكرار المعنوي، يقول:

أمنـــازِلَ الأحبـــابِ أيـــنَ أحبَّتـــي فهُـــمُ إذا جَـــنَّ الظـــلامُ الأنجُـــمُ

وسَرَوا وقـــد أسَروا الفـــؤادَ وحرَّمـــوا طيـــبَ الهُجـــوعِ عـــليَّ لَمّـــا أحْرَمـــوا

أحبابَنـــا طـــالَ المطـــالُ بوعَـــدِكُمْ لي بالوصـــالِ وطـــال لـــيلي فـــيكُمْ

ورحلـــتُمْ بالقلـــبِ يـــومَ رحلـــتُمُ وظعنـــتُمُ بالـــصبرِ يـــومَ ظعنـــتُمُ[2]

فمعاني المساءلة عن الأحبة والألم لفقدهم تكررت في معظم الأبيات، وتكررت الألفاظ في كل الأبيات، بين الأحباب وأحبتي، وسَروا وأسروا، وهم وهم، وطال والمطال، ورحلتم ورحلتم، وظعنتم وظعنتم، وإن كانت مواضع التكرار أكسبت بعض الأبيات موسيقى خاصة، إلا أنها أفقدتها جزءاً من فنيتها، لأنها جاءت مقصودة لذاتها.

وتكررت عند بعض الشعراء ألفاظ وصور تشخيصية بعينها في مواضع متفرقة، مثل لفظة الجناح عند ابن سعيد، فالخليج طائر له جناح[3]، وللرياح أجنحة[4]، وأجنحة السيوف[5]، والحمام يعيرُ جناحَهُ[6]، والشمس طائر يمُدُّ جناحه[7]. كما أولع ابن سعيد

(1) القدح، ص6.
(2) عنوان الدراية، ص273.
(3) الرايات، ص179.
(4) الوافي، 22/ 255.
(5) الإحاطة، 4/ 154.
(6) النفح، 2/ 307.
(7) الرايات، ص180. النفح، 2/ 307.

أولع ابن سعيد بالريح والغصن وتفنن في رسم صورهما، وترداد لفظيهما في عدد من المواضع، فالغصن يسجد، والريح تدنيه لليد[1]، والريح تبدي الخفايا، وتميِّلُ الأغصان لتقبِّل أوجه الجدران، والغصون تميل لتقرأ[2].

ولعل هذه الألفاظ، وخاصة لفظة الجناح لها ارتباط بنفسية ابن سعيد المتقلبة لما ترمز إليه من الحركة الدائمة والتنقل والارتحال، وهذه من أخص صفات ابن سعيد الذي لم يكن يستقر في مكان ما، إلا ويفكر في الارتحال إلى آخر، كما أن الجناح يرمز للحمام الذي يعبر صوته عن الحنين والشوق وتهييج الأشجان، فنفسية ابن سعيد مولعة بهذه الأحاسيس التي يرددها في معظم شعره في كل مرحلة من مراحل حياته مع اختلاف درجاتها في كل موضع، ولعل لفظي الريح والغصن لهما ارتباط بالجناح، وتجمعهما معه الحركة، وعدم الاستقرار، والمطاوعة في الخفقان وكلها لها اتصال بنفسية ابن سعيد التواقة دائماً للحرية والتحليق والانطلاق.

ومثلما تكررت الألفاظ والمعاني والصور، فقد تناوبت الحروف ظاهرة التكرار في أبيات الشعراء وقوافيهم على هيئة تطريزية خاصة، لا تخلو من تفنن وجمال موسيقي في بعض المواضع، من ذلك تكرار حرف الفاء ثلاث عشرة مرة في قول ابن الجنّان:

عَرْفُ النَّسيمِ بعَرفِكُم يتعرَّفُ ... وأخو الغرامِ بحبِّكُم يتشرَّفُ
شَرَف المتيَّم في هواكم أنَّهُ ... طوراً ينوحُ وتارةً يتلهَّفُ
لطُفت معانيه فَهَبَّ مع الصَّبا ... فرقيبُهُ بهبوبِهِ لا يعرفُ
وإذا الرقيبُ درى به فلأنَّهُ ... أخفى لديه منَ النَسيم وألطَفُ[3]

ويناوب ابن سعيد في تكراره للحرفين الحلقيين الحاء والهاء، يقول:

أقلقه وجدُهُ فباحا ... وزاد تبريحُهُ فناحا

(1) الرايات، ص175، 174.
(2) الفوات، 3/ 263.
(3) ذيل المرآة، 3/ 201.

يُكابِــــدُ المَـــوتَ كُـــلَّ حـــينٍ   لــــو أنَّـــهُ مـــاتَ لاســــتراحا
ينــــزو إذا مـــا الرِّيـــاحُ هبَّـــتْ   كأنَّــــــهُ يعـــــشَقُ الرِّياحـــــا
يــــسألُها عـــن ربـــوع حمـــصٍ   لمّـــا نـــما عَرفُهـــا وفاحـــا
كــم قـــد بكـــى للحـــمامِ كـــيما   يُعــــيرَه نَحْوَهـــا جَناحـــا[1]

لقد تكرر حرف الحاء إحدى عشرة مرة، وحرف الهاء عشر مرات، وهي نسبة متقاربة، وقد أحسن ابن سعيد اختياره لهذين الحرفين في حديثه عن الغربة، فهما حرفان مهموسان، أقرب إلى شجون النفس ودواخلها، وزاد في سلاسة الشعر ورقته استخدام الوزن المجزوء لبحر البسيط.

ويكرر أثير الدين حرف السين خمس مرات في بيت واحد من مقطوعة سينية، يقول:

أَرَحـتُ نفـسي مـن الإينـاس بالنّـاسِ   كـما غنيـتُ عـن الأكيـاس باليـاسِ[2]

ويلاحظ أن لفظ القافية – في الغالب – هو الذي يتكرر في حشو الشعر، فأبيات ابن الجنّان غلب عليها تكرار حرف الفاء وهو حرف القافية، وكذلك ابن سعيد، وأثير الدين.

ويتناوب عند محي الدين تكرار حروف عدة في مقطوعة يدعو فيها إلى عدم وصف الله تعالى كوصف المخلوقات، بل تمجيده فرداً واحداً، للسعادة بلحظة الوصل، يقول:

فَقُــم بوصـــف الإلـــه وانظـــر   إليـــه فـــرداً عـــلى انفِـــرادِ
والـــبَس لمـــولاكَ ثـــوبَ فقْـــرٍ   كـــي تحـــظَ بالواهِـــب الجـــوادِ
وقُـــــل إذا أجبتَـــــهُ فقـــــيراً   يـــا ســـيِّداً ودُّهُ اعـــتمادي[3]

(1) النفح، 2/ 307.
(2) الديوان، ص456.
(3) ديوان ابن عربي (مخطوط)، ص8.

كرر ابن عربي حرف الفاء أربع مرات في البيت الأول، مرتين في كل شطر، وكرر حرف الدال مرتين في الشطر الثاني من البيت الأول، وثلاث مرات في الشطر الأخير من الأبيات، فقد كان لاستخدام الحروف عند المتصوفة رموز ومدلولات خاصة، لها أهميتها في فلسفة التصوف، لا سيما أن الحرف يتعلق بأسرار المعاني القرآنية، والرموز المستوحاة منها[1].

ولعل من الملاحظ أن الحروف التي يستخدمها الشعراء المرتحلون للتكرار هي حروف رقيقة مهموسة في معظمها، لما تحمله من موسيقى وانسياب يحملها معظم شعرهم الأندلسي وربما كانوا يستخدمونها لتعويض إحساسهم باختلال موسيقى شعرهم أحياناً، فتأتي هذه الحروف لتعوض عن إحساسهم بفقدان هذه السلاسة الرقراقة التي اعتادوا عليها بطبعهم، وأكسبتها إياهم طبيعة بلادهم الجميلة، وإحساسهم بالاطمئنان في وطنهم، الذي أدى ترحالهم إلى فقدانهم له، وفقدان شيء من هذه السلاسة التي كانت نتيجة للرفاهية والأمن وجمال وطنهم الذي لم يستطيعوا أن ينسوه أو يقبلوا بغيره بديلاً.

وقد يتجاوز بعض الشعراء في ألفاظهم ومعانيهم، مستخدمين ألفاظ شتم الأعراض، والسِّباب، مما قد يؤثر على فنية الشعر وقيمته، من ذلك ما يقوله أثير الدين في جاهل لبس صوفاً وزها فيه:

أيـا كاسـياً مـن جَيِّـدِ الصوفِ نفسَهُ ... ويـا عاريـاً مـن كُـلِّ فـضلٍ ومـن كَـيْسِ
أتَزهـى بِصوفٍ وهـو بـالأمسِ مُـصبحٌ ... عـلى نعجَـةٍ والآنَ مُمْـسٍ عـلى تَـيْسِ[2]

ويعرِّض ابن خروف القرطبي بالمهذّب الدّخوار الطبيب في مقطوعة يقول منها:

إنَّ الأُعَيـرجَ حـازَ الطـبَّ أجمَعَـهُ ... أسـتغفرُ اللهَ إلاّ العِلْـمَ والعَمَـلا

(1) عمر موسى باشا: قطب العصر عمر اليافي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1933، ص545.
(2) الديوان، ص237.

ولـيسَ يجهَـلُ شـيئاً مـن غوامِـضِهِ إلاّ الجـواهِرَ والأعـراضَ والعِلَـلا[1]

وقد اشتملت بعض الأبيات على ألفاظ ينبو عنها الذوق، لما فيها من كلام قبيح وطعن بالأعراض[2]، وقد خرج فيها بعض الشعراء عن الدين، بألفاظ ومعانٍ لا تليق[3].

ولم يخلُ شعر المرتحلين من إيراد الحكم والأمثال، وما تحمله من قيم اجتماعية وثقافية، واتصال بالتراث، من ذلك ما يورده ابن سراقة من حكمة حتمية الأقدار التي لا بد من وقوعها على الرغم من معاندة المرء لها:

مُـرادِيَ شيءٌ والمقـاديرُ غـيرُهُ ومـن عانَـدَ الأقـدارَ لا شـكَّ يُغْلَـبُ[4]

كذلك ما يورده أثير الدين في القناعة، وعدم لبس المرء غيرَ أثوابه، لأنه سيعثُرُ فيها:

رضـيتُ كفـافي رتبَـةً ومعيـشةً فلـستُ أُسـامي مُـوسِراً ووجيهـا
ومـن جـرَّ أثـوابَ الزَّمـانِ طويلـةً فـلا بُـدَ يومـاً أنْ سـيعثُرُ فيهـا[5]

ومن الأمثال التي أوردوها: «سَبَقَ السيفُ العَذْل»[6] بتبديل بعض ألفاظه في قول ابن سعيد:

فيـا عـاذِلي فـيما جَنَتـهُ لحاظُـهُ أتعـذِلُني والـسَّيْفُ للعَـذْلِ قـد سَبقْ[7]

---

(1) عقود الجمان (مخطوط)، 4/ 414.
(2) انظر: المغرب، 1/ 137. الوافي، 22/ 91.
(3) انظر: اختصار القدح، ص210، 212.
(4) النفح، 2/ 64.
(5) النفح، 2/ 563. لم ترد في الديوان.
(6) الميداني، أبو الفضل أحمد بن إبراهيم: مجمع الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت - لبنان، ط2، 1987، 2/ 97. قيل: قال هذا المثل ضبة بن أدّ لما لامه الناس على قتل قاتل ابنه، وقد مرّ على القصة عام.
(7) المغرب، 2/ 178.

أما ضياء الدين الخزرجي فيستخدم المثل: «قلَبَ لَهُ ظَهْرَ المِجَنّ»[1] في الشطر الأول بتغيير بسيط في قوله:

ومُــتْرَفٍ قَلَبْــتُ ظهْــرَ المِجَــنّ لــه   فعــادَ بَعْــدَ عُلُــوٍّ القَــدْرِ مُحْتَقَــرا[2]

بين التأثر والتأثير

لا شك أن دراسة جوانب التأثر والتأثير بين شعر المشارقة وشعر الأندلسيين الذين ارتحلوا، من القضايا التي تحتاج لدقة وتتبع، لأن الباحث قد لا يستطع التمييز أحياناً بين الأثر المشرقي أو الأثر المغربي في الشعر، لأنهما قد يلتقيان في الكثير من المواطن، مما لا ينفي تميز كل منهما بسمات خاصة، تحتاج إلى حسٍّ عارف، ومثل هذه الدراسات لا تخلو من متعة، وتحتاج إلى استفاضة وبحث قائم بذاته. بما لا يمكن لهذه الجزئية أن تلمَّ بمعظم جوانبه، إلا أن مثل هذه الإشارات قد تفتح أبواباً لدراسات في الأدب المقارن بين المشرق والمغرب.

اختارت الباحثة بعض النماذج من شعر المشارقة، وأخرى من شعر الأندلسيين المرتحلين، لإبراز بعض جوانب التأثير المتبادل في الألفاظ والمعاني والصور. وسبقت ذلك دراسة للمطارحات والمساجلات والمعارضات الأدبية بين المشارقة والمرتحلين. ولا بد من الوقوف على تأثر المرتحلين بشعر المشارقة السابقين وتأثرهم وتأثيرهم في شعر المشارقة المعاصرين.

تأثر الشعراء المرتحلين بشعر المشارقة السابقين

قبل الوقوف على جوانب التأثر المعاصرة، لا بد من تتبع بعض جوانب التأثر بشعر المشارقة الموروث، وهو ما يعرف بالنزعة الاتباعية، وحتى لو لم يكن الأندلسيون المرتحلون مقلدين للمشارقة، فلسوف يتبعون هذا الشعر شأنهم شأن المشارقة في ذلك العصر، بالإضافة إلى أن المشارقة هم المثل الأعلى لهم، منذ القرون الأولى، كما أشار ابن

(1) مجمع الأمثال، 2/ 490. يضرب هذا المثل لمن كان لصاحبه على مودة ثم حال عن العهد.
(2) ملء العيبة، 3/ 47.

بسام في الذخيرة بقوله: «إن أهل هذا الأفق - الأندلس - أَبَوْا إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا إلى هذا صنما، وتلَوْا ذلك كتاباً مُحكماً»[1].

فقد تأثر الشعراء الأندلسيون بشعراء سابقين من المشارقة، وأخذوا من صورهم ومعانيهم وألفاظهم، إذ كانوا يستحضرون أبياتهم ويحاكمونها، يقول ابن دحية واصفاً روضة مقارناً جمالها بجمال قصيدة في الملك الكامل:

فما روضةٌ غنّاءُ مرّ بها الصَّبا ... بنَشْر شَذاها الطيِّب النَّشرِ ذائعُ
له من شكير الدهرِ بُردٌ مُفوَّفٌ ... أتيحَ له من أرضِ صنعاءَ صانعُ
بأحْسَنَ من توشيحِ مدحي الذي بهِ ... بدائعُ من وَشْي البديع رَصائعُ[2]

وكأنه يستحضر قول الأعشى ميمون في وصف روضة مقارناً إياها بالمحبوبة:

ما روضةٌ من رياضِ الحَزنِ مُعْشِبَةٌ ... خضراءُ جادَ عليها مُسبِلٌ هَطِلُ
يضاحِكُ الشمسَ منها كَوْكَبٌ شَرِقٌ ... مؤزَّرٌ بعَميم النبتِ مُكتَهِلُ[3]
يوماً بأطيبَ منها نشرَ رائحةٍ ... ولا بأحسَنَ منها إذ دنا الأصُلُ[4]

أما ابن حمدون فيقول:

فؤادٌ بأيدي النائبات مُصابُ ... وجفنٌ لفيضِ الدَّمعِ فيه مَصابُ
تناءَت ديارٌ قد ألفتُ وجيرَةٌ ... فهل لي إلى عَهْدِ الوِصال إيابُ
فلم تُلهِهِ دُنياهُ عن خوفِ رَبِّهِ ... ولا شَغَلَتْهُ عن رِضاهُ كَعابُ

---

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1979، ج1، ق1، ص12.
(2) عنوان الدراية، ص277.
(3) كوكب شرق: يشبه النور بالكوكب لإشراقة وإضاءته، لسان العرب: مادة (كوكب) مكتهل: اكتهل النبتُ تم طوله، وظهر نوره، لسان العرب، مادة (كهل).
(4) ديوان الأعشى، شرح وتعليق محمد محمد حسين، المكتب الشرقي للنشر، بيروت 1968، ص93.

مـضى زمنـي والـشَّيبُ حـلَّ بمَفرِقـي وأبعَـــدُ شيءٍ أن يُـــردَّ شَـــبابُ[1]

وهو ينهج في ذلك نهج أبي فراس في بائيته المشهورة:

أمـــا لِجَميـــلٍ عنـــدكُنّ ثَـــوابُ ولا لِمُـــسيءٍ عنـــدكُنَّ مَتـــابُ؟
لقـد ضَـلَّ مـن تحـوي هـواه خريـدَةٌ وقـد ذَلَّ مـن تقـضي عليـه كَعـابُ
ولا تَمَلِـكُ الحـسناءُ قلبـيَ كُلَّـهُ وإنْ شَـمَلَتْها رِقـةٌ وشَـبابُ[2]

يتبدّى أثر غير مباشر لأبي تمام في شعر ابن سعيد، لا سيما في افتتاحيات قصائد أبي تمام من مثل قوله:

قَـدْك اتَّئِـب أربَيْـتَ في الغَلَـواءِ كَـمْ تَعْـذِلونَ وأنـتُمُ سُـجَرائي[3]

وقوله في الرثاء:

كـذا فليجـلَّ الخطـبُ ولْيَفْـدَحِ الأمـرُ فلـيسَ لعـينٍ لم يفـض ماؤُهـا عُـذْرُ[4]

وشبيه ذلك قول ابن سعيد في افتتاح قصيدة:

بالعَـدْلِ قُمْـتَ وبالـسَّماحِ فَلِـنْ وَجُـدْ لا فارَقَتْـكَ كفايـةٌ وعَطـاءُ[5]

وقوله في افتتاح قصيدة أخرى يمدح فيها الملك الناصر:

(1) النفح، 2/ 609-610.
(2) ديوان أبي فراس الحمداني، شرح وتقديم عباس عبدالستار، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط2، 1986، ص13، 14.
(3) ديوان أبي تمام، بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، مصر، 1957، 1/ 20. اتئبْ: استحِ، اللسان: مادة: تأب. الغُلَواءِ: الزيادة ومجاوزة الحد، المعجم الوسيط، مادة: غَلَوَ. السُّجَراء: الأخلاء والأصفياء. لسان العرب: مادة: سَجَرَ.
(4) الديوان، 4/ 79.
(5) النفح، 2/ 263.

جُـدْ لي بـما ألقـى الخيـالُ مـن الكَـرى   لا بُـدَّ للـضيفِ المُلِـمِّ مـن القِـرى[1]

كما ينثر ابن سعيد أبياتاً لأبي تام، يقول: «وقد ثنى المملوكُ عنانَ سيره، خوفاً من أن يكونَ بشعرِهِ مفتوناً، فيتعصَّب لنفسه أكثر من غيره»[2]. أما الأبيات المنثورة لأبي تمام فهي قوله:

جاءَتْـكَ مـن نَظْـمِ اللـسانِ قِـلادةٌ   سِـمطانِ فيهـا اللؤلـؤُ المكنـونُ
أحَـذاكَها صَـنَعُ اللـسانِ يمـدُّهُ   جَفْـرٌ إذا نَـضَبَ الكَـلامُ مَعـينُ[3]
ويـسيءُ بالإحـسانِ ظنّـاً لا كَمَـن   هـو بابنـه وبـشِعْرِهِ مفتـونُ[4]

ويأخذ ابن سعيد من معنى لابن المعتز، إذ يقول من وصفه لغلام نائم تحت شجرة:

الـرّيحُ أقْـوَدُ مـا تكـونُ فإنّهـا   تُبـدي خَفايـا الـرِّدْف والأعكـانِ[5]

أما ابن المعتز فيقول:

لا تلـقَ إلاّ بلَيْـلٍ مَـنْ تُواصِـلُهُ   فالـشَّمسُ نمّامَـةٌ والليـلُ قَـوّادُ
كـمْ عاشـقٍ وظـلامُ اللّيـلِ يَـستُرُهُ   لاقـى أحبَّتَـهُ والنـاسُ رُقّـادُ[6]

وهناك صدى في شعر ابن سعيد لشعر المتنبي، خاصة في العتاب، ولعل معظم جوانب هذا التأثر برزت فيما كتبه لابن عمه وزير الحفصيين في تونس، وأشعاره في

(1) المغرب، 2/ 175.
(2) الرايات، ص182.
(3) الجَفْر: البئر الواسعة الفم، وتدل على معنى الغزارة.
(4) ديوان أبي تمام بشرح التبريزي، 3/ 328، 331.
(5) الرايات، ص174.
(6) ديوان ابن المعتز أبو العباس عبدالله بن محمد، تحقيق ودراسة محمد بديع شريف، دار المعارف بمصر 1977، 1/ 342.

إشبيلية، ورثائه للوزير أبي العلاء إدريس[1] بما لا يدخل ضمن هذه الدراسة لتعلقها بشعر المرتحلين في مصر والشام.

وضمّن الشعراء المرتحلون قصائدهم أشطراً أو أبياتاً من أشعار المشارقة من ذلك قول ابن الجنّان:

لله قـــومٌ يعـــشقونَ ذوي اللِّحـــى　　«لا يـــسألونَ عـــن الـــسَّوادِ المقْبـــلِ»

وبمهجتـــــي قـــــومٌ وإنّي مـــــنهُمُ　　«جُبلـــوا عـــلى حُـــبِّ الطِّـــراز الأوَّلِ»[2]

وهو يضمّن قول حسان بن ثاب في المدح:

بـــيضُ الوجـــوهِ كريمـــةٌ أحـــسابُهُم　　شُـــمُّ الأنـــوفِ مـــن الطـــرّازِ الأوَّلِ

يُغْـــشَوْنَ حتـــى مـــا تهـــرُّ كِلابُهُـــم　　لا يـــسالونَ عـــن الـــسَّوادِ المُقبِـــلِ[3]

ويضمِّن ابن حمدون في مدحه للرسول ﷺ بيتاً كاملاً من قصيدة أبي فراس البائية، هو:

«فليتَـــكَ تحلـــو والحيـــاةُ مريـــرةٌ　　وليتَـــكَ تـــرضى والأنـــامُ غـــضابُ»

التأثر والتأثير بين الشعراء المرتحلين والشعراء المشارقة المعاصرين

أما بعض جوانب التأثر والتأثير بين الشعراء المرتحلين وشعراء العصر من المشارقة، فقد تبدت من خلال المشاركات الموضوعية والفنية في مجالسهم، والتي عكست المطارحات والمساجلات والمعارضات جوانب منها، وقد تداخلت الألفاظ والمعاني في الكثير من الأحيان، بحيث يصعب جعل بعضها سمة فاصلة مميزة لشعر المشارقة أو شعر المغاربة. وحملت بعض هذه المجالس آراءً وأحكاماً نقدية، وسمات فنية خاصة لشعر

(1) انظر النفح، 2/ 274، 278، 280.

(2) النفح، 2/ 123.

(3) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، دار صار ودار بيروت، بيروت، 1966، ص180.

المشارقة وشعر المغاربة، ومقارنات بينهما من خلال ما دار بين شعرائهم، من ذلك ما وقع بين ابن سعيد والبهاء زهير، فحينما أنشد البهاء زهير قصيدته التي مطلعها:

رُوَيْدَكَ قد أفنيتَ يا بينُ أدمُعي ... وحسبُكَ قد أحرقْتَ يا وجدُ أضلُعي[1]

أعجبه انفعال ابن سعيد بها، وأورد رأيه لابن سعيد في شعر المغاربة بقوله: «واعلم أنك نشأت ببلاد ولع شعراؤها بالغوص على المعاني، وزهدوا في عذوبة الألفاظ، والتلاعب بمحاسن صياغتها المكسوّة بأسرار الغرام»[2] وأوضح له أن طريقة المغاربة مثل قول ابن خفاجة:

وعشيٍّ أنسٍ أضجعتني نشوةٌ ... فيه تُمَهِّدُ مَضجَعي وتُدمِّثُ

خَلَعتْ عليَّ بها الأراكةُ ظِلَّها ... والغصنُ يُصغي والحمامُ يحدِّثِ

والشمسُ تجنَحُ للغروبِ مريضةً ... والرعدُ يرقي والحمامَةُ تنفُثُ[3]

وقول الرصافي[4]:

غُزيِّلٌ لم تزلْ في الغزلِ جائلةً ... بنانُهُ جَوَلانَ الفكرِ في الغَزَلِ

جذلانُ تلعَبُ بالمحواكِ أنملُهُ ... على السَّدى لَعِبَ الأيامِ بالدُّوَلِ[5]

وهم في ذلك «لا يُشقُّ غُبارُهُم، ولا تُلحَقُ آثارُهُم» وأما مثل قول ابن المعلّم الواسطي:

واستقبلوا الوادي فأطرقتِ المها ... وتحيَّرت بغصونِها الكُثبانُ

---

(1) ديوان البهاء، ص195.

(2) الوافي، 14/ 233.

(3) ديوان ابن خفاجة، تحقيق: السيد مصطفى غازي، دار المعارف بمصر، 1960، ص285.

(4) الرصافي: محمد بن غالب الرفّاء أبو عبدالله، شاعر وقته في الأندلس، أصله من رصافة بلنسية، كان يرفأ الثياب ترفعاً عن التكسب بشعره، أقام مدة بغرناطة، سكن مالقة وتوفي بها سنة 572هـ. انظر: وفيات الأعيان، 4/ 432-433.

(5) ديوان الرصافي أبو عبدالله محمد بن غالب، جمعه وقدم له د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1960، ص122.

فكـــأنها اعتَرفـــتْ لهـــم بقُـــدودِها الأغـــصانُ أو بعيونِهـــا الغـــزلانُ[1]

وقول سبط ابن التعاويذي:

إن قلتُ جُرْتَ عـلى ضـعفي يقـول متـى — كـان المُحِـبُّ مـن المحبـوب منتـصِفا

أو قلـتُ أتلفْـتَ روحـي قـال لا عَجَـبٌ — مـن ذاقَ طعـم الهـوى يومـاً ومـا تَلِفـا

مـا قلـتُمُ الغـصنُ ميّـالٌ ومنعطِـفٌ — فكيـفَ مـالَ عـلى ضـعفي ومـا عَطَفـا[2]

«فطرازٌ لا يلمُ به أهلُ بلادكم»[3] أي المغاربة.

إذن يرى البهاء أن الأندلسيين أجهدوا أنفسهم في الغوص على المعاني على حساب الألفاظ التي لم تكن مكسوة بالعذوبة والتلاعب بمحاسنها، ولم يذم طريقتهم، لكنه فضل أشعار المشارقة على أشعارهم لنفثها سحر اللفظ وعذوبته. ويرد عليه ابن سعيد بإيراد أبيات من شعر ابن زيدون، فيثني عليه البهاء بصدق العشق، ثم يطلب البهاء من ابن سعيد حفظ أشعار التَلَّعفَري حتى تستقيم له طريقة المشارقة، ويختبره بعد فترة بأن يطلب منه إجازة شطر، ليتبين مدى قدرته في تقليد طريقة المشارقة والشطر هو:

يـــا بـــانَ وادي الأجـــرُعِ

فيجيز ابن سعيد:

سُـــقيتَ سُـــحْبَ الأدمُـــع

فيردّ عليه بأنه قد قارب طريقة المشارقة، لكن طريقتهم أن يقول:

هـــل مِلْـــتَ مـــن شـــوقٍ معـــي

فيقره ابن سعيد على ذلك بقوله: «الحق ما عليه غطاء». حتى ينشده ابن سعيد قوله:

---

(1) الوافي، 14/ 233، 234.

(2) ديوان سبط ابن التعاويذي، نسخ وتصحيح د. س مرجليوث، مطبعة المقتطف، مصر 1903، ص292.

(3) الوافي، 14/ 234.

واطــــولَ شــــوقي إلى ثغــــورٍ مــــلأى مــــن الــــشهد والرَّحيــــقِ
عنهــــا أخــــذتُ الــــذي تــــراه يعــــذُبُ في شــــعريَ الرَّقيــــقِ

فيرتاح البهاء لذلك ويقول: «سلكتَ جادّة الطريق، ما تحتاج إلى دليل»[1].

إذن يرتاح المغاربة إن استطاعوا الاقتراب من طريق المشارقة، لكن ذلك لا ينفي أن لهم طريقتهم الخاصة، التي لا تخلو من تأثير مشرقي، ولعلنا وقفنا على بعض سمات طريقتهم في صورهم وما فيه من إعمال فكر، وإجهاد في بناء الصور الشعرية واستحضار المعاني.

ولعل المشارقة حاولوا تقليد طريقة المغاربة كذلك، من خلال المطارحات، من ذلك ما يقوله النور الأسْعُردي في وصف إحدى الجنان في الشام وقد كان معه ابن سعيد:

رَوْضٌ ونهــرٌ وظــلٌّ وارفٌ وشــذا زهــرٌ وألحــانُ طــيرٍ فيــه تــصطخبُ
كــأنهنّ بــدورٌ نَــستنيرُ بهــا لنـا غـصونٌ زَهَـت مـن تحتهـا كُثـبُ[2]

فأين هذا من وصف ابن سعيد للروض المطروز بألوان شتى، والطيور تغرِّد على الأغصان في صورة بديعةٍ مركّبة[3].

ولعل ابن عز القضاة قد تأثر بصور المغاربة للطبيعة وهو يصف جنة على نهر بردى لابن سعيد، ويرسم من خلال ذلك صورة مركبة تقارب صور المغاربة، فالنهر حاك حلة من الدَّوح، والريح يطوي على السمك لينشره، ويطوِّق الوُرق، يقول:

فــالنَّهرُ قــد حــاك لــه حُلَّــةً مــن صــبغةِ الــدَّوحِ بهــا يرتــدي
وقـد طَـوى الـرّيحُ عـلى المسكِ كـي يفــوحَ منهــا نــشرُها في غَــدِ
وطــوَّقَ الــوُرقَ بإحــسانِهِ ولــثَّمَ الــشحرورَ بالعــسجَدِ[4]

---

(1) انظر: الحادثة والأبيات في الوافي، 14/ 234-235.
(2) المقتطف، ص157.
(3) انظر: الدراسة، ص143-144.
(4) المقتطف، ص158.

لكن صور المغاربة أشد حبكاً، وهم أقدر على بناء الصورة الشعرية الطويلة الأكثر تكاملاً.

ونجد معاني بعينها في بعض صور المشارقة والمغاربة، فحينما كتب النور الأسعردي إلى ابن سعيد أورد بعض معانٍ في صور ابن سعيد حينما خاطبه قائلاً:

أتصبرُ عن أرضٍ ينوحُ حمامُها غراماً وتختالُ الغصونُ من السُّكْرِ
يمرُّ اختلاساً في رُباها نسيمُها فأحسبُهُ من روضِها سارِقَ النشرِ
وقد ألبستهُ الرّيحُ مُحكَمَ سَرِدِها وألقَتْ عليه الشمسُ دِرعاً من التِّبرِ
لدى عَذُبِ الأغصانِ فوقَ فوارِس الحَمامِ وموجِ النَّهرِ كالجَحْفَلِ المَجْرِ[1]

فهذه المعاني وردت عند ابن سعيد في حديثه عن نوح الحمام وتغنيه، واختيال الغصون وميل الخمائل وإلقاء الشمس رداءها الذهبي[2]. وليس الربط غريباً في البيت الأخير بين شعر الطبيعة والحرب، فهي ظاهرة مشتركة بين المشارقة والمغاربة لتشابه الظروف السياسية، وقد تبيّناها عند المغاربة في الصورة الشعرية.

ويورد أيدمر التركي في وصفه للجزيرة الصالحية وبركة الحبش، ما كان قد أورده ابن سعيد فيهما، يقول:

والصالحيّةُ حيث النهرُ عانَقَها كم قد قطعناه من جِدٍّ ومن لَعِبِ
وبركةُ الفيلِ لا تُنسى لياليها والشَّمعُ فيها يضاهي زينَةَ الشُّهُبِ[3]

وهو ترداد لوصف ابن سعيد بشوق النهر ومعانقته للجزيرة الصالحية، وتجدد الشوق لبركة الحبش ولياليها[4].

(1) المقتطف، ص160.
(2) انظر: الرايات، ص174-176. المغرب، 2/ 176. النفح، 2/ 326.
(3) المقتطف، ص162.
(4) انظر: النفح، 2/ 269-270، الدراسة.

وقد نجد تشابهاً في ألفاظ بض الأبيات عند المشارقة والمغاربة، يقول ابن عز القضاة:

صِـــلْ وواصِـــلْ مُـــسرعاً مُـــنعماً فكـــأسُ كـــلِّ واقـــفٍ باليَـــدِ[1]

ويشابه في ذلك بيتاً لضياء الدين الخزرجي إذ يقول:

وصِـــلْ وصَـــلِّ وواصِـــلْ كُـــلَّ آونـــةٍ عـــلى النبـــيِّ ســـلاماً طيِّبـــاً عَطِـــراً[2]

لا نستطيع أن نجزم هنا من تأثر بالآخر، فالشاعران تعاصرا، وكانت وفاتهما متقاربة، إذ توفي الأسْعُردي سنة (689هـ)، وضياء الدين سنة (684هـ.

ومن خلال المعارضات بين المشارقة والمغاربة، تتضح منزلة خاصة لقصيدة كعب بن زهير في مدح الرسول ﷺ عند الأندلسيين، وقد أكدها أبو جعفر الإلبيري[3] بقوله: «وهذه القصيدة لها الشرف الراسخ، والحكم الذي لم يوجد له ناسخ، أنشده كعب في مسجده ﷺ بحضرته وحضرة أصحابه، وتوسل بها فوصل إلى العفو عن عقابه... ولولاها لُمنِعَ المدح والغزل، وقُطِعَ من أخْذِ الجوائز على الشعراء الأمَل، فهي حُجّةُ الشعراء فيما سلكوه، وملاكُ أمْرِهِم فيما مَلَكوه»[4].

ولعل الاحتفال بالمولد النبوي، والتغني بمآثر الرسول ﷺ بصورة كبيرة في الشعر الأندلسي، جاء رد فعل لاحتفال النصارى بعيد ميلاد السيد المسيح عليه السلام فبدل أن يقلد المسلمون النصارى في ذلك فالأوْلى بهم الاحتفال بمولد نبيهم عليه السلام ، والسؤال عنه،

---

(1) المقتطف، ص158.

(2) ملء العيبة، 3/ 48.

(3) أبو جعفر الإلبيري: أحمد بن يوسف بن مالك الرعيني الغرناطي الإلبيري، رفيق ابن جابر الأعمى، وهما المشهوران بالأعمى والبصير ولد بعد سنة 710هـ، رحل مع صاحبه ابن جابر إلى القاهرة ودمشق، كان مجيداً في النظم والنثر، توفي سنة 779هـ. انظر: بغية الوعاة، 1/ 403. النجوم الزاهرة، 11/ 189.

(4) عبدالحي الكتاني: نظام الحكومة النبوية المسمى «التراتيب الإدارية» دار إحياء التراث، بيروت – لبنان (دون تاريخ، 1/ 213-214.

وذلك ما جاء في مخطوطة الدرّ المنظم للعزفي السبتي، التي نشرها فرناندو في مجلة الأندلس الإسبانية، يقول العزفي: «أي بدعة أفحش وأسمج من أن يكون المسلمون يحتفون ويستعدون لدخول شهر أو سنة من شهور العجم وهم أعداؤنا، وإنما عاديناهم على كفرهم بالله... فأي مودة تكون أبين من تعظيم أعيادهم، وأي ولاية تكون أعظم من التشبه بهم والتفخيم لأمرهم، والمشاركة لهم في ضلالهم وكفرهم، يا لها من مصيبة ما أجلها...، ومما فتن الناس فيه السؤال عن مولد عيسى عليه السلام فكثيراً ما يتساءلون عنه، أو ليس كانوا بميلاد نبينا محمد عليه السلام أولى»[1] فجاءت الدعوة للاحتفال بمولد النبي ﷺ ليشغل المسلمين عن هذه البدعة، ويجدون ذلك عوضاً لهم، يقول: «فأمعنتُ النظر، وأعملتُ الفكرَ فيما يشغَلُ عن هذه البدع، ويدفع في صدر هذا المنكر، ولو بأمر مباح ليس على فاعله جُناح ... فألهمني الله - سبحانه - أن أنبِّهُهم على أمر إذا تقرر لديهم، قامت الحجة عليهم، ديناً ودنيا، وانقطع العذرُ إذا تعوَّضوا منه أحسن عِوَض ... فنبهتهُمُ على ميلاد نبيهم المصطفى سيد ولد آدم...»[2].

ومن المعارضات الأخرى، معارضة ضياء الدين الخزرجي لمُسمَّط الحريري في المقامات، ويعكس هذا مكانة خاصة للمقامات في الأدب الأندلسي، وقد أشار الكلاعي إلى ذلك عند حديثه عن مقامات الهمذاني، منبهاً على ما فيها من الإبداع والإحسان، وعلى تميزها بالجودة والفخامة[3]. أما مقامات الحريري فقد كان اهتمام الأندلسيين بها أشد، للصلة بينهم وبين الحريري، وسماعهم لها وتدارسهم إياها[4] ومن أشهر شراحها أبو العباس الشَّريشي (ت 619هـ)[5] ومن شراحها أيضاً محمد بن عبدالله بن ميمون بن

(1) الدر المنظم في مولد النبي المعظم، ص28-29.
(2) المصدر السابق، ص32.
(3) إحكام صنعة الكلام، ص198.
(4) تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، ص303.
(5) للشريشي ثلاثة شروح على المقامات: شرح الإيضاح، وشرح عروض الشعر وعلل القوافي، وشرح الجمل، مات بشريش سنة 619هـ. بغية الوعاة، 1/ 331.

إدريس العبدري القرطبي (-ت 567هـ) [1] ومحمد بن أحمد بن سليمان المالَقي (ت - 617هـ) [2].

وقد كان للأندلسيين تأثير في بيئتهم الجديدة في المشرق، أوردنا بعضها بصورة غير مباشرة، ولعل أخص تلك التأثيرات ما يتعلق بابتكار الموشحات والأزجال، ومدى تأثرها وتأثيرها في المجتمع المشرقي. فقد حمل الأندلسيون المرتحلون هذه الفنون الجديدة التي كان لها صدى في المشرق، وطوروا فيها آخذين من بيئة المشرق، فقدموا البناء الفني الأندلسي، ممتزجاً بتأثيرات المشرق ومعطياته الاجتماعية، فتكون لون خاص من الأدب يحمل صورة جديدة من التعبير والتأثير.

فالموشحات فن أندلسي نقله المغاربة حينما كانوا يرتحلون لأداء فريضة الحج، ولقاء علماء المشارقة، فعرَّفوهم بوطنه وفنونه وآدابه، وذلك ما يبينه ابن خلدون في سبق الأندلسيين وأوليتهم في استحداث هذا الفن، يقول: «وأما أهل الأندلس، فلما كثر الشعر في قطرهم، وتهذّبت مناحيه وفنونه، وبلغ التّنميقُ فيه الغاية، واستحدث المتأخرون منهم فنّاً سمّوه بالموشَّح، ينظمونه أسماطاً أسماطاً، وأغصاناً أغصاناً» [3]. وقد نظم المشارقة الموشحات، وأشهر من نظمها من شعرائهم ابن سناء الملك، وشهاب الدين التلّعْفري، وابن العفيف التلمساني، ووصف ابن سعيد هذه الموشحات بالتكلُّف والمعاناة في الصنع، لكنه أثنى على ابن سناء الملك في موشحته المشهورة.

حبيبــــي ارفَـــعْ حجــــابَ النّـــورْ	عـــــــــن العِـــــــــذار
يقطُـــرْ بمِـــسْكٍ عــــلى كــــافورْ	في جُلّنــــــــــــــارْ [4]

(1) بغية الوعاة، 1/ 147.
(2) المصدر السابق، 1/ 25، 26.
(3) تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1961، 1/ 1137.
(4) تاريخ ابن خلدون، 1/ 1153.

ويبين ابن سعيد اختصاص المغاربة بهذا الفن، وإبداعهم في بنائه، في حين يرى أنهم لا يحسنون فن الدُّوَبيْت[1] لاختصاصه بالمشارقة، حينما أنشد دوبيت للملك الناصر، وعلق بأن هذا الطراز لا تحسنه المغاربة كما أن المشارقة لا تحسن الموشحات والأزجال كما يحسنُها المغاربة. فهم يرون أن لهم السَّبق في هذا الفن، متفاخرين به على المشارقة، واصفين موشحاتهم وأزجالهم بالتكلف[2]. وقد تكون المعارضات لموشحات المشارقة من قبيل إثبات تقدم المغاربة في هذا الفن، من ذلك معارضة أثير الدين لابن العفيف التلمساني التي أشير إليها عند الحديث عن المعارضات.

ولعل من الجديد في فن الموشحات، وتميز الأندلسيين بخاصية متفردة فيه، استخدام محيي الدين ابن عربي التوشيح في شعر التصوف كما في موشحته التي مطلعها:

سرائـــــرُ الأعيـــــانْ	لاحـــت عـــلى الأكـــوانْ	للنـــــــــــــاظرينْ
والعاشـــقُ الغـــيرانْ	مـــــن ذاكَ في بُحـــرانْ	يُبـــــدي الأنـــــينْ
يقـــولُ والوجـــدُ	أنـــــاهُ والبُعْـــــدُ	قـــــد حـــــيَّرَهْ
لّمـــا دنـــا البُعْـــدُ	لم أدْرِ مـــــن بعـــــدُ	مـــــن غـــــيَّرَهْ
وهُـــــيِّمَ العبـــــدُ	والواحـــــدُ الفـــــردُ	قـــــد خـــــيَّرَهْ[3]

كما ينسب للششتري دور لا يقل أهمية عن دور محيي الدين، وهو تطوير البناء الفني للموشحات، والتوسع في استعمالها[4]، من ذلك موشحته التي بعثها من القاهرة إلى شيخه ابن سبعين في مكة، مطلعها:

---

(1) الدوبيت: وحدة شعرية ذات أربعة مصاريع، يراعى في الأول والثالث منها على الأقل قافية واحدة، وكأن كل رباعية عمل فني مستقل، على شكل قصيدة مصغرة. انظر: د. كامل مصطفى الشيبي، ديوان الدوبيت في الشعر العربي، دار الثقافة، بيروت 1972، ص578.

(2) المقتطف، ص228، 262.

(3) ديوان ابن عربي، ص85.

(4) سليمان العطار: الخيال والشعر في تصوف الأندلس، دار المعارف، مصر، ط1، 1981، ص321.

قُــلْ للّــذي مَلَّكنــي مُلْكَــهُ   وغـــبَّطَ الجســمَ بالـــسَّقامِ
لولا استوى قربي منكَ وبُعـدي   قـد كـانَ مـتُّ قبـلَ الغـرامِ
يـا مــن سرى سَرْواً في طبــاعي   أنــت القريــبُ منــي البعيــدُ
ومن أعجب الأشياء وأنـت معـي   وعــشقي فيـك كـل يـوم يزيـدُ
وأنـــا بتَهَتُّكـــي وانطِبـــاعي   غرامـي فيـكَ دائـمٌ جديـدُ[1]

وتتميز موشحات الشُّشتُري عن موشحات ابن عربي، بالتدفق العاطفي والوجداني والميل للسهولة والبساطة في الألفاظ والمعاني، حتى لتقترب من اللغة الدارجة، وفيها الانسياب الموسيقي المتدفق عن طريق استخدامه للأوزان المجزوءة، والألفاظ الموسيقية الموحية[2]، من ذل قوله:

كُلَّــما قلـــتُ بِقُـــربي   تَنْطَفـــي نـــيرانُ قلبـــي
زادني الوصـــلُ لَهيبـــاً   هكـــذا حـــالُ المُحِـــبِّ
لا بوصــــلي أتـــسلّى   لا ولا بـــالهجر أنـــسى
لـــيسَ للعـــشقِ دواءٌ   فاحتـــسب عقـــلاً ونَفْـــسا
إنّنــي أســلمتُ أمــري   في الهــوى معنــى وحِــسّا
مـــا بقـــي إلاّ التَّفـــاني   حبّـــذا في الحُـــبِّ نَحبـــي
إننـــي بـــالموتِ راضٍ   هكـــذا حـــالُ المُحِـــبِّ[3]

كما استحدث الأندلسيون الأزجال التي نسجوها على منوال الموشحات لكن باللهجة العامية الدارجة. ونسجوها على البحور الخمسة عشرة[4]، ومما تميز به الأندلسيون في هذا

(1) ديوان الششتري، ص229.
(2) فوزي عيسى: الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، الهيئة المصرية للكتاب، الإسكندرية، ط1، 1979، ص549.
(3) ديوان الششتري، ص360.
(4) تاريخ ابن خلدون، 1/ 1157.

هذا الفن، استخدام محيي الدين ومن بعده الشُّشتُري الأزجال في نظم الأدوار والأناشيد الصوفية[1] لكن الشُّشتُري توسع في نظمها بعد وقوعه على قلة الأزجال، وعدم تكرار هذه الظاهرة لدى محيي الدين ابن عربي[2].

تنقل الشُّشتُري بين المغرب وطرابلس ومصر والشام، وحينما نزل القاهرة، اعتكف بجوار الأزهر مدة من الزمن، واصفاً حاله في زجله الذي يقول فيه:

مـــــا نجـــــدْ خليعـــــاً مـــــثلي حرَّقتْـــــهُ الكاســـــاتُ والأذْنـــــانْ
معتكـــــفْ في جـــــامع أزهـــــرْ مُحْـــــتلي في شِـــــقٍّ تَعبـــــانْ
وبقيـــــتْ عاشـــــقْ مُهَتَّـــــك نـــــنظمْ الزجَـــــلْ والأوزانْ[3]

وتبدو أزجاله في مصر مشرقية بحتة، تأخذ بعض الألفاظ المصرية، وتقترب من صورة الموشح وتختفي منها الألفاظ العامية، يقول:

كيـــــفَ يـــــسلو مـــــن قـــــدْ بُـــــلي عـــــن هـــــواهُ أو يغفَـــــل
أشـــــغَفَ القلـــــبَ حُبُّـــــهُ يـــــا أهـــــلَ وُدّي ويـــــن العـــــيش لي[4]

فكلمة «وين» كلمة عربية بدوية تنطق في صحراء مصر في ذلك الوقت[5].

وحينما ينتقل الشُّشتُري إلى الشام، يطلق أزجاله في أسلوب شامي، من أمثلة ذلك قوله:

مُدامـــــةٌ تحيـــــي النفـــــوسْ ومـــــن شَرِبْ منهـــــا سَـــــكِرْ

---

(1) سليم الحلو، الموشحات الأندلسية، نشأتها وتطورها، قدم له إحسان عباس، مكتبة الحياة، بيروت، 1965، ص77.
(2) الخيال والشعر، ص321.
(3) الديوان، ص314.
(4) المصدر السابق، ص366.
(5) علي سامي النشار، أبو الحسن الششتري، مجلة المعهد المصري، مدريد 1953، العدد الأول، السنة الأولى، ص153.

قـــــد انجلـــــت لي كـــــالعروس		ورأيــــــتُ شمـــــــساً وقَمَـــــــرْ
بالَـــــك تَكُـــــنْ بُـــــويح أخـــــي		وامـــــسِكْ الـــــسرَّ العجيـــــبْ
كـــــي ينكـــــشِفْ لـــــك الغِطـــــا		حتـــــى تـــــشاهِدْ للحبيـــــبْ
منَّـــــك وفيـــــكْ هُـــــ كُـــــلَّ شيْ		إن كنـــــتَ فـــــاهِمْ أو لبيـــــبْ[1]

«فبالك» بمعنى إياك، شامية صرفة، و«بُويح»، بمعنى بوّاح، لا تستخدم في المغرب ويستخدمها أعراب بادية الشام[2].

لقد أحسن الشُّشتُري استخدام اللهجات المختلفة في أزجاله، فكان أندلسياً في الأندلس، ومراكشياً في مراكش، ومصرياً في مصر، وشامياً في الشام، مما جعل أزجاله تعبر بصدق إلى نفوس الناس، ويرددونها إلى يومنا هذا، خاصة في حضرات شاذلية مصر، وشاذلية دمياط خاصة، يتوارثون إنشاد أشعاره وأزجاله جيلاً بعد جيل، وما زال الشُّشتُري أحبَّ الشعراء إلى نفس أهل الشام، ينشدون موشحاته وأزجاله خلال شهر رمضان في ليلة القدر[3].

هذه بعض جوانب التأثر والتأثير بين شعراء المشارقة وشعراء المغاربة، التي تمتد وتتشعب، بما لا يمكن لهذه الجزئية أن تُلِمَّ بمعظم جوانبها، لأن الباحث ما إن يقف على جزئية فيها إلا وتَفْتَحُ عليه أبواباً جديدة متداخلة، مما يجعلها تتطلب دراسة مستقلة، تستقصي هذه الأجزاء بدقة وتتبع.

---

(1) الديوان، ص139-140.
(2) أبو الحسن الششتري الصوفي الأندلسي، مجلة المعهد المصري، ص155.
(3) المرجع السابق، ص156، 134.

الخاتمة

حاولت هذه الدراسة أن تقدم تصوراً واضحاً عن أحوال الشعراء النازحين في البيئة الجديدة في مصر والشام، من خلال تتبع تراجمهم وأشعارهم التي قالوها فيها، وتتبع أثر الارتحال بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

وقد توصلت الدراسة إلى نتائج من أهمها ما يلي:

- تميز دور الأندلسيين وفاعليتهم في المجتمع الجديد في مصر والشام في مناحي الحياة ومشاركتهم في الحياة الاقتصادية والعلمية والفكرية والأدبية.
- تقوم علاقة الشعراء المرتحلين مع السلاطين وكبار رجال الدولة من المشارقة في معظمها، على التكسب وطلب الانضواء والحماية، ولعل الظروف التي عاشوها وما فيها من ضنك ومشقة أدت إلى توجيه علاقاتهم وشعرهم السياسي هذه الوجهة.
- بروز أثر الغربة في نفوس الشعراء منه خلال شعرهم، وجعلها مبرراً لكل ما يلاقونه من مصاعب في ديار غربتهم، وتأثيرها في التعصب لأندلسيتهم بصورة واضحة.
- المفارقة بين آراء الشعراء المرتحلين في مصر وآرائهم في الشام، وعدم خلو الآراء تجاه مصر من التحامل والتجاوز أحياناً، على قلة المادة الشعرية التي تتحدث عن الشام وتصف مدنها إذا ما قورنت بوصف الرحالة الأندلسيين لها، وإشادته بها وبأهلها، وبحب الأندلسيين لها وتعلقهم بها.
- التفاعل بين الشعراء الأندلسيين والشعراء المشارقة في مجالسهم ومطارحاتهم ومساجلاتهم ومعارضاتهم، والتي كشفت عن آراء نقدية لكلا الطرفين في شعر

الآخر، كان بعضها يقوم على المجاملة والارتجال، وبينت تأثر الشعراء المرتحلين بشعر المشارقة، وتأثيرهم في إدخال فنون وأغراض وأساليب جديدة.

- استطاعت ألفاظ الشعراء وصورهم معانيهم أن تحمل رؤية واضحة إلى حد ما عن أوضاعهم ونفسياتهم وارتباطهم بذوق عصرهم، وإعطاء الشعر في المشرق صبغة خاصة. كما تميزت صورهم بإعمال الفكر في بنائها، وقدرتهم على البناء الأكثر تكاملاً دقة وتفصيلاً، وتفوقهم في ذلك على المشارقة.

- كشفت الدراسة عن تراجم لشعراء مرتحلين وبعض أشعارهم من بعض المصادر المخطوطة، لم توردها المصادر المطبوعة، مما يؤكد وجود مادة كثيرة تحتاج إلى بحث وتقصّ، وتحقيق المخطوط من هذه المصادر التي تحوي مثل تلك المادة الشعرية الغنية.

المصادر والمراجع

المصادر المخطوطة

1. الإربلي، محاسن دمشق وحماماتها ومدارسها (ميكروفيلم)، رقم الشريط، 6692، مكتبة الأسد الوطنية، دمشق.
2. سجل، سجلات المحاكم الشرعية بالقدس (ميكروفيلم)، رقم السجل 95، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان.
3. ابن الشعّار الموصلي، المبارك بن أحمد الموصلي، عقود الجمان في شعراء هذا الزمان (مخطوط)، ج1، ج9، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان.
4. ابن الشعار الموصلي، المبارك بن أحمد، عقود الجمان في شعراء هذا الزمان (مخطوط)، ج4، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت - ألمانيا الاتحادية.
5. ابن الشعّار الموصلي، المبارك بن أحمد، عقود الجمان في شعراء هذا الزمان (ميكروفيلم)، رقم الشريط 1855، الأجزاء 5، 6، 7، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان.
6. ابن الشعار الموصلي، المبارك بن أحمد، عقود الجمان في شعراء هذا الزمان (ميكروفيلم)، رقم الشريط 1045، ج10، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان.
7. ابن عبدالسلام، عز الدين أبو محمد، ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام (ميكروفيلم)، رقم الشريط 4605، مكتبة الأسد الوطنية، دمشق.
8. ابن عربي، محمد بن علي محيي الدين، ديوان ابن عربي الكبير (مخطوط)، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان.

9. علم الدين القاسم بن أحمد المالقي، قصيدة من نظم علم الدين المالقي، مجاميع مخطوط (ميكروفيلم) رقم الشريط 3818، مكتبة الأسد الوطنية، دمشق.
10. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (ميكروفيلم) رقم الشريط 1529، الأجزاء 8، 11، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان.
11. مخفوظات، محفوظات رئاسة الوزراء باسطنبول، طابو دفتري القدس (ميكروفيلم) رقم الشريط 342، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان.
12. المقرّي، أحمد بن محمد التلمساني، فتح المُتَعال في مدح النِّعال (ميكروفيلم) مصور عن بيتي، رقم الشريط 3113، مكتبة الجامعة الأردنية، عمان.

المصادر والمراجع المطبوعة

1. القرآن الكريم.
2. ابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي، إعتاب الكُتّاب، ط1، حققه وعلّق عليه: د. صالح الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1961.
3. ابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي، تحفة القادم، ط1، تحقيق د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.
4. ابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي، التكملة لكتاب الصلة، عُني بنشره عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1956.
5. ابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي، الحُلَّة السيَراء، ط1، تحقيق، د. حسن مؤنس، الشركة العربية للطباعة، القاهرة، 1963.
6. ابتسام مرعي خلف الله، العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، 1985.
7. إبراهيم أنيس، المعجم الوسيط، دار المعارف، مصر، 1973.
8. ابن الأثير، ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ط2، تقديم وتعليق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، 1973.
9. ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن عبدالواحد، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبدالقادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1963.

10. ابن الأثر، مجد الدين أبو السعادات مبارك بن محمد الجزري، جامع الأصول في أحاديث الرسول، ط2، تحقيق عبدالقادر أرناؤوط، دار الفكر، بيروت، 1983.
11. د. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط5، 1978.
12. د. إحسان عباس، (رحلة ابن عربي كما صوّرها قانون التأويل)، مجلة أبحاث، السنة 21، العدد (2-4)، 1968.
13. أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها، من الفتح حتى الخلافة، دمشق 1969.
14. أحمد صادق سعيد، (مصر في عهد الأيوبيين والمماليك)، مجلة دراسات عربية، السنة 15، العدد 6، 1979.
15. أحمد فكري، قرطبة في العصر الإسلامي تاريخ وحضارة، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.
16. الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن عبدالله، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق، مطبعة بريل، ليدن، 1968.
17. الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن عبدالله، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من نزهة المشتاق، تحقيق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.
18. أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة: أحمد محمد عيسى، مراجعة: محمد شفيق، مكتبة النهضة، القاهرة، 1960.
19. أسامة بن منقذ، البديع في نقد الشعر، ط1، تحقيق: علي عبد مهنّا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.
20. آسين بلاثيوس، ابن عربي حياته ومذهبه، ترجمه عن الإسبانية: عبدالرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ودار القلم، لبنان، 1979.
21. أشباخ، يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ط2، ترجمه ووضع حواشيه: محمد عبدالله عنان، مؤسسة الخانجي، القاهرة، 1958.
22. الاصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد، المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر عبدالعال، مراجعة: محمد شفيق غربال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، 1961.

23. ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق: نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت، 1965.

24. أطلس التاريخ الإسلامي، صنفه: هاري وهازاد، رسم خرائطه سميلي وكوك، ترجمه وحققه: إبراهيم خورشيد، مطبوعات جامعة برستون، 1954.

25. الأعشى ميمون، ديوان الأعشى، شرح وتعليق: محمد محمد حسين، المكتب الشرقي للنشر، بيروت، 1968.

26. أكرم حسن العُلبي، التقويم، ط1، مؤسسة المصادر، بيروت، 1991.

27. البدري، أبو البقاء عبدالله بن محمد، نزهة الأنام في محاسن الشام، المكتبة العربية، بغداد، 1341هـ.

28. ابن بسّام، أبو الحسن علي بن بسّام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1979.

29. ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللِّواتي، رحلة ابن بطوطة المسماة (تحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، ط4، تحقيق: علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985.

30. البكري، أبو عبيد البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، ط1، تحقيق: عبدالرحمن الحجي، دار الإرشاد، بيروت، 1968.

31. البلوي، خالد بن عيسى، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق وتقديم: الحسن بن محمد السائح، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب.

32. بنيامين التُطيلي، رحلة بنيامين التُطيلي، قدم لها: عزرا حداد، بغداد، 1945.

33. البهاء زهير، ديوان البهاء زهير، دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1964.

34. البهائي، علاء الدين علي بن عبدالله، مطالع البدور في منازل السرور، ط1، مطبعة دار الوطن، القاهرة، 1299هـ.

35. التُّجيبي، القاسم بن يوسف السبتي، مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق: عبدالحفيظ منصور، الدار العربية للكُتّاب، ليبيا وتونس، 1957.

36. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرَة، سنن الترمذي، ط1، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987.

37. ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، القاهرة، 1942.

38. أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، ديوان أبي تمام، بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، مصر، 1957.

39. التُنْبُكْتي، أبو العباس أحمد بن أحمد، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عباس بن عبدالسلام بن شقرون، القاهرة، 1351هـ. والكتاب ذيل لكتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون.

40. ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1959.

41. ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر قزاوغلي، الشهير بسبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ط1، مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية بحيدر آباد، الدكن، الهند، 1950.

42. الحبيب الحنجاني، (السياسة المالية للدولة المرابطية)، الملتقى الرابع الإسباني التونسي، مدريد، 1983.

43. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1966.

44. حسان بن ثابت، ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1966.

45. حسين مؤنس، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1967.

46. الحميري، محمد بن عبدالمنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ط2، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1984.

47. الحنبلي، أبو اليمن القاضي مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب، عمان – الأردن، 1973.

48. ابن الحوارني، عثمان بن أحمد، الإشارات إلى أماكن الزيارات، تحقيق: بسام الجابي، مكتبة الغزالي، دمشق، 1981.

49. أبو حيان، محمد بن يوسف أثير الدين، ديوان أبي حيان الأندلسي، ط1، تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، 1969.

50. ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبدالله، الإحاطة في أخبار غرناطة، ط1، تحقيق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1974.

51. ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبدالله، تاريخ إسبانيا الإسلامية المسمى (أعمال الأعلام)، تحقيق ليفي برفنسال، دار المكشوف، بيروت، ط2، 1956.

52. ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبدالله، الكتيبة الكامنة، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1963.

53. ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبدالله، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، ط2، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1978.

54. ابن خفاجة، ديوان ابن خفاجة، تحقيق: السيد مصطفى غازي، دار المعارف بمصر، 1960.

55. ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد الحضرمي، تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1961.

56. ابن خلّكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلِّكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1978م.

57. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت

58. الذهبي، الحافظ شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد، العبر في خبر من غبر، ط1، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1985م.

59. ابن رُشيد الفِهري السّبتي، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة، في الوجهة الوجيهة إلى مكة وطيبة، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1981.

60. الرُّصافي، محمد بن غالب الرفّاء، ديوان الرصافي، ط1، جمعه وقدّم له: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1960.

61. الرُّعيني، أبو الحسن علي بن محمد، برنامج شيوخ الرُّعيني، حققه: إبراهيم شَبّوح، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1962.

62. ابن الزبير، أبو جعفر أحمد بن الزبير، صلة الصلة، مكتبة الخياط، بيروت، 1937.

63. ابن أبي زرع، علي بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1972.

64. ابن أبي زرع، علي بن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية في الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1972.

65. الزركلي، خير الدين الزركلي، الأعلام، ط9، دار العلم للملايين، بيروت، 1990.

66. سبط ابن التعاويذي، ديوان سبط ابن التعاويذي، نسخ وتصحيح د. س مرجليوث، مطبعة المقتطف، مصر، 1903.

67. السجلماسي، أبو محمد القاسم بن عبدالعزيز، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، ط1، تقديم وتحقيق علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، 1980.

68. ابن سعيد، علي بن موسى بن سعيد المغربي، اختصار القدح المُعلّى في التاريخ المُحلّى، ط2، اختصره أبو عبدالله محمد بن خليل، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1980.

69. ابن سعيد، علي بن موسى بن سعيد المغربي، رايات المبرزين وغايات المميزين، ط1، تحقيق: محمد رضوان الدايه، دار طلاس للدراسات، دمشق، 1987.

70. ابن سعيد، علي بن موسى بن سعيد المغربي، المرقصات المطربات، دار حمد ومحيو، بيروت، 1973.

71. ابن سعيد، علي بن موسى بن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ط2، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، 1964.

72. ابن سعيد، علي بن موسى بن سعيد المغربي، المُغرب في حُلى المَغرب، القسم الخاص بمصر، قدم له زكي حسن وآخرون، مطبعة فؤاد الأول، مصر، 1953.

73. ابن سعيد، علي بن موسى بن سعيد المغربي، المقتطف من أزاهر الطرف،تحقيق: سيد حنفي حسين، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1983.

74. سليم الحلو، الموشحات الأندلسية نشأتها وتطورها، قدم له: د. إحسان عباس، مكتبة الحياة، بيروت، 1965.

75. سليمان العطار، الخيال والشعر في تصوف الأندلس، ط1، دار المعارف، مصر، 1981.

76. السيد عبدالعزيز سالم، وأحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1993.

77. السيوطي، جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ط2، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، القاهرة، 1979.

78. السيوطي، جلال الدين السيوطي، حُسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مطبعة الموسوعات بمصر، 1321هـ.

79. الشاب الظريف، شمس الدين محمد بن سليمان بن العفيف التلمساني، ديوان الشاب الظريف، تحقيق: شاكر هادي شَكَر، مطبعة النجف الأشرف، العراق، 1967.

80. أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي، تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين، ط2، المعروف بالذيل على الروضتين، عني بنشره وصححه، عزت العطار الحسيني، دار الجيل، بيروت، 1974.

81. أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، عني بنشره عزت العطار الحسيني، دار الجيل، بيروت.

82. الشريشي، أبو العباس أحمد بن عبدالمؤمن، شرح مقامات الحريري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، 1976.

83. الشُّشْتُري، علي بن عبدالله النميري أبو الحسن، ديوان أبي الحسن الششتُري، ط1، تحقيق: د. علي سامي النشار، دار المعارف، الإسكندرية، 1960.

84. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، توشيع التوشيح، ط1، تحقيق ألبير حبيب مطلق، دار الثقافة، بيروت، 1966.

85. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، فض الختام عن التورية والاستخدام، ط1، تحقيق: المحمدي عبدالعزيز الحناوي، دار الطباعة المحمدية، مصر، 1979.
86. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، نَكْت الهميان في نُكَتْ العِميان، وقف على طبعه أحمد زكي بك، المطبعة الجمالية بمصر، 1911.
87. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، ط2، باعتناء هلموت ريتر، فرانز شتاينر بفيسبادن، 1962.
88. صلاح الدين المنجِّد، المشرف في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1963.
89. أبو الصلت، أمية بن عبدالعزيز الداني، الرسالة المصرية، نوادر المخطوطات بتحقيق: عبدالسلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1370هـ/ 1951م.
90. ضياء باشا، الأندلس الذاهبة، تعريب: عبدالرحمن ارشيدات، وزارة الثقافة، عمان - الأردن، 1989.
91. طلعت غنام، أضواء على التصوف، عالم الكتب، القاهرة.
92. عادل زيتون، «أضواء على العلاقات التجارية بين السلطنة الأيوبية وجمهورية البندقية»، بحث في مجلة الدراسات التاريخية، جامعة دمشق، سوريا، 1980.
93. ابن عبدالحق، عبدالمؤمن بن عبدالحق، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل،بيروت.
94. عبدالحي الكتّاني، نظام الحكومة النبوية المسمى «التراتيب الإدارية»، دار إحياء التراث، بيروت - لبنان.
95. العبدري، محمد بن علي بن أحمد، رحلة العبدري المساة «الرحلة المغربية»، تحقيق محمد الفاسي، وزارة الدولة، الرباط، 1968.
96. ابن عبدالسلام، عز الدين أبو محمد، ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام، ط1، تحقيق: محمد شكور، مكتبة المنار، الزرقاء - الأردن، 1987.
97. عبدالعزيز الأهواني، ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار، ط2، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986.

98. ابن العديم، كمال الدين ابن أبي جرادة، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكّار، دمشق، 1988.

99. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، عني بنشره أمبروسي هويسي مراندة بمساهمة مع محمد بن تاويت، دار كريماديس للطباعة، تطوان، المغرب، 1960.

100. ابن العربي، ابو بكر محمد بن عبدالله، أحكام القرآن، تحقيق علي البجاوي، عيسى البابي الحلبي، دار إحياء التراث، القاهرة، 1957-1959.

101. ابن عربي، محمد بن علي محيي الدين، روح القدس في محاسبة النفس، مكتبة عبدالوكيل الدوري، دمشق، 1965.

102. ابن عربي، محمد بن علي محيي الدين، الفتوحات المكية، دار صار، بيروت.

103. عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي، دار الشروق، بيروت، ط1، 1983.

104. العزفي السبتي، «الدرّ المنظم في مولد النبوي المعظم»، مخطوطة نشرها فرناندو في مجلة Al-Andalus De Las Escuelas De Estudios Arabes De Madrid y Granada. Fasc. 1, 1969

105. ابن عساكر، الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي بدمشق، 1954.

106. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، تحقيق: عبدالعزيز الباز وآخرين، دار الفكر، بيروت.

107. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله، كتاب الصناعتين، ط2، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1984.

108. علي أحمد، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، من نهاية القرن الخامس الهجري وحتى نهاية القرن التاسع الهجري، ط1، دار طلاس، دمشق، 1989.

109. علي أحمد، الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق العربي منذ نهاية القرن الخامس الهجري وحتى نهاية القرن التاسع الهجري، رسالة دكتوراه، جامعة دمشق، 1980.

110. علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاّج وابن عربي، دار المعارف، القاهرة، 1404هـ.
111. علي سامي النشار، «أبو الحسن الششتُري الصوفي الأندلسي الزجّال وأثره في العالم الإسلامي»، مجلة معهد الدراسات الإسلامية، الأول، السنة الأولى، مدريد، 1953.
112. علي سامي النشار، «أبو الحسن الششتري، صوفي أندلسي مجهول»، مجلة الأديب، العدد التاسع، السنة الثالثة، الشام، بيروت، 1944.
113. العماد الأصفهاني الكاتب، الفتح القسّي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح: محمد محمود صبح، الدار القومية، القاهرة، 1965.
114. ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبدالحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط2، دار المسيرة، بيروت، 1979.
115. عمر موسى باشا، قطب العصر عمر اليافي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1993.
116. ابن عُنَين، شرف الدين محمد بن نصر الله بن الحسين الأنصاري، ديوان ابن عنين، ط2، تحقيق: خليل مردم بك، دار صادر، بيروت، 1959.
117. ابن غالب، محمد بن أيوب، «قطعة من فرحة الأنفس» نشرت في مجلة معهد المخطوطات، المجلد الأول، العدد الأول، القاهرة، 1955.
118. الغبريني، أبو العباس أحمد بن عبدالله، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق: عادل نويهض، لجنة التأليف والترجمة والنشر، بيروت، ط1، 1969.
119. فايد حمّاد، العلاقات بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامي في العصر الأيوبي، دار المعارف بمصر، 1980.
120. أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية، القاهرة، 1325هـ.
121. ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم، تاريخ ابن الفرات، تحقيق: قسطنطين زريق، جامعة بيروت، 1942.

122. أبو فراس، الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي، ديوان أبي فراس الحمداني، ط2، شرح وتقديم: عباس عبدالساتر، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1986.

123. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار وممالك الأمصار (ممالك مصر والشام والحجاز واليمن) تحقيق: أيمن فؤاد سيد، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1985.

124. فوزي عيسى، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ط1، الهيئة المصرية للكتاب، الإسكندرية، 1979.

125. ابن القاضي، أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي، درة الحجال في أسماء الرجال، ط1، المكتبة العتيقة، تونس، ودار التراث، القاهرة، 1971.

126. القرطاجني، أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1966.

127. القشتالي، أبو العباس أحمد بن إبراهيم الأزدي، تحفة المغترب ببلاد المغرب لمن له من الإخوان، في كرامات الشيخ أبي مروان، تحقيق وتعليقات: فرناندو دي لاجرانجا، منشورات المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1974.

128. القلصادي، أبو الحسن علي بن محمد، رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق: محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1987.

129. القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ط1، شرح وتعليق محمد حسن شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.

130. كامل مصطفى الشيبي، ديوان الدّوبيت في الشعر العربي، دار الثقافة، بيروت، 1972.

131. الكتبي، محمد بن شاكر، عيون التواريخ، تحقيق: د. فيصل السامر ونبيلة عبدالمنعم، دار الرشيد للنشر، العراق، 1980.

132. الكتبي، محمد بن شاكر، فوات الوفيات والذيل ليها ، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صار، بيروت، 1973-1974.

133. ابن كثير، أبو الفداء الحافظ الدمشقي، البداية والنهاية، ط3، دقق أصوله وحققه: أحمد أبو ملحم وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987.

134. كعب بن زهير، ديوان كعب بن زهير بشرح أبي سعيد السكري، (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب)، القاهرة، 1950.

135. الكُلاعي، محمد بن عبدالغفور، إحكام صنعة الكلام، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، 1966.

136. ليفي بروفنسال، أدب الأندلس وتاريخها (سلسلة محاضرات)، ترجمة: محمد شعيرة وعبدالحميد العبادي، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1951.

137. ابن ماجة، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث، القاهرة، 1975.

138. محمد جابر الأنصاري، التفاعل الثقافي بين المشرق والمغرب في آثار ابن سعيد المغربي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، 1992.

139. محمد حسن آل ياسين، معجم النبات والزراعة، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1986.

140. محمد رضا الشبيبي، أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، 1961.

141. محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف بمصر، 1967.

142. محمد زغلول سلام، تاريخ النقد الأدبي من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري، دار المعارف بمصر، 1960.

143. محمد عبدالغني حسن، ابن سعيد المغربي، المؤرخ - الرحالة - الأديب، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة.

144. محمد عبدالله عنان، الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية باللغتين الإسبانية والعربية، مطبعة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1976.

145. محمد عبدالله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، ط1، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، 1964.

146. محمد عبدالله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (دولة الإسلام، العصر الرابع)، ط2، مطبعة مصر، القاهرة، 1958.

147. محمد كرد علي، خطط الشام، ط3، مكتبة النوري، دمشق، 1983.
148. محمد لبيب البتنوني، رحلة الأندلس، ط1، مطبعة الكشكول، القاهرة، 1927.
149. المراكشي، عبدالواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط1، صححه وعلق على حواشيه، محمد سعيد العريان ومحمد العربي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1949.
150. المراكشي، محمد بن عبدالملك الأوسي أبو عبدالله، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1965.
151. مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم بشح الإمام محيي الدين النووي، المسمى المنهاج، ط1، تحقيق: الشيخ خليل مأمون شيحان دار المعرفة، بيروت، 1994.
152. ابن المعتز، أبو العباس عبدالله بن محمد، ديون ابن المعتز، تحقيق ودراسة محمد بديع شريف، دار المعارف بمصر، 1977.
153. المقّري، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968.
154. المقريزي، أحمد بن علي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ط2، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، 1956.
155. المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف (بالخطط المقريزية)، دار صادر، بيروت.
156. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت.
157. الميداني، أبو الفضل أحمد بن إبراهيم، مجمع الأمثال، ط2، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت - لبنان، 1987.
158. الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1954.
159. نجاة باشا، التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن الهجري، منشورات الجامعة التونسية، 1976.
160. النعيمي، عبدالقادر بن محمد، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، مطبعة الترقي، دمشق، 1948.

161. الهروي، أبو الحسن علي بن أبي بكر، الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق: جانين سورديل، المعهد الفرنسي، دمشق، 1953.
162. هشام أبو رميلة، علاقة الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية، ط1، دار الفرقان، عمان، 1984.
163. ابن واصل، محمد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيّال، وزارة المعارف، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، 1953.
164. ابن واصل، محمد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيّال، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1957.
165. ابن واصل، محمد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: حسنين محمد ربيع، تقديم: سعيد عاشور، دار الكتب، القاهرة، 1972.
166. ابن الوردي، سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ط2، مطبعة البابي الحلبي، مصر، 1939.
167. الونشريسي، أحمد بن يحيى، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، خرّجه جماعة من الفقهاء بإشراف د. محمد الحجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.
168. اليافعي، عبدالله بن أسعد اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، 1970.
169. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله، معجم الأدباء، دار إحياء التراث، بيروت.
170. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1955.
171. يوسف شكري فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1982.
172. اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد، ذيل مرآة الزمان، ط1، مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية بحيدر آباد، الدكن، الهند، 1961.

المراجع الأجنبية

1. Atkinson William, C.: A History of Spain and Portugal Harmondsworth, Penguin Books, Reprinted 1967.
2. Bertrand Louis: The History of Spain, Printed in Eyre and Spottiswoode, London, First Publisher, 1934.
3. Callaghan, Joseph F.O.: A History of Medieval Spain, First Published by Cornell University, 1975, Forth Printing in United States of America, 1992.
4. Harvey, L.P.: Islamic Spain, 1250-1500, The University of Chicago, and London, 1990.
5. Imamuddin, S.M.: A Political History of Muslim Spain, Dacca-Pakistan, Second Edition, 1969.
6. Imamuddin, S.M.: Economic History of Spainual Ummayyad, Asiatic of Pakistan-Dacca, 1963.

الملاحق

ملحق رقم (1)

ملحق بتراجم الشعراء الأندلسيين المرتحلين إلى مصر والشام في القرن السابع الهجري مرتبة هجائياً حسب الاسم الأول

1. أحمد بن عبد المؤمن بن عيسى أبو العباس الشّريشي، من أهل شريش التقى به ابن الأبار سنة (616هـ) في إشبيلية، ثم ارتحل بعد ذلك إلى المشرق، ثم عاد إلى الأندلس وتوفي بشريش سنة (619هـ) [1].
2. أحمد بن فرح أبو العباس شهاب الدين، أسره الفرنج سنة (646هـ) قدم مصر سنة بضع وخمسين وستمائة، وقيل إنه تمذهب للشافعي، سمع بدمشق من ابن عبدالدائم، ومولده سنة (625) بإشبيلية، توفي سنة (699هـ) ودفن بتربة أم الصالح بدمشق[2].
3. أحمد بن محمد بن أحمد بن نصر بن المُعلّى أبو جعفر المُعافري من أهل مالقة، كان حافظاً للقرآن الكريم، ولديه معرفة بأطراف من العلم، فيه ذكاء وفطنة، وعنده حدة في المزاج إذا بحث وناظر مع الفقهاء، التقى به ابن الشعّار الموصلي بحلب، وهو يتردد إلى مدرسة بني أبي عصرون فيها[3].
4. أحمد بن محمد بن مُفرِّج الإشبيلي، جوال بالبلاد المغربية والمشرقية، كان متعلقاً بالأدب، اشتهر باهتمامه بالنباتات ووقف على أسمائها وصورها بالمشرق، أكثر من وصف دمشق ومحاسنها، عاد إلى إشبيلية توفي بها سنة (631هـ) [4].

---

(1) المغرب، 1/ 304. النفح، 2/ 115-116 و3/ 64.

(2) الوافي، 7/ 286. النفح، 2/ 528-531. الشذرات، 5/ 443-444.

(3) عقود الجمان (مخطوط) 1، ورقة 231-232.

(4) اختصار القدح، 181. الإحاطة 1/ 207-214. النفح، 2/ 596-598.

5. إسماعيل بن محمد بن يوسف الأنصاري الأندلسي الأُبَّذي، الملقب في البلدان المشرقية برهان الدين، سمع بمكة ودمشق وأمَّ بالصخرة المشرفة، كان فاضلاً صالحاً شاعراً، توفي سنة (656هـ) [1].

6. الحسن بن علي، أبو علي ابن عضد الدولة بدر الدين بن هود الجُذامي: مولده سنة ثلاث وثلاثين وستمائة بمرسية، حج ودخل اليمن وقدم الشام، توفي سنة (699هـ) ودفن بسفح المقطم[2].

7. أبو الحسن الميورقي، من أقارب بعض ملوك المغرب، كان من الفضلاء العلماء الأدباء، له مشاركة جيدة في العلوم ونظم حسن وربما جيء به مع الأسرى الذين أتى بهم الفرنج إلى ساحل الشام بعد احتلال جزيرة ميورقة سنة (627هـ)، توفي سنة (655هـ) ودفن بقاسيون[3].

8. حُميد بن أبي محمد عبدالله بن الحسن بن أحمد بن يحيى أبو بكر الزاهد الأنصاري القرطبي، نزيل مالقة، التقى بالرضي الشاطبي وأنشده من شعره، توفي بمصر سنة (652هـ) ومولده سنة (606هـ) [4].

9. خالص بن أحمد بن خالص بن عبدالله أبو القاسم بن أبي العباس الغافقي الإشبيلي، قدم حلب، كان شاعراً مجيداً مولده بجزيرة شقر سنة (589هـ) أنشد من شعره لابن العديم في القاهرة سنة (641هـ) [5].

(1) الوافي، 9/ 212. النفح، 2/ 15، 16.
(2) الفوات 1/ 345-348. الوافي 2/ 156-158.
(3) الذيل على الروضتين، 159، 195. ذيل المرآة 3/ 84. عيون التواريخ 20/ 119. النجوم الزاهرة 7/ 59. النفح 2/ 662-663.
(4) ابن الآبار: التكملة لكتاب الصلة، عني بنشره وصححه عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة 1956. 2/ 879. الذيل والتكملة 4/ 191. النفح 2/ 378-379.
(5) ابن العديم، كمال الدين بن أبي جرادة: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دمشق 1988، 7/ 3213.

10. سليمان بن أحمد اليُنيني، من أهل الأندلس، استوطن المشرق، ومدح الملك الكامل[1].

11. عبدالرحمن بن محمد بن عبدالملك بن سعيد، جرى بينه وبين أقاربه ما أوجب خروجه إلى المشرق، زار الديار المصرية إلا الإسكندرية والقاهرة، وزار دمشق وحلب ووصفهما، قتل حين دخل التتار بخارى وهو بها[2].

12. عبدالكريم بن إبراهيم بن عبدالكريم بن عبدالرحمن النِفزي الشاطبي القصّار أبو محمد المرّاكشي، كان رجلاً جليلاً ذا نعمة واسعة، وثروة ظاهرة، يرحل إلى الملوك ويسترفدهم بأشعاره، لديه فضل ومعرفة باللغة والأدب، له قصائد مطولات، يظهر في شعره التعسف[3].

13. أبو عبدالله ابن العطار القرطبي، شاعر حلو المنازع ظريف المقاطع والمطالع كما وصفه ابن سعيد المغربي، مطبوع النوادر موصوف بالأديب الشاعر، التقى به ابن سعيد بالإسكندرية[4].

14. عبدالواحد الواعظ الأعمى الإشبيلي، رحل إلى المشرق، واشتهر بحسن الصوت في التحريك والنشيد، واشتهر عنه الكفر والإلحاد، جرت مجاوبات بينه وبين قرينه ابن الصفار الأعمى، مات مخنوقاً سنة (637هـ)[5].

15. عبيد الله بن المظفر بن عبدالله الباهلي الأندلسي أبو الحكم، كان فاضلاً في العلوم الحكمية، محباً للهو، يعرف صنعة الموسيقى يذكر ابن الشعار أن له ديواناً شعر سماه (نهج الوضاعة) أتى فيه بكل غريب، توفي في مسكنه باللبادين بدمشق سنة (648هـ)[6].

---

(1) النفح، 2/ 381.
(2) المغرب، 2/ 172. النفح 2/ 370-373.
(3) عقود الجهاد (مخطوط) 5، ورقة 200-203.
(4) القدح 215. النفح 2/ 124-125.
(5) القدح 210.
(6) عيون التواريخ، 20/ 47.

16. عثمان بن الحسين أخو الحافظ أبي الخطاب بن دحية، كان حافظاً للغة العرب ولما عزل الكامل أبا الخطاب عن دار الحديث الكاملية التي أنشأها بين القصرين، رتب مكانه أخاه، ولم يزل بها إلى أن توفي سنة (634هـ) ودفن بسفح المقطم[1].

17. علي بن أبي بكر واسمه عتيق بن محمد بن خلف أبو الحسن الأنصاري، من أهل بلنسية، كانت ولادته سنة (590هـ)، قرأ القرآن وتفقه على مذهب الإمام الشافعي، وسمع الحديث النبوي كثيراً بالأندلس وغيرها من البلاد، وهو رجل يفوق أبناء وقته ديناً وفضلاً وعلماً، قلل من قول الشعر، سكن حلب والتقى به ابن الشعار في مدرسة بني أبي عصرون وهو متصدر لإقراء القرآن العظيم[2].

18. علي بن أحمد بن الحسن بن إبراهيم الحَرالي التُّجَيبي أبو الحسن، كان أول أمره بمراكش، ذهب إلى الأندلس التقى بأبي الحسن ابن خروف، وأبي الحجاج ابن هوى، رحل إلى المشرق والتقى عز الدين بن عبدالسلام إمام الديار المصرية، ثم رحل إلى الشام وأقام بحماة وتوفي فيها سنة (637هـ)[3].

19. علي بن أحمد القادسي الكناني، لقيه ابن سعيد في بيت المقدس على زي الفقراء وقد صدر من الحج سنة (643هـ)[4].

20. علي بن أحمد بن محمد أبو الحسن الإشبيلي المعروف بالقسطار، من أهل الحديث والقرآن، أقام بدمشق مدة يسمع الحديث على مشايخها[5].

21. علي بن أحمد بن محمد بن حمدون الحميري الأندلسي، أنشد قصيدة سنة (667هـ) بمصر ورثى فيها العز بن عبدالسلام[6].

---

(1) ذيل الروضتين، 164. وفيات الأعيان، 3/ 450. شذرات الذهب، 5/ 168. النفح، 2/ 94-95.

(2) عقود الجمان (مخطوط) 5، ورقة 89-90.

(3) عنوان الدراية، 143-155.

(4) القدح، 213. النفح، 2/ 124.

(5) عقود الجمان (مخطوط)، 4، ورقة 390-392.

(6) النفح، 2/ 609-611.

22. علي بن عبدالله النُّميري أبو الحسن الشُّشْتَّري، عروس الفقهاء وأمير المتجردين، ولد بشتتر من أعمال وادي آش، أخذ عن القاضي محمد بن إبراهيم بن سراقة، اجتمع بالنجم بن إسرائيل الدمشقي سنة (650هـ) وخدم ابن سبعين، ولما وصل من الشام إلى ساحل دمياط وهو مريض مرض موته، نزل بقرية الطينة، فقال: حنت الطينة إلى الطينة، وكانت وفاته بدمياط سنة (668هـ) [1].

23. علي بن عبدالله بن يوسف أبو الحسن ابن حمزة القرطبي الأنصاري المعروف بابن العابد، نزل رباط الصاحب الصفي بن شكر وزير الملك العادي بمصر[2].

24. علي بن محمد بن علي بن محمد نظام الدين أبو الحسن، ابن خروف الأندلسي النحوي، حضر من إشبيلية، وكان إماماً في العربية، محققاً مدققاً ماهراً أقرأ النحو بعدة بلاد، قدم بلاد الشام ونزل حلب في أيام الملك غياث الدين غازي وانقطع إليه وامتدحه، وكان من المطبوعين، أقام بحلب وتوفي فيها سنة (609هـ) [3].

25. علي بن محمد بن يوسف بن خروف القرطبي، شاعر مشهور في الغرب والشرق، نشأ في قرطبة، ورحل إلى المشرق، فطبق ذكره الآفاق، وانتشرت محاسنه في الشام، واستقر آخر أمره بحلب، وكانت وفاته في قلعتها سنة (610هـ) [4].

---

(1) عنوان الدراية، 339-341. الإحاطة، 4/ 205-216. التنبكتي، أبو العباس أحمد بن أحمد: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عباس بن شقرون، القاهرة، 1351هـ، 202-203. النفح، 2/ 185-187.

(2) النفح، 2/ 374.

(3) عقود الجمان (مخطوط) 4، ورقة 410-414. المختصر في أخبار البشر، 3/ 115. الوافي، 22/ 89-93. البهائي، علاء الدين علي بن عبدالله: طالع البدور في منازل السرور، مطبعة دار الوطن، القاهرة، ط1، 1299هـ، 1/ 248. بغية الوعاة، 2/ 203-204.

(4) الغصون اليانعة، 138-139. المغرب، 1/ 136-139. الذيل والتكملة ج5/ ق1/ 396-399. ابن الزبير، أبو جعفر أحمد بن الزبير: صلة الصلة، مكتبة الخياط، بيروت 1937. 114-115. مسالك الأبصار (مخطوط)، ج11/ ق2، ورقة 480-481.

26. علي بن محمد بن يوسف بن عفيف الخزرجي، أبو الحسن ضياء الدين مولده ببيغو[1]، رحل عن الأندلس قديماً، واستقر أخيراً بالاسكندرية لقيه ابن رُشَيد السّبتي فيها غير مرة، وهو صالح حاضر الذهن[2].

27. علي بن موسى بن عبدالملك بن سعيد العَنْسي المغربي، وُلد بغرناطة سنة (610هـ) ورحل منها فجال مع أبيه في بر الأندلس وبر العدوة والغرب الأوسط وإفريقية إلى الإسكندرية، وترك والده في الإسكندرية ورحل إلى القاهرة ثم رحل إلى حلب ودمشق، وكان ارتحاله للمشرق سنة (647هـ) توفي سنة (685هـ)[3].

28. عمر بن الحسن بن علي بن دحية الكلبي، كنّى نفسه أبا الخطاب ويعرف بابن الجُمِّيل، الظاهري المذهب، كان من كبار المحدثين، ومن الحفاظ الثقات المحصلين، ارتحل من الأندلس إلى المشرق في دولة بني أيوب، فرفعوا شأنه وقربوا مكانه، وجمعوا له علماء الحديث، وأقرّوا له بالتقدم، وُلد سنة (548هـ) وتوفي سنة (633هـ) ودفن بسفح المقطم[4].

29. عيسى بن سليمان بن عبدالله بن عبدالملك بن عبدالله بن محمد الرُّعيني الرُّندي، من أهل مالقة سافر واجتهد وحصل بعد أن طاف قطعة من البلاد، واستقر مقامه بدمشق، توغل في ديار مصر مدة، وأقام مدة ببلاد الشام، ثم كرَّ راجعاً إلى مالقة ووصلها وبقي فيها مدة يسيرة ومات فيها سنة (610هـ) وكانت ولادته سنة (581هـ) بقرية من قرى الأندلس[5].

---

(1) بيغو (Priego): مدينة بالأندلس، من عمل غرناطة، الروض المعطار، 122.
(2) ملء العيبة، 3/ 45-49.
(3) المغرب، 2/ 172-173. مسالك الأبصار (مخطوط)، ج8/ ق2/ 383-389. الفوات، 3/ 103-106. الوافي، 22/ 253-259. الإحاطة، 4/ 152-158. النفح، 2/ 262 وما بعدها.
(4) عنوان الدراية، 269-272. الوافي، 22/ 451-455. النجوم الزاهرة، 6/ 296. بغية الوعاة، 2/ 218. النفح، 2/ 99-104. شذرات الذهب، 5/ 160.
(5) عقود الجمان (مخطوط) 5، ورقة 226-230.

30. عيسى بن عبدالله بن محمد بن موسى بن محمد بن عبدالله أبو الرّوح الحميري التاكُرُنّي، كان شاباً متأدباً فاضلاً، قدم مصر وله شعر حسن، وُلد بتاكُرُنّا من بلاد الأندلس وهي من نظر قرطبة وتوفي سنة (629هـ) بديار بكر عائداً من آمد[1].

31. الفتح بن موسى بن حماد بن عبدالله بن علي الأموي، المعروف بالقصري، وُلد في رجب سنة (588هـ) بالجزيرة الخضراء من الأندلس، سافر إلى المشرق سنة (607هـ) بعد أن أقام في تونس مدة، توجه إلى الديار المصرية ثم انتقل إلى الشام سنة (611هـ) واشتغل بحماة على سيف الدين الآمدي، توفي سنة (663هـ)[2].

32. قاسم بن أحمد بن موفق بن جعفر، علم الدين أبو محمد المرسي اللورقي، ولد سنة (575هـ)، قدم مصر فقرأ بها على أبي الجود غياث بن فارس سنة (601هـ)، وبدمشق على التاج الكندي، وأقرأ بدمشق ودرس وتوفي سنة (661هـ)[3].

33. أبو المحامد القرطبي (أبو محمد القرطبي)، التقى به ابن سعيد في القاهرة، ولقب بجسر بلبيس لأنه أقام فيه زمناً، يكري كل من جاء من الشام أو من سافر إليها، توفي في القاهرة سنة (643هـ)[4].

34. محمد بن إبراهيم بن أمية بن علي بن خلف أبو عبدالله العبدري، من أهل مَيورقة، من حفاظ القرآن العزيز، درس صدراً من علم العربية وأتقنه، نزل بحلب واستوطنها يسترزق من الوراقة والنسخ، وذكر أنه ولد سنة (610هـ) وقد التقى به ابن الشعار بحلب سنة (640هـ) وأنشده من شعره[5].

---

(1) النفح، 2/ 606-609.

(2) عقود الجمان (مخطوط) 5، ورقة 255-259، ذيل مرآة الزمان، 2/ 327-329. عيون التواريخ، 20/ 328. السلوك، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ط2، 1957، ج1/ ق2/ 542.

(3) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، 16/ 234-235. بغية الوعاة، 2/ 250. النفح، 2/ 50.

(4) اختصار القدح، 212. النفح، 2/ 123-124.

(5) عقود الجمان (مخطوط) 7، ورقة 182-184.

35. محمد بن أحمد التُّجَيْبي أبو القاسم، من أهل بَلَّش[1]، قرأ على ابن مفرج وابن أبي الأحوص، ورحل فاستوطن القاهرة، وكان شيخاً فاضلاً خيراً، له أدب وشعر، توفي بالحسينية خارج القاهرة سنة (695هـ)[2].

36. محمد بن أحمد بن سليمان بن أحمد بن إبراهيم، أبو عبدالله الزهري النحوي حصل طرفا صالحاً من الأدب، أتى مصر وسمع بها الحديث، ودخل بلاد الشام والجزيرة، وسمع بها ولقي الفضلاء، شرح الإيضاح في النحو، قتله التتار سنة (617هـ)[3].

37. محمد بن أحمد بن الصابوني الصدفي الإشبيلي، من أهل إشبيلية، ارتحل إلى المشرق، وقدم الديار المصرية، وتوفي بالإسكندرية سنة (634هـ)[4].

38. محمد بن أحمد بن محمد بن زكريا المُعافري، المقرئ الفرضي الأديب، ولد بالأندلس سنة 591هـ، ونشأ ببلنسية وأقام بالإسكندرية، كانت له يد في الفرائض والعروض[5].

39. محمد بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن سُجمان البكري الشَّريشي الأندلسي، كان مولده تقديراً سنة (600هـ) سمع الحديث الكثير بالأندلس وديار مصر والحجاز والشام وبغداد، واستظهر القرآن الكريم، وقرأ علم الأدب في العربية على جماعة كثيرة بالأندلس، وقرأ فقه الإمام مالك، التقى بابن الشعّار وأنشده من شعره[6].

---

(1) بَلَّش أو بَلِّش مالقة Velez Malaga: هي بلدة أندلسية قديمة تقع على بُعد ثلاثين كيلو متراً من شرق مالقة، وعلى بُعد خمسة كيلومترات من البحر المتوسط، يبلغ عدد سكانها اليوم ثلاثين ألف نسمة. الإحاطة، 3/ 60 من الحاشية.

(2) الوافي، 2/ 104، النفح 2/ 212.

(3) الوافي، 2/ 104-105. بغية الوعاة، 1/ 26.

(4) تحفة القادم، ص230. الفوات، 3/ 284-285. الوافي، 2/ 135.

(5) النفح، 2/ 216.

(6) عقود الجمان (مخطوط) 7، ورقة 152-153. النفح، 2/ 627.

40. محمد بن سُراقة بن محمد بن إبراهيم الشاطبي ويكنى أبا القاسم، ولد بشاطبة سنة (592هـ)، قدم الديار المصرية، سمع من ابن شداد بحلب، وتولى مشيخة دار الحديث البهائية فيها، توفي في القاهرة سنة (662هـ) [1].

41. محمد بن سعيد بن محمد بن هشام بن عبدالحق أبو الوليد فخر الدين الكناني الشاطبي المعروف بابن الجَنّان. ولد بشاطبة سنة (615هـ)، صحبه ابن سعيد بمصر ودمشق وحلب، وأنشده من شعره، توفي بدمشق ودفن بسفح قاسيون سنة (675هـ) [2].

42. محمد بن عبدالرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن محمد بن فتوح بن محمد، الحكيم اللخمي ذو الوزارتين ويُكنى أبا عبدالله، رندي النشأة، إشبيلي الأصل، رحل إلى الحجاز عام (683هـ) فحجّ وزار وتجول في بلاد المشرق، ودخل دمشق ثم كرّ راجعاً إل المغرب، ومن شيوخه قطب الدين شيخ دار الحديث بالقاهرة. توفي سنة (708هـ) وكان مولده برُندة سنة (660هـ) [3].

43. محمد بن عبدالله بن عبدالله بن مالك الإمام العلاّمة جمال الدين الطائي الجياني، وُلد سنة (601هـ) أو في التي بعدها، وسمع بدمشق من مكرم وأبي صادق، توفي فيها سنة (672هـ) [4].

44. محمد بن عبدالله بن محمد بن أبي الفضل الإمام الأوحد شرف الدين أبو عبدالله السلمي المُرسي، المحدث المفسر النحوي، وُلد بمرسية سنة تسع وستين وقيل سبعين وخمسمائة وحج ودخل العراق وخراسان والشام ومصر، وسمع جماعة

---

(1) المغرب، 2/ 388. ذيل المرآة، 2/ 304-307. عيون التواريخ، 20/ 313. الوافي، 1/ 208-209. النفح، 2/ 63-64.

(2) القدح، 206. المغرب، 2/ 383-384. ذيل المرآة، 3/ 197-203. مسالك الإبصار (مخطوط)، ج11/ ق2/ 489-491. الفوات، 3/ 263-267. بغية الوعاة، 1/ 112. النفح، 2/ 120-123.

(3) الإحاطة، 2/ 444-476. الكتيبة الكامنة، 195. النفح، 2/ 618-619 و5/ 497-507.

(4) عقود الجمان (مخطوط) 7، ورقة 133-134. الفوات، 3/ 407-409. الوافي، 3/ 359-363. مرآة الجنان، 4/ 203. بغية الوعاة، 1/ 130-137. النفح، 2/ 222-231.

كثيرة، وقرأ الفقه والأصول، وله نظم ونثر حسن، التقى به ابن الشعار بحلب سنة (637هـ)، توفي بعريش مصر وهو متوجه إلى دمشق، وكانت وفاته سنة (655هـ)[1].

45. محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبدالله الحاتمي، محيي الدين ابن عربي وُلد بمرسية سنة (560هـ) قرأ القرآن على أبي بكر بن خلف بإشبيلية، ارتحل إلى المشرق سنة 598هـ، دخل مصر وأقام بالحجاز ودخل بغداد والموصل، مات بدمشق سنة (638هـ)[2].

46. محمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن علي اليَحْصُبي، أبو عبدالله الندلسي، كان خفيف الروح حسن المعاشرة، نزل دمشق وخالط صدورها، وكان يميل إلى البساطة والفقر، ولبس الصوف، له شعر حسن[3].

47. محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن سَلَمة الأنصاري الغرناطي، قدم المشرق وأنشد من شعره لابن جَمّاعة في القاهرة بعد قدومه من مكة والمدينة، رام العودة للأندلس ولم يتوفر له ذلك، وتوفي بمصر سنة (703هـ) عن نحو خمسين سنة بالبيمارستان المنصوري[4].

48. محمد بن علي بن يحيى بن علي الشامي الأندلسي الغرناطي، قدم مصر حاجاً، وأقام بمكة والمدينة، وكان إماماً فاضلاً عالِماً متفنناً في العلوم ما بين فقه وأصول ونحو ولغة وقراءات، مولده بغرناطة سنة (671هـ) وتوفي سنة (715هـ)[5].

---

(1) معجم الأدباء 18/ 209-211. عقود الجمان (مخطوط) 6، ورقة 240-241. الذيل على الروضتين، 195-196. عيون التواريخ، 20/ 117-119. الوافي 3/ 355-356.

(2) مرآة الزمان، ج8/ ق2/ 736. عقود الجمان (مخطوط) 7، ورقة 138-139. الذيل على الروضتين، 170. الذيل والتكملة 6/ 493-494. عنوان الدراية، 156-158. الفوات 3/ 436-440. الوافي 4/ 173-178. اليافعي، عبدالله بن أسعد: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت 1970، 4/ 100-101. البداية والنهاية 13/ 167. النفح 2/ 161-169، 173-184. شذرات الذهب 5/ 190-202.

(3) عقود الجمان (مخطوط) 6، ورقة 3.

(4) النفح، 2/ 661.

(5) ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة 1966، 4/ 214. النفح 2/ 661-662 و5/ 59-60.

49. محمد بن علي بن يوسف بن محمد الأنصاري الشاطبي الأصل، البلنسي المولد سنة (601هـ)، لقبه المشارقة برضيّ الدين، وتوفي بالقاهرة سنة (684هـ) [1].

50. محمد بن عمر أبو عبدالله الغُماري من أهل ميورقة، رأى ابن الشعار من شعره ما مدح به الوزير الكبير مؤيد الدين أبا نصر إبراهيم بن يوسف الشيباني بحلب [2].

51. محمد بن عيسى بن محمد بن ذي النون جمال الدين أبو عبدالله المالقي، من أشياخ أبي حيّان، لقيه ببلبيس من ديار مصر، كان مولده بمالقة سنة (617هـ) [3].

52. محمد بن عيسى بن المناصف القرطبي، تفنن في العلوم، ولي أكبر خطط القضاء مثل مُرسية وبَلنسية، وهو رقيق الشعر، متين العلوم فيما يتعلق بالأصول والفروع، ولي قضاء سِجِلْماسة، وحجّ وأقام بمصر قليلاً، وكرّ راجعاً فمات سنة (620هـ) [4].

53. محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الغرناطي، إمام النحاة بالديار المصرية، وشيخ المحدثين بالمدرسة المنصورية، كان مولده بغرناطة سنة (654هـ)، وخرج إلى المشرق سنة (679هـ) بعد أن تصدّى للتأليف في الرد على أبي جعفر ابن الطباع وتكذيب روايته، لأنه قد نال من ابن الزبير أستاذ أبي حيّان، فرفع أمره إلى السلطان، ونُفِّذَ الأمرُ بتنكيله، بقي في المشرق إلى حين وفاته في القاهرة سنة (745هـ) [5].

54. موسى بن محمد بن عبدالملك بن سعيد أبو عمران ولد سنة (573هـ) ارتحل للمشرق وبقي حتى توفي في الإسكندرية سنة (640هـ) [6].

---

(1) الوافي، 4/ 190، بغية الوعاة 1/ 194. الشذرات 5/ 389.

(2) عقود الجمان (مخطوط)، 7، ورقة 218. الذيل على الروضتين، 158.

(3) النفح 2/ 44-45.

(4) المغرب 1/ 105-106.

(5) الفوات 4/ 71-79، الصفدي، خليل بن أيبك: نَكْت الهِمْيان في نُكَتْ العميان، وقف على طبعة أحد زكي بك، المطبعة الجمالية بمصر 1911، 280-286. الوافي 5/ 267-281. الإحاطة 3/ 43-60. الكتيبة الكامنة 81-86. حسن المحاضرة 1/ 255. درة الحجال 2/ 122-124. النفح 2/ 535-538.

(6) المغرب 1/ 99. النفح 2/ 333-335، 350-352.

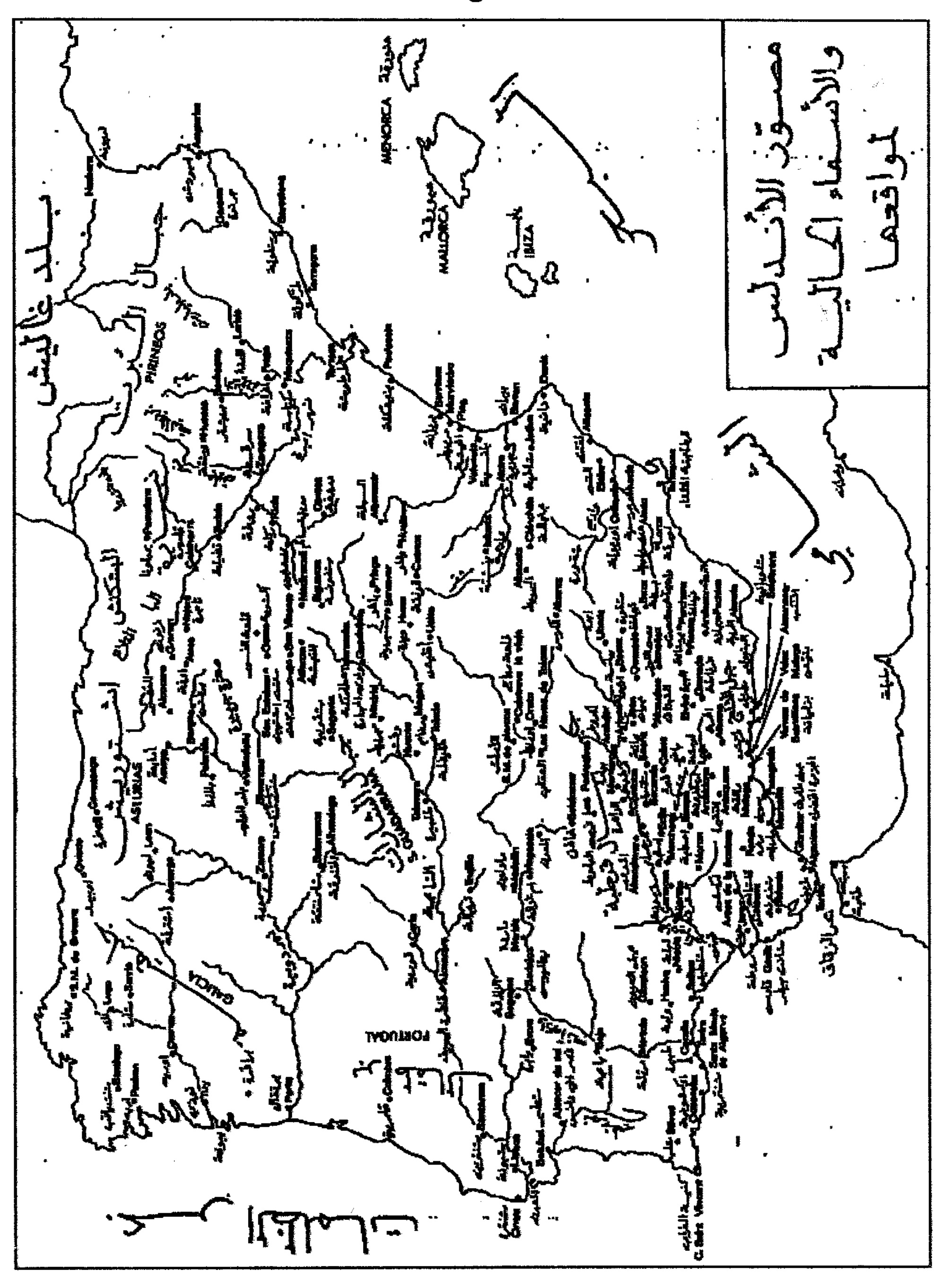
55. يحيى بن سليمان بن شاؤول، أبو زكريا الحريزي اليهودي، من أهل طُليطِلة، كان شاعراً قويّ القريحة غزير المادة، له شعر كثير في المدح والهجاء، كان رديء اللسان خبيث الطوية، ما مدح أحداً إلا وعلا، صنف مصنفات باللسان العبري، منها كتاب المقامات، ومقامة مفردة سماها «الروضة الأنيقة» باللسان العربي، كان قد طاف في البلدان وجالَ في الأقطار، ثم سكن بأخرة حلب، ولم يزل بها إلى أن مات سنة (622هـ)[1].

56. يحيى بن غانم بن محمد بن علي بن يوسف بن صالح أبو زكريا الخزرجي من أهل غرناطة، كان رجلاً من أهل القراءات والأدب، ويقول شعراً لا بأس به، له قصيدة يمدح فيها الصاحب كمال الدين أبا القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة، أنشدها لابن الشعار أبو عبدالله محمد بن يوسف بن محمد الإشبيلي البِرزالي بحلب[2].

57. يوسف بن عتبة الإشبيلي، مطبوع في الشعر والتوشيح، اجتمع به ابن سعيد في القاهرة مراراً، وكان قد فارق إشبيلية حين تولاها ابن هود، واضطرمت لفتنة الأندلس ناراً، وقدم مصر هارباً من تلك الأحوال، توفي في مارستان القاهرة سنة (636هـ)[3].

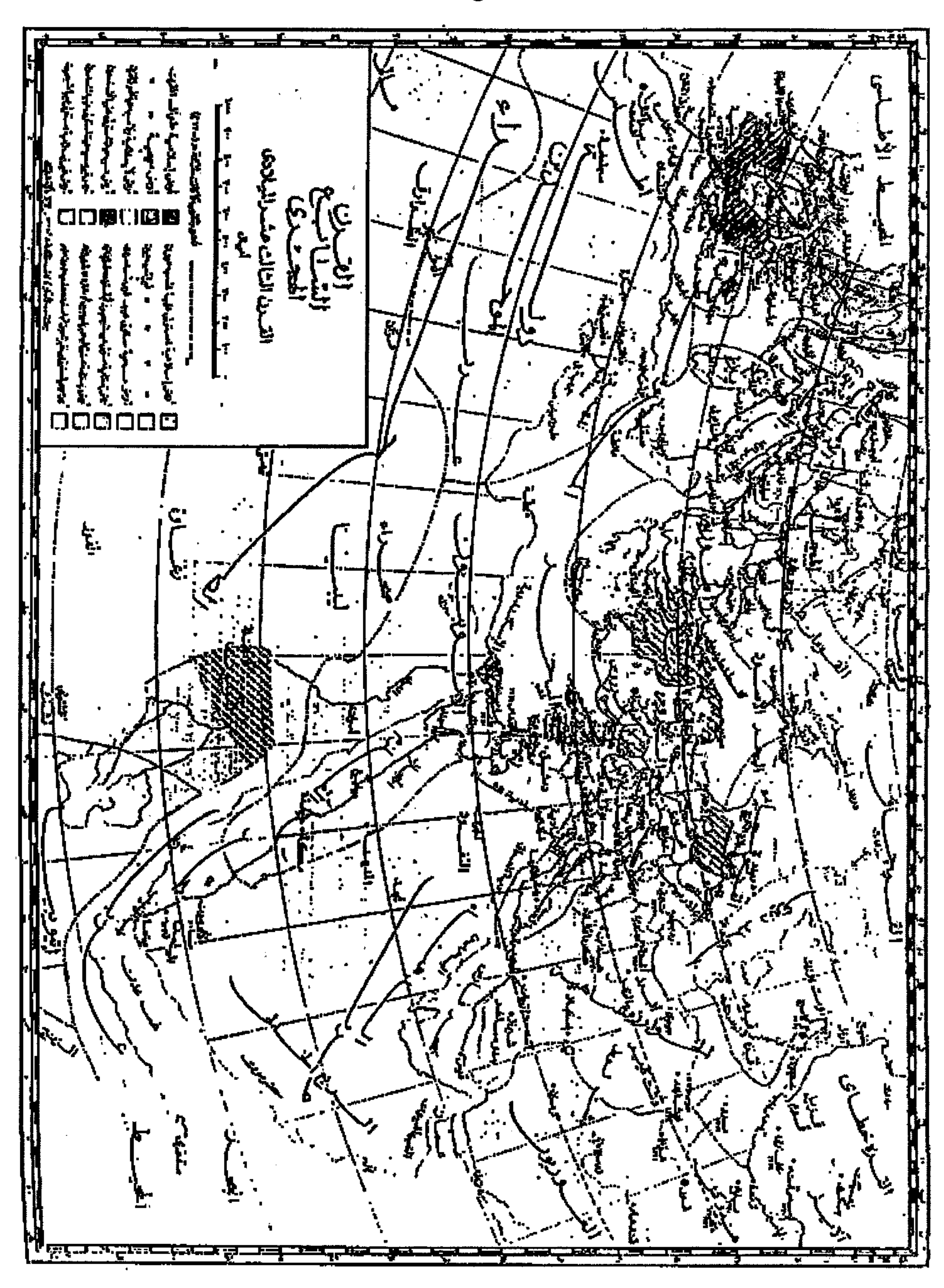
(1) عقود الجمان (مخطوط)، 9، ورقة 227-231. النفح 2/ 660.
(2) عقود الجمان (مخطوط)، 10 ورقة، 20-22.
(3) القدح، 161-164. المغرب 1/ 263-264. النفح 2/ 111-112 و 663-664.

ملحق (2)



مصور الأندلس والأسماء الحالية لمواقعها
MENORCA
MALLORCA
IBIZA
PIRINEOS
ASTURIAS
GALICIA
PORTUGAL

ملحق (3)



ملحق (4)

جدول زمني بالتاريخين الهجري والميلادي للفترة الممتدة (600-700هـ) (1203-1300م)[1]

السنوات بالتاريخ الهجري	السنوات بالتاريخ الميلادي	السنوات بالتاريخ الهجري	السنوات بالتاريخ الميلادي
600	1203	618	1221
601	1204	619	1222
602	1205	620	1223
603	1206	621	1224
604	1207	622	1225
605	1208	623	2 كانون ثاني 1226
606	1209	624	22 كانون أول 1226
607	1210	625	1227
608	1211	626	1228
609	1212	627	1229
610	1213	628	1230
611	1214	629	1231
612	1215	630	1232
613	1216	631	1233
614	1217	632	1234
615	1218	633	1235
616	1219	634	1236
617	1220	635	1237

(1) مأخوذ عن أكرم حسن العلبي: التقويم، مؤسسة المصادر، بيروت، ط1، 1991، ص188-208.

السنوات بالتاريخ الهجري	السنوات بالتاريخ الميلادي	السنوات بالتاريخ الهجري	السنوات بالتاريخ الميلادي
636	1238	658	1259
637	1239	659	1260
638	1240	660	1261
639	1241	661	1262
640	1242	662	1263
641	1243	663	1264
642	1244	664	1265
643	1245	665	1266
644	1246	666	1267
645	1247	667	1268
646	1248	668	1269
647	1249	669	1270
648	1250	670	1271
649	1251	671	1272
650	1252	672	1273
651	1253	673	1274
652	1254	674	1275
653	1255	675	1276
654	1256	676	1277
655	1257	677	1278
656	8 كانون الثاني 1258	678	1279
657	29 كانون أول 1258	679	1280

السنوات بالتاريخ الهجري	السنوات بالتاريخ الميلادي	السنوات بالتاريخ الهجري	السنوات بالتاريخ الميلادي
680	1281	691	24 كانون أول 1291
681	1282	692	1292
682	1283	693	1293
683	1284	694	1294
684	1285	695	1295
685	1286	696	1296
686	1287	697	1297
687	1288	698	1298
688	1289	699	1299
689	1290	700	1300
690	4 كانون ثاني 1291		

فهرس

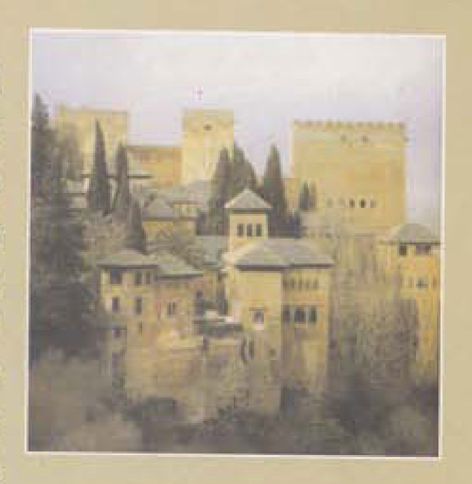
الإهداء 5
المقدمة 7
مدخل 13
الفصل الأول: الأوضاع العامة في الأندلس ومصر والشام 19
1- الأوضاع العامة في الأندلس 19
الظروف السياسية 20
الظروف الاقتصادية 27
الظروف الاجتماعية 33
2- الأوضاع العامة في مصر والشام 42
الظروف الطبيعية 42
الحج والتقديس وزيارة الأماكن المقدسة في المشرق 45
الظروف السياسية 51
الظروف الاقتصادية والعلمية 55
1- تنوع الزراعات والصناعات واتساع التجارة والثراء 55
2- التقدم العلمي والفكري والمستوى الحضاري 59
الفصل الثاني: موضوعات شعر النازحين 69
علاقة الشعراء بالملوك والسلاطين وكبار رجال الدولة 69
الغربة والحنين إلى الوطن 76
وصف مدن المشرق والمظاهر الحضارية فيها 88
المجالس والمطارحات والمساجلات والمعارضات الأدبية بين الشعراء المرتحلين والشعراء المشارقة 101

الزهد والتصوف 124
اللهو المجون 130
موضوعات متفرقة 136
الفصل الثالث: الدراسة الفنية 147
الصورة الشعرية 147
الفنون البديعية 159
الأسلوب واللغة 165
بين التأثر والتأثير 185
الخاتمة 201
المراجع 203
الملاحق 219
ملحق بتراجم الشعراء المرتحلين من الأندلس إلى مصر والشام في القرن السابع الهجري .. 221
ملحق الخرائط 233
جدول بالسنوات الهجرية وما يقابلها بالميلادية 235

د. آمنة البدوي

شعر النازحين

من الأندلس إلى مصر والشام
في القرن السابع الهجري
بين التأثر والتأثير



يكاد الشعور بالغربة يشمل معظم قصائد الأندلسيين في أغراضها المختلفة، في علاقاتهم بالملوك والوزراء والقضاة، وفي علاقاتهم بالمدن والجزر والأنهار في المشرق، وفي مطارحاتهم ومجالسهم. فكل ما يرونه في المشرق يذكرهم بأندلسهم الذي فقدوه، فيقارنون بين أيامهم الماضية في وطنهم، وبين الظروف التي يعانونها في مدن المشرق، فقد أصبحت الغربة هاجساً يسكنهم، يردّدون ألفاظها ومعانيها المختلفة في معظم ما يكتبون، مكثرين فيه من الحنين الدائم لفردوسهم الذي فقدوه، وتناءوا عنه.

لقد ارتبطت الغربة بالرحيل القسريّ الذي باعد بين الأندلسيين ووطنهم، بعد توالي سقوط المدن الأندلسية، وإذا كان الوطن قد انتُزِعَ فالشّعور بالغربة والألم والشكوى والتحسّر على فوات المطالب لا ينفك يلازمهم.

حرص المغاربة أن يعطوا أفضل انطباع عنهم في ديار الغربة، وهذا شأن الغريب في غير وطنه، لقد كانوا أفراداً فاعلين في كافة المجالات في المجتمع المشرقي من خلال دورهم في الحياة العلمية والحضارية.

فقد امتزجت الغربة بنفوس الشعراء المرتحلين، فعبرّوا عنها في كل مواقفهم وجعلوها مبرّراً لكل ما يلاقونه من مصاعب في ديار الغربة، ورسموا لها صوراً صادقة تعبرّ عمّا في نفوسهم، وصلت حدّ المبالغة أحياناً، وهذا شأن الغريب.



